طرق الإرشاد
في الفكر والحياة

ترجمة كتاب

İrşad Ekseni

عن التركية



دار النيل للطباعة والنشر

الطبعة الخامسة: ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

ISBN: 978-975-315-349-2

DAR AL-NILE

Emniyet Mah. Huzur Sok. No: 5

34676 Üsküdar – İstanbul / Türkiye

Tel: +90 216 3186011   Faks: +90 216 3185220

مركز التوزيع / فرع القاهرة

العنوان: ٧ ش البرامكة – الحي السابع – مدينة نصر – القاهرة

تليفون وفاكس: ٢٠٢٢٢٦٣١٥٥١+

المحمول: ٢٠١٦٥٥٢٣٠٨٨+

جمهورية مصر العربية

www.daralnile.com

طرق الإرشاد
في الفكر والحياة

تأليف

محمد فتح الله كولن

ترجمة

إحسان قاسم الصالحي

بِسمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تقديم وتمهيد..!

عندما لا يحترق القلب شوقاً، والروح عذاباً، والذهن همّاً، فلا تتكلم.. وإلاّ فلن تجد أحداً يصغي إليك.

وعندما لا يملأُك الشعور بأنّ دعوتك هي قلب الكون، وروح الوجود، وأنها ميزان العالم، وصمَّام أمنٍ وأمانٍ له، فكيف تواتيك الشجاعة لمواجهة العالم كله؟!

وعندما لا يلتهب في دمك عِرقٌ بطولي عارم يدفعك لتحدي قدرات هي أعظم من قدراتك، وإمكاناتٍ هي أعظم من إمكاناتك، فكيف إذن ستخرق المتحديات وتصنع الأعاجيب؟!

وعندما لا تشعر بمسؤوليتك في إنقاذ الإيمان مما يحيق به من خطر عظيم في العالم كله، فكيف تريد إذن من هذا العالم أن يفتح أذنيه ليسمعك؟!

وعندما لا يصدر كلامك مُحمّلاً بألطاف من الشفقة والرحمة بأولئك المجذومين روحياً ومعنوياً، فإن كلامك معهم لا يزيد عن كونه ثرثرة لا يترك أثراً في أحد.

وعندما لا تحسُّ بأنفاس الملائكة تمازج أنفاسك وبرفيف أجنحتها يلاطف وجهك شاهدةً على ما ينطق به لسانك فلن تشُمَّ رائحة الصدق الذي من دونه لا تتفتّح لكلامك قلوب الآخرين وعقولهم.

وعندما لا تدفعك مسؤوليات الدعوة لزيادة الإدراك، وفهم توجهات العالم الروحية والفكرية، واكتشاف اللغة التي يمكن من خلالها أن يفهمك فأنت عابث غير جاد، والعابثون من الدعاة يضرون ولا ينفعون ويؤخرون ولا يقدمون.

وعندما تصاب الروح بالفتور، وتنخفض درجة حرارة القلب، ويخبو أوارُ الفكر، فأنت متوعك روحياً، فعليك أن تصمت، لأن الصمت هنا أبلغ من كل كلام ميت تقوله.

وإنْ لم تطرح نفسك التي تضايقك وتعذبك بعيداً خارج نفسك فكيف يطهر كلامك ويتقدس فعلك؟!

وإنْ لم تشرق شمس اليقين بالنصر في سماء كيانك فكيف يكون كلامك دافئاً وصوتك قوياً؟!

وإنْ لم ترتّب بيتَ نفسك أولاً فكيف تستطيع أن ترتب بيوت نفوس الآخرين؟!

وإنْ لم تكن نفسك جميلةً فكيف تستطيع أن تجمّل نفوس الآخرين؟!

هذه بعض ملامح عامّة يمكن استخلاصها من هذا الكتاب القيم. فمؤلف الكتاب الداعية الكبير الأستاذ الفاضل فتح الله كولن –أمدّ الله في عمره– له في مجالات الدعوة إلى الله تعالى معاناة وتجارب وأحداث ووقائع يمكن أن يفيد منها الدعاة في كل مكان، وله في هذا الشأن مبتكرات وإبداعات أسهمت في بناء صرح إيماني عظيم على المستويين المادي والمعنوي تكاد تغطي خارطة تركيا الحديثة شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً. فضلاً عن إنجازات مثلها في أقطار أخرى خارج تركية.

وعلينا ونحن نقرأ هذا الكتاب ألاّ نتابع انطلاقات قلم الكاتب وحدها، بل علينا إلى جانب ذلك أن نتابع انطلاقات روحه، فالقلم يومئ ويشير إلى هذه الانطلاقات إلاّ أنه قاصر عن التعبير عنها.

وخير ما يترجم عن انطلاقات روحه ويفصح عنها، هذا الصرح الإيماني العظيم بقدميه الراسختين في الأرض، وبقمته التي تكاد تلامس السماء، وعندها نستطيع أن ندرك عظمة الروح وقوة الإرادة عندما يجتمعان في الداعية ماذا يمكن لهما أن يفعلا.

والكتاب -بعد هذا الذي قلناه عنه- كتاب فريد في نوعه، إذْ هو ليس كما قرأنا من كتب في الموضوع نفسه بل يمكن أن نطلق عليه عنواناً آخر، فنقول: إنه كتـــاب في (فقه المعاناة والألم) من أجل الدعوة، بالإضافة إلى كونه قدحةً تضيء الجوّانيّة العمي قة للإنسان وما تطفح به من نازع إيماني فطري عميق، والكتاب يكاد كله يكون عملية تحريكية لهذه الفطرة المدركة، وترجمة رؤاها، والتعبير عن أهدافها ومقاصدها، كما أنه -أي الكتاب- ضدّ الفوضوية الروحية والفكرية التي تعاني منها الدعوات. وهو يهدف إلى إرساء قواعد أساسية منظمة في (العمل الدعوي) تحول بين الداعية والتفَلّت إلى مجالات أخرى غير ملتزمة وغير منضبطة، وبذلك تحتفظ الدعوات بقواها وتمنعها من الإنفلات والتبدّد في غير فائدة ولا طائل.

والأستاذ يرى: كما أن الحياة التي نحياها ونستنشق أنفاسها عملٌ فنيٌّ جماليٌّ خلاّق، أبدعه الخلاّق العظيم، فكذلك ينبغي أن تكون "الدعوة" حيـــاة تحيا بأنفاس الدعاة وتتحرك بداينمية أرواحهم، وعلى قَدْرِ ما يعطونها من حياتهم، وينفخون فيها من أرواحهم وعقولهم تنمو وتكبر وتتسع، وعلى قدر توجههم إلى الله تعالى والاســـتمداد من رحمته، والتضرع إليه، والوقوف بذلة ببابه، تتقدّس دعوتهم وتطهر وتجمل حتى تصبح ذوقاً كلَّهَا، وخُلُقاً كلَّهَا، وأدباً كُلَّها، وتظلُّ بَصْمَتُها بصمةً لا يخطئها أحد بين بصمات الدعوات.

والإيمان عند الأستاذ فتح الله -كما يكشف عنه في هذا الكتاب- طاقة حركية ينبغي أن تتحرك على جميع الجهات، وفي جميع الجوانب، فهي في الوقت الذي ترفع الإنسان إلى سماوات عالية من الإدراكات الروحية، فإنها

في الوقت نفسه تجوب الأرضَ وتتسلَّلُ إلى مفاصلها وشرايينها لتبعث الحياة في روحها الثقيلة، ودمها المتجمد. فعظمة الإيمان عظمة كوكبية كونية متحركة، إذا وقفت عن الحركة انطفأت وماتت، كأي كونيٍّ آخر من كونيات هذا العالم الذي جعل خالقه حياته في حركته.

وعظمة الروح وقوة الإرادة اللَّتان تنبعثان من شخصية الأستاذ (فتح الله) تتدفقان منه نحو طلبته كما تتدفق شعاعات الفجر في بقايا من ظلمة الليل. فهو يقاسم طلبته حياتهم، ويقاسمونه هم حياته، فهو فيهم باعث دراية ويقظة، وهم فيه باعث نظر وتأمل وحُنوٍّ وإشفاق، هو ضميرهم إذا تكلّم أو صمت، وهم ضميره إذا تكلموا أو صمتوا، وهو دموع أحزانهم وهم دموع أحزانه، وهو قلبهم إذا ترنَّمَ شجىً، وهم قلبه إذا فاض حزناً وأسىً، وإنهم ليرون في أحزان أستاذهم عالماً من القوة الكاسحة التي لا يقف أمامها شيءٌ، وهو يرى في أحزانهم عالماً من قوة إيمانٍ لا يؤودُها شيء ولا تثقلها فادحات الخطوب، وأن يمين الدهر مشلولةٌ دونَ الوصول إليهم، وإرادة الشرّ على صلابة أصلابهم ستتكسّرُ.

وهم يرون فيه سِرّاً إلهياً خفياً إن تكشَّف لهم بعضه إلاَّ أن أبعاضه الأخرى لم تتكشّفْ بعد، وربما سيأتي زمانها ويحين حينها، لذا فإنهم يتلقون ما ينفث به وحيُ ضميره، وينبثق عنه فكره، وينفجر عنه فؤاده، بكل الاحترام والتقدير والولاء.

ولأنَّهم يرونه قبضة من طينة الحق فإنهم لن يترددوا لحظةً واحدةً في خوض البحار والقفار من أجل الإيمان الذي كرّسوا حياتهم ووجودهم في خدمته. فما الحياة كما يعلمهم أستاذهم إلاَّ لمحة بين أبدين، ولحظة متحركة تفصل أبد الماضي عن أبد الآتي ما أسهلَ أن يتجاوزها الإيمان دون أن تَمُسَّ هدوءهُ الجوهريَّ في الأعماق.

* * *

والأستاذ هنا لا يُعَلِّمُ بَقدْر ما يناجي، إنَّه هنا روحٌ كروح النَّاي يناجي حبَّات القلوب، ويسكب أنينه ونواحه في الأرواح، إن آلام الإسلام في ستة من القرون الماضية قد تجمَّعَتْ كُلُّها في روحه، فذاق حزنها ولبس شجاها، وغُصَّ بمرارتها، ولكنَّ هذا الأسى، وهذا الشجوَ ليس أسى يأْسٍ، ولا شجوَ قُنُوط، إنما هو أسىً في ذَوْب من الضياء، وحزنٌ في هالة من الأمل، إنه حزنٌ يعمّقُ قوّة النظر ليرى الأعمق والأبعد، وفي الأعمق والأبعد يكمن الأمل، ويأتي الفرج.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسولنا الأمين.

أديب إبراهيم الدباغ

مقدمة

الإنسان كائن يتردّى إلى أســفل السافلين بما فيه من أنواع الضعف، ويتسامى على الملائكة بفضائله ومزايــاه. فكل فكر تربويّ لدى تقييمه للإنسان يبقى ناقصاً وقاصراً ما لم يأخذ بنظر الاعتبار هذه المزايــا وأنواع الضعف معا.

والإسلام ينظر إلى الإنسان كلاً واحداً لا يتجزأ؛ يتناول جوانب ضعفه بأســلوب الترهيب والزجر ويعامل جوانب فضائله ومزاياه بأسلوب الحث والحض. ولهذا نرى مباحث الخوف والرجــاء، والجنة والنــار، والرحمة والغضب تــرد متعاقبة وبصورة متوازنة في القرآن الكريم وفي الأحاديث الشريفة. فأنموذج الإنسان في الإسلام ليس ذلك الذي أصبح يائساً مشلول القوى لا حراك له من شدة الخوف، ولا ذاك الذي طغى و تفرعن من شدة الأمل والرجاء.

والحياة الدينية لا تتحقق ولا تدوم إلاّ بالأحكام والقوانين، فبينما ينفُذ الإنسان في عالم المعنى بتقوية حياته المعنوية، يؤخذ تحت رقابة بعض الأحكام الجزائية من جهة أخرى، لإدامة استقامته وصيانته من الزلل والتنكب عن الصراط السوي. بيد أن ظاهر أوامر هذه الأحكام الجزائية قد يبدو مكدّراً ممضّاً، إلاّ أنه عندما يُنظر إلى النتائج المترتبة عليها والتي تؤول إليها، ستظهر في الأقل أن تلك الأحكام هي لصالح الإنسان كأحكام الترغيب والترهيب وسيشرق وجه صبوح مليح كحورالجنة تحت ذلك الوجه الذي بدا قمطريراً.

لقد أفلست جميع الأنظمة التي تناولت الإنسان من جهة واحدة. والتي لم تعلن بعدُ إفلاسها تحث السير نحوه؛ ذلك لأن هذه الأنظمة محرومة من

الحقيقة والواقعية ومن حياة متوازنة وفقها. فالنتيجة المحتومة لهذا الحرمان هي الإفلاس والانهيار.

فنحن إذن من هذه الجهة مضطرون لدى تقييمنا للإنسان أن ننظر إلى الأحكام الإسلامية من زاوية نظر الأخلاق الإلهية، تلك هي أخلاق القرآن. وغايتنا الأساس ينبغي أن تكون إراءة الناس طريــق التخلق بأسمى الأخلاق التي تخلق بها سيد العالمين ﷺ. أليست غاية بلوغ الإنسان كماله التخلق بهذه الأخلاق السامية؟

إن الأحكام الإسلامية يمكن ضمّها مقدّماً في مجموعتين أساسيتين. ولعل أقصر تعبير يمكن أن نطلقه عليها هو أحكام "أنفسية وآفاقية".

ففي الأولى: ما يجب على الإنسان فعله لدى بناء روحه وإعمار عالمه الداخلي.

وفي الأخرى: ما يجب عليه العمل نحو الخارج.

إن على كل فــرد أولاً أن يُمضي حياته المعنوية الخاصة بــه في حدود الاســتقامة، حيث إن جميع أركان الإيمان تتميز بإكساب الفرد هــذه الاســتقامة. وهي موجودة فعلاً و بمستوى معين في كل فرد مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر. ولكن هذه الاستقامة ينبغي أن تعزّز بالعبادات التي نطلق عليها "الأعمال الصالحة" كي تصبح مَلَكة وطبعاً ملازماً للفرد. فيحقق الفرد ما يجب عليه في نطاقه الخاص من هذه الأحكام الإسلامية بالعبادات المفروضة من صلاة وصيام وزكاة وحج، فضلاً عن تعضيد حياته الروحية وتزيين عالمه الداخلي بـــ"النوافل". ولا بد أن نذكّر هنا أن هذه الأحكام لا تنحصرفي ما يجب أن يُؤدّيه الفرد، بل تتعدى إلى ما يجب عدم القيام به من أعمال أيضاً. بمعنى أن الجنة في طرف من هذه الأحكام وفي طرفها الآخر جهنم، أو بعبارة أخرى إن الأحكام تظهر في طرف منها الثواب وفي طرفها الآخر العقاب. وهذا هو التوازن بعينه.

وعلينا أن نتناول المسألة من زاوية الحقائق والواقع البشري. فالخالق سبحانه وتعالى خلقنا بشراً، مركباً من أنواع من النقائص إلى جانب أنماط من الفضائل. علماً أن هذه الخاصية لا توجد في مخلوقات أخرى بمقدار ما توجد في الإنسان،. فالحيوانات لا تستطيع تجاوز الحدود المرسومة لها، ولا مسؤولية عليها لعدم تمتعها بأية إرادة جزئية. و الجن متخلف عن الإنسان كثيراً من حيث الاستعدادات، ومعلوم أن تركيب الشياطين مندمج مع السيئات إلى حد غدت الشياطين لا تعمل إلاّ للشر وحده. أما الملائكة فاستعداداتها محدودة أيضاً، واستعملنا كلمة "محدودة" لبيان أن طريق التكامل مسدود أمامهم قياساً بالإنسان. وبينما الملائكة مصونون من القيام بالعصيان نجد الشياطين محرومة من القيام بالطاعة. أما الإنسان فقد خلق على وفق استعدادات قابلة للحسنات والسيئات بنفس المقدار. فكما هو مرشح لأن يترقى إلى أعلى عليي المخلوقات يمكن أن يتردى إلى أسفل سافليها.

إن الإسلام في فعالية مستديمة وحث دائب لإزالة السيئات إزالة تامة بما جاء به من أحكام وأوامر. فالطريق الأسلم الدائم للوقاية من البعوض هو تجفيف المستنقعات. ولا جدوى من التشكي من ثعبان ضخم والعجز عن محاولة إزالته بعد أن كان القضاء عليه ميسوراً وهو صغير. ونعتقد أن تناول الموضوع من هذه الزاوية، لدى تدقيقنا للأحكام الإسلامية، يكون وسيلة لدرك المسائل بشمولية أكثر.

وإن من الطرق والأصول التي تحقق الهدف والغاية في الأحكام الإسلامية، كون الترهيب مع الترغيب والأمر بالمعروف مع النهى عن المنكر والثواب الحق جنب الجزاء والعقاب. فالأخذ بالعقاب تجاه السيئات والعوامل المؤدية إليها -أي تجفيف المستنقعات- محاولة لقلع جذور السيئات كلياً.

نحاول في هذا الكتـــاب الذي بين أيديكم أن نتنـــاول الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بجوانبه المختلفة ومن زواياه المتنوعة. والمهم في الأمر أن

نجعل انطلاقنا في البحث وقاعدتنا في الدراسة أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أحد أحكام الإسلام ونضعه نصب أعيننا دائماً ونقوّم بهذه الحقيقة المسائل. نأمل أن نغنم من هذا التقييم أبعاداً جديدة وكثيرة في فهمنا لأصول الإرشاد والتبليغ في الإسلام.

الفصل الأول

تحليل التبليغ

١. التبليغ غاية وجودنا

٢. الحاجة إلى التبليغ ومكتسباته

٣. التبليغ أثمن هدية

٤. التبليغ يتطلب الاستمرار

٥. جوانب التبليغ المتوجهة إلى الحق سبحانه وإلى الخلق

٦. التبليغ والعلاقة بين الفرد والمجتمع

٧. الإرشاد والإيمان والنفاق

٨. الإرشاد والهلاك من خلال الحوادث التاريخية

٩. التبليغ والإرشاد مقياساً لنصرة الدين

١- التبليغ غاية وجودنا

إن "الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر" طريق يؤدى إلى الغاية من خلق الوجود. فقد فتح الله سبحانه وتعالى قصر الكون لأجل هذه المهمة السامية والوظيفة الجليلة، وبوأ الإنسان منـــزلة الخلافة في ذلك القصر المنيف لأجلها. وأُسست سلسلة النبوة لهذا السبب. فسيّدنا آدم عليه السلام هو أول إنسان وأول نبي على الأرض، ما إن فتح أبناؤه أعينهم حتى وجدوا أمامهم أباهم نبياً يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.. وهكذا تشكلت البشرية بدءاً بالنبوة. وفي النتيجة أثمرت شجرة النبوة سيد الكونين ذلك النبي العظيم الذي هو بذرتها الأولى، وخُلقت الأفلاك لأجله ﷺ. ولا ريب أن غاية بعثته هي التبليغ والدعوة إلى الله والإرشاد. وما روح التبليغ والإرشاد إلاّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. بمعنى أن الوجود ما وجد إلاّ لأجل هذه الغاية، ولا جرم أن عملا هو سبب خلق الوجود هو أجلّ الأعمال.

نعم، فقد وجد أبناء آدم عليه السلام أن أباهم يسدد نظره كل آن وأوان إلى العالم العلوي، ويستلم الأوامر من هناك ويرضخ خاشعاً أمام هذه الأوامر، بل لا تغادره الخشية من تلك العوالم الأُخرى. حتى غدا لهم"النبي الأب" كالنجم القطبي في سمائهم يدلّهم إلى سواء السبيل، فسيدنا آدم هو أول إنسان ونبي أدى مهمة "الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر". ولا غرو فليس هو بدرب يفتح لمرة واحدة فقط ثم يسدّ، بل تتابع عقب سيدنا آدم عليه السلام أنبياء عظام يسلكون الدرب نفسه، إذ كانت حاجة البشرية مستمرة إلى الأنبياء. لأن الفضائل مهما بلغت في الإنسان فإنها تضعف وتشحب وتنتهي بمرور الزمن وتحت وطأة الحوادث. وقد أشار القرآن الكريم إلى عهود طال

عليها الأمد من دون تجدد فأصبحت وسيلة لقسوة القلوب. وعندها تنخسف عيون البشر وتزيغ الأبصار وتزل الأقدام، فتفقد الإنسانية استقامتها. لذا بعث المولى الكريم الأنبياء تترى لعلمه المحيط بأوضاع البشرية ولسبق رحمته على غضبه. فتولى كل نبي مهمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حسب ظروف زمانه.

أمضى سيدنا آدم ﵇ حياته على هذه الصورة وأوصى أولاده دائماً بأداء الصالحات واجتناب المنكرات. واستمر صدى صوته وإرشاده إلى فترة من الزمن، حتى إذا خفتت نبرات ذلك الصوت وفقدت قوتها ألقى الله سبحانه وتعالى مهمة النبوة على عاتق أحد أبناء سيدنا آدم ﵇ المجتبين. وهكذا كلٌ قد أدّى تلك المهمة الجليلة على أكمل وجه وأتمه. وكلما أفَلَت شمسُ نبي من الأنبياء أشرقت شمس نبي آخر بعد أن أظلمت سماء البشرية. وعلى الرغم من أن الأولياء العظام أيضاً قد ملأوا تلك السماء المظلمة بالنور كالنجوم المتلألئة إلاّ أن نورهم ليس بسطوع ما ينتظر من نور شمس النبوة.

ومرت العصور هكذا إلى عهد سيدنا نوح ﵇، وعندها دوّى في أذن البشرية صوته الجادّ الذي يليق بنبي عظيم من أولي العزم كما عبّر عنه القرآن الكريم ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف:٦٢).

يعني: سينجو مَن يستجيب لي ويطيعني ويركب سفينتي، وستكون هذه النجاة نجاة ظاهرة وباطنة معاً؛ فالسفينة التي تمخر عباب الأمواج المتلاطمة كالجبال تنجي أجسادكم، وتنجون من الغرق في أمواج الحياة الدنيوية والأخروية الرهيبة، وتبلغون ساحل السلامة إن ارتبطت قلوبكم بي وأصغيتم إلى كلامي. وإلاّ ستنتهون وتضمحلون مادة ومعنى ظاهراً وباطناً.

هكذا أمضى سيدنا نوح ﵇ ما يقرب من ألف سنة من حياته في الدعوة بهذا الأسلوب. ثم بعث الله سبحانه بعده سيدنا هوداً ﵇. فردد

أيضاً: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾(الأعراف:٦٨). ودعا البشرية إلى القيام بما يوافق غاية خلقهم. تلك الغاية التي خُلق لأجلها الإنسان. فتعاقبت الأنبياء عليهم السلام لتذكير هذا الإنسان بهذه المهمة، أي ليعرف ربّه ويؤمن به ويستشعر بما آمن به في وجدانه. وقد أُرسل بعد سيدنا هود عليه السلام أنبياء عظام أدّوا المهمة نفسها وسلكوا السبيل نفسه.

وهكذا كلما مُسحت من الأذهان أثر أنفاس النبي السابق تدنت البشرية وتعاقبت هزات عنيفة في حياتها المعنوية، حتى تحولت تلك الحياة إلى أرض جرداء لا حياة فيها. فانتهت تماماً نسائم الانشراح القادم من ذلك العالم السامي، وتدهورت البشرية وتفرقت شذر مذر.

كانت البشرية تعيش هذا الوضع من الظلام الدامس عندما اُرسل سيدنا إبراهيم عليه السلام، فاقتحم صفوف الناس بأنفاس "الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر" الباعثة على الحياة، وهرع إلى كل موضع يرى فيه ثلة من الناس ودعاهم إلى الله وبلّغهم الحق والحقيقة. فالذين أعاروه سمعهم واتبعوه بلغوا شواهق كمالات الإنسانية مجدداً وتجولوا في تلك الذرى.

ولكن بعد فترة من الزمن أخذت البشرية كرة أخرى تغادر الذرى وتتردى تدريجياً إلى ما كانت عليه سابقاً، فتصدرت الأذهان فكرة المادية الجاسية حتى أخذت البشرية تبحث عن ضالتها في الماديات، فهذه المصيبة التي جثمت على صدر البشرية امتدت حتى عصرنا الحاضر، بل نحن أدرى بويلاتها وعواقبها الوخيمة.

فهذا سيدنا موسى عليه السلام ظهر في مثل هذا الجو المادي، في دلتا النيل بمصر، وفي قوم قست قلوبهم فهي كالحجارة أو أشد قسوة. وهو كإخوانه السابقين من الأنبياء مأمور بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فتحمل هذه المهمة الصعبة وأخذ بيد قومه ليرقى بهم إلى الذرى مرة أخرى. فوفّق إلى حد ما في مسعاه، إذ على الرغم من أنه خاطب قوماً لا يسلس قيادهم وهداهم

فقد شاهد كثيراً من ثمار دعوته المباركة وحصيلة سعيه الدائب بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو ما زال على قيد الحياة.

ومما لا شك فيه أن الأخذ بيد الإنسانية والصعود بها إلى الشواهق العالية وجعْلَها تدرك إنسانيتها كاملة ليس بالأمر السهل الميسور؛ فلقد اُستشهد أنبياء كثيرون في هذا السبيل. حتى إن زكريا عليه السلام شُقّ إلى نصفين بمنشار من حديد، وإن سيدنا يحيى عليه السلام استشهد في هذا السبيل، وما الصليب الذي نصب لسيدنا عيسى عليه السلام إلا لهذا الغرض.

وعلى الرغم من كل هذا فالمصاعب والمشاق التي تَعَرَّض لها الرسول الكريم ﷺ هي أدهى منها كلها، إذ لم يبق شيء من الأذى والمشاق إلاّ وعاناها حتى قال لسيدتنا عائشة رضي الله عنها: "لقد لقيتُ من قومكِ ما لقيتُ".[1] في هذا الكلام أنين قلب منكسر صادر من رسول محزون. خذوا هذا الكلام وأوصِلوه إلى جميع الأنبياء والمرسلين حتى سيدنا آدم عليه السلام، وراقِبوا خيالاً وقْعَ هذا الكلام، ستجدون أنه أنين قلب منكسر لكل نبي من الأنبياء. وكأننا نرى سيدنا آدم يجمع أبناءه ويقول لهم: "لقد لقيت منكم ما لقيت" وسيدنا نوح وهود يقولان الكلام نفسه، وهكذا الأنبياء الباقون يرددون الانكسار نفسه لأقوامهم.

وإذا ما عُصر كلام السعداء الذين تعهّدوا هذه الوظيفة وأخذوها على عاتقهم من بعد عهد رسول الله ﷺ، نجد الإنكسار نفسه يتقطر منه:

"لم أذق طوال عمري البالغ نيفا وثمانين سنة شيئا من لذائذ الدنيا... قضيت حياتي في ميادين الحرب، وزنـــزانات الأسر، أو سجون الوطن ومحاكم البلاد. لم يبق صنف من الآلام والمصاعب لم أتجرعه؛ عوملت معاملة المجرمين في المحاكم العسكرية العرفية، ونُفِيتُ وغُرِّبت في أرجاء البلاد كالمشردين، وحُرمت من مخالطة الناس شـــهوراً في زنـــزانات البلاد.،

---

(١) البخاري، بدء الخلق ٧؛ مسلم، الجهاد والسير ١١١.

وسُممت مراراً، وتعرضت لإهانات متنوعة، ومرت عليّ أوقات رجحت الموت على الحياة ألف مرة. ولولا أن ديني يمنعني من قتل نفسي، فربما كان سعيد الآن تراباً تحت التراب".[1]

فهذه الكلمات ما هي إلاّ تعبير عما يكنّه القلب من انكسار. ولعله بكلامه هذا قد أفاد عن جميع العظماء المنكسرة قلوبهم. فهذه الحالة إذن قدرٌ مكتوبٌ على كل من يقوم بمهمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

ولأجل استشعار أهمية هذا الأمر وجلالة قدر المشتركين فيها أردت تحريك مكوك تفكركم لتنسجوا خط المواصلة ولاسيما بين سيدنا آدم وسيدنا الرسول ﷺ. وشدة انفعالي نابعة من قدسية المسألة، فأكاد أستشعر وأسمع في خيالاتي شدو أذكار أولئك الميامين، رجال الحق والحقيقة.

إن كل خطوة يخطوها المرء في سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تُكسبه ثواب وراثة النبوة؛ لأن هذه الوظيفة الجليلة هي أساساً وظيفة الأنبياء عليهم السلام. فأيّما إنسان يخطو فيها خطوة فقد دخل تحت عبء هذه المهمة النبيلة، أووهب له المولى الكريم هذه الوظيفة فضلاً منه وكرماً.أي يغنم ثواب هذه الوظيفة حسب نيته ودرجته.

وتجدر الإشـــارة هنا إلى أمر آخر، هو: أنه لما كانت هذه الوظيفة وظيفة الأنبياء عليهم السلام وهم جميعاً على الاستقامة التي أمر الله بها سبحانه، فالذين ينهضون بهذه الوظيفة "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" هم كذلك على الاستقامة من حيث أداؤهم لهذه الوظيفة في الأقل.

والخلاصة: أن على المؤمن أن يوفي هذه الوظيفة الملقاة على عاتقه –أي التبليغ– حقها ضماناً لقبوله مؤمناً لدى الرب الجليل وبقائه على الإيمان به، وذلك للعلاقة القريبة بينهما. فلا يثبت الأفراد وكذا الجماعات وجودهم ولا يمكن أن يديموه إلاّ بإيفاء هذه الوظيفة حقها.

---

(١) سيرة ذاتية لبديع الزمان سعيد النورسي، ص ٤٥٧.

إن سر وجود المؤمن وشرط بقائه مؤمناً حقاً هو: تمثل الحق والحقيقة في حياته، وعدم السكوت كالشيطان الأخرس أمام الظلم، وعدّ الحياة غير ذات أهمية والاستهانة بالموت، والبقاء دوماً في دائرة مفاهيم الصحابة الكرام، واعتبار هذه الوظيفة السامية غاية الحياة. فما أضيع الأيام التي مرت دون معايشة هذه الأمور. فينبغي على كل مؤمن أن يلوذ إلى كنف الله سبحانه ويستعيذ به من مجتمع لا ينهض بها.

ويجد المرء إمكانية ترجمة أفكاره -التي يؤمن بها ويضحي في سبيلها- إلى الحياة، في أثناء أدائه هذه الوظيفة، فضلاً عن أن ما يحمله من إيمان لا يبقى في فراغ. إذ الإسلام حقيقة هو معايشة وحياة، فلا يُفهم ما لم يكن معيشاً. والإنسان الذي جعل الإيمان والدعوة مركزاً لكل شيء، ينسج جميع فعاليات حياته حول هذا المركز.إذ إن أول أساس من الأسس الخمسة التي يجب على المؤمن أن يحافظ عليها هو الدين.[1] فهو بلا شك يحافظ على عرضه وشرفه وماله، وحياته، ونسله، وعقله، ولكن عليه أن يحافظ على دينه أولاً. وهو علامة على ما يوليه لدينه من أهمية. بل أجلى موقف يعبّر عن مدى ارتباط الفرد بالله سبحانه هو ما يبذله من جهد وغيرة على الحفاظ على دينه. ومما يجب ألاّ يُنسى أن الذي لا يحافظ على دينه لا يحافظ أيضاً على الأسس الأربعة الأخرى. ولعل أصوب درس يعلّمنا التاريخ إياه وأغزره عبرة هو هذا الدرس.

لقد خلقنا الله سبحانه وتعالى لنعرفه ونعرّفه. فالعيش بمقتضى القصد الإلهي هو ســـر خلقتنا الذي يعمّر دنيانا كما يعمّر آخرتنا. وبخلافه نعاقب بصفعة تأديب من أجل هذا المقصد الإلهي الذي هو ضمان حياتنا الدنيوية والأخروية، نعاقب كأمة ونعاقب كمجتمع ونُدفع إلى شِباك الفتن والفساد والعياذ بالله. أي يتعرض المجتمع إلى البلايا والمصائب عندما لا يؤدى هذه الوظيفة الجليلة، وظيفة التبليغ، وقد عبر عنها الرسول الكريم ﷺ ذات يوم

---

(١) الأسس الخمسة هي: الدين، العقل، النسل، المال، النفس.

والصحابة كالهالة حوله يستمعون إليه وكلهم آذان صاغية، وفي هذا اليوم صدر من ذلك اللسان الطاهر النــزيه شيء من عبارات التهديد والهلاك في حديثه الشريف الذي يرويه أبو يعلى وابن أبي الدنيا: عن أبي هريرة قال: قال رســول الله ﷺ: "كيف بكم أيها الناس إذا طغى نساؤكم وفسق فتيانكم؟ قالوا: يا رسول الله إن هذا لكائن؟ قال: نعم وأشد منه، كيف بكم إذا تركتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قالوا: يا رسول الله إن هذا لكائن؟ قال: نعم وأشــد منه، كيف بكم إذا رأيتم المنكر معروفا والمعروف منكرا؟".[١]

اندهش الصحابة الكرام وحاروا أمام هذا الكلام، فما كانت عقولهم تتحمل أمراً كهذا؛ لأنهم كانوا يؤمنون أن مثل هذه الفتن لا تقع في مجتمع طالما فيه مؤمن واحد. ولهذا استفسروا: وقالوا: "يا رســول الله إن هذا لكائن؟".

فهم يقولون هذا استفساراً وحيرة في الوقت نفسه. وعندما قــال الرسول ﷺ: "والذي نفسي بيده وأشد منه"، خيّم جو غريب وزاغت الأبصار، فاستفسروا مرة أخرى في حيرة أشد: "ما أشد منه يا رسول الله؟" قال: "كيف بكم إذا رأيتم المنكر معروفا والمعروف منكرا؟" ولنأخذ هذا الجزء من هذا الحديث الشريف الــذي يشير إلى يومنــا هذا.

نعم، إن الحديث الشريف يشير إلى أن الموازيــن والقيم، بل كل شيء سينقلب رأساً على عقب، فيصبح المنكر معروفاً والمعروف منكراً، وتشيع الفاحشة، وتعم الفوضى والإرهاب، ويُستخف بالإيمان والقرآن، ويُستهان بالمؤمنين، وتحافظ الدولة على عدد من المنكرات بالقوانين، وتعدّ الحقائق التي تخص الدين تخلفاً ورجعية. وهذا هــو قلب للقيم والمقاييس. وإنسان هذا العصر قد عاش هذه الفتن أضعافاً مضاعفة وأظن أنه سيعيشها مدة أخرى.

---

(١) المسند لأبي يعلى ٣٠٤/١١؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٢٨٠/٧-٢٨١.

فالذل والهوان ســـيحلان محل العزة والكرامة ما لم تؤدَّ وظيفة التبليغ.

فإذا ما انتُهكت قوانين الفطرة فلا بد من تحمّل العاقبة الوخيمة والمصير المحتوم. والأمر على هذا المنوال منذ القدم. وذوو العقول السليمة لا يترقبون غير هذا. ولهذا استفسر الصحابة الكرام الذين استصعب وجدانهم ذلك مرة أخرى: "يا رسول الله إن هذا لكائن؟" أي أيؤمر بالمنكر وينكر المعروف؟ "بل أشد منه سيكون. كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟" .بمعنى أنكم حينما تهملون أهليكم وذراريكم، فينجرفوا مع التيـــار، حتى تأمروهم بأفعالكم وأطواركم وأحوالكم بالمنكرات وتدفعوهم إلى نسيان الله ونسيان رسوله الكريم من القلوب. فيا ويلكم إذن من ذلك اليوم!

وهنا بلغت الحيرة والدهشة لدى الصحابة الكرام مبلغها سألوا بنبرات متقطعة: "يا رسول الله إن هذا لكائن؟.." فاجاب: "والذي نفسي بيده سيكون أشد منه". وقال: "فتن كقطع اللّيل المظلم يتبع بعضها بعضًا تأتيكم مشتبهةً كوجوه البقر لا تدرون أَيًّا مِنْ أَيّ".[1]

فالرسول ﷺ يبيّن للأمة بياناً معجزاً العاقبة الوخيمة الناجمة من عدم إدراك أهمية هـــذه الوظيفة الجليلة، وفي الحقيقة نحن جميعاً مكلّفون بهذه الوظيفة. ففي أعماق قلوبنا أنّات وآهات لآثام ثلاثة عصور خلت. والعلاج الوحيد لإزالة هذه الأنات والآلام العمل على إدراك الأمة أهمية الوظيفة التي تعهدها الأنبياء الكرام والقيام بأدائها معاً.

٢- الحاجة إلى التبليغ ومكتسباته

إنساننا اليوم بحاجة إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أكثر من أي وقت مضى، فالنبوة قد ختمت بخاتم الأنبياء ﷺ، فسُدّ ذلك الباب سداً نهائياً. والحال أن عصرنا الحاضر يموج كفراً وعصياناً يفوق مجموع ما في

---

(١) أحمد بن حنبل، المسند ٣٩١/٥.

العصور التي خلت. لذا يتعرض الذين تعهّدوا هذه الوظيفة الجسيمة في يومنا هذا إلى مضايقات ومشقات أشد ممن تعرضوا لها في العصور السابقة. فهذه الظروف العسيرة جداً هي التي تؤهل مرشدي عصرنا ومبلّغي الدعوة فيه أن يسبقوا الذين أتوا من قبلهم، ونأمل أن يتسنموا موضعاً خلف الصحابة الكرام مباشرة. فالنفس مهما كانت أدنى من الكل إلا أن الوظيفة أسمى من الكل. واللطف الإلهي سبحانه يرِدُ بقدر حاجة الناس. وعندما تُقسم الرحمة الإلهية إلى النـــاس كافة توزّع على الأغلب بنسبة متعاكسة مع اقتدار الشخص؛ فمن كان أعجز وأضعف فالله سبحانه أرحم به.

إن الذنوب النـــاجمة من النظر من منافذ أجواء شتى، وما تترك من انطباعات في أذهاننا قـــد اقتحمت حتى أغوار قلوبنا بل جعلتنا مشلولي القوى، فباتت ليالينا خالية من الأشواق ومحاريبنا محرومة من الدموع. ولا أدري مـــاذا ننتظر من مصائب بحالتنا هذه الشبيهة بجثة هامدة خاوية من العشق والمحبة؟ وربما المصيبة التي هي أدهى منها هي الطرد من رحمة الله الذي أصاب الشيطان -والعياذ بالله-.

نعم، نحن أناسي القرن العشرين نُصبح ونُمسي مع الذنوب، فلو رُفع الحجابُ عن أبصارنا وشاهدنا ماهيتنا المعنوية لكنّا أول من يولّي فراراً من حالتنا تلك.

وعلى الرغم من كثرة إجرامنا وانهيارنا وسقوطنا فإن إيداع ربنا الكريم وظيفة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلينا ليس إلا من حاجتنا الشديدة إلى رحمته تعالى. فنحن في منتهى الضعف والعجز والله سبحانه في منتهى العلو والرحمة. ولو عبّرنا عما يختلج في وجداننا بـــ"الحمد لله" ألوف المرات لكانت زهيدة أيضاً تجاه رحمته الواسعة هذه.

لقد غدا القرن العشرون قرن انهيار كل ما يتعلق بالمعنى والروح؛ إذ زاغت النظرات وغُشيت الأبصار وقُصمت الظهور، وغدت مواقع القياد

خلاف طهر المحراب. وعلى الرغم من هذه الظروف غير الملائمة فإن صوت سيد المرسلين ﷺ وأنفاسه الطاهرة تُسمَع ولو بهمسات خافتة. وإن صدى أقواله المباركة التي نطق بها قبل عصور، يتجاوز المكان والزمان ويصل إلينا، وما هذا إلا رحمة ربنا الواسع الرحمة. وإلاّ كيف نفسر هذا الأمر؟ ولهذا فما علينا إلا أداء الشكر على هذا اللطف العميم. وذلك بأن نملأ أعماق أرواحنا بأنفاسه الطاهرة الباعثة على الحياة ونستنشقها. فالذين يؤدون الشكر بهذا الشكل ينجون بإذن الله في العاقبة.

يقول سعدي الشيرازي:

تُـــرى، أيُّ غـــمّ قد يَحيـــقُ بأمةٍ لها أنت في الدنيا ظهيرٌ ومعوانُ

وما الخوف من موج البحار إذا طغى ونوح على ظهر السفينة رُبانُ[١]

نعم نحن نبحر في سفينة النجاة، ربانها سيد المرسلين. وربananا يهتف بنا قائلاً: "لا نجاة إلا لمن ركب السفينة". أفلا نستجيب لهذا النداء معاً؟

لنحاول الآن متابعة الآيات الكريمة التي تذكر بتوظيف المسلم بمهمة التبليغ وثوابه الدنيوي والأخروي لقيـــامه بوظيفته حق القيام. يقول تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(آل عمران:١٠٤).

بمعنى لتتكون منكم جماعة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر دائماً؛ فيدعون الناس إلى الخير ويجنّبوهم الشر، ويبينون لهم الحسنات ويكونون مثال الصدق والاستقامة، حتى إنهم يتجنبون السيئات تجنبهم الثعابين والعقارب. وبتعبير آخر يكون كل واحد منهم كالنجم القطبي في المجتمع لتهتدي بهم سفينة المجتمع التي تمخر عبـــاب بحر الحياة الاجتماعية إلى سواء السبيل، فتُنظم القيادات وتوزع المسؤوليات وفقهم. وبهذا تُقلل الانحرافات

(١) "كلستان" لسعدي الشيرازي (ترجمة: محمد الفراتي، روضة الورد) ص ٩.

والتخلفات إلى أصغر حد ممكن. فهذه الجماعة الرائدة تكون ملتحمة مع هذه الوظيفة إلى حد أن الذين يتفرسون فيهم لا يجدون أنفسهم إلا أنهم أمام مجسَّم الأمر بِالْمَعروفِ والنْهي عَن الْمُنكَرِ وبذلك يكونون موضع ثقة وتصديق. فإن لم تكن ضمن مجتمع جماعة تتصف بهذه الصفات وتستمر عليها، فاقرأ على ذلك المجتمع السلام، فقد انتهى أمره ولن يهتدوا إلى الصواب طالما ليس فيهم مثل هذه الجماعة.

وبعكسه إن كان في موضع ما جماعة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فالله سـبحانه وتعالى ضامن أن يحفظ أهل ذلك الموضع من كل المصائب السماوية والأرضية. نعم، إن الله سـبحانه ضامن؛ إذ ليس غيره يقدر أن يضمن ذلك قط، وذلك بنص القرآن الكريم: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾(هود:١١٧). فأقول استناداً إلى بيان القرآن الكريم وأقوال جميع الأنبياء والأولياء العظام: إن الله جلّ وعلا لا يُنـزل مصيبةً على موضع يؤدّى فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. حتى لو استحق المجتمع ذلك العقاب فالله سبحانه يرفعه عنهم لأجل تلك الجماعة الرائدة، لشدة ارتباط قلوبهم به سبحانه. إذ لا تمضي دقائق عمرهم إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهم في وجل واضطراب مستديمين، حتى استولى عليهم هذا الأمر وأصبح شغلهم الشاغل لا ينفكون عنه؛ في مأكلهم ومشربهم ومنامهم ويقظتهم، يتفكرون: كيف نبلّغ هذا الأمر؟ ومتى؟ ولمن؟ فكأن هذه الحالة سرّ وجودهم. وطالما أمثال هؤلاء من عباد الله الذين نذروا أنفسهم لله يصولون ويجولون في صفوف مجتمع ما، فهم في أمان لا تصيبهم مصائب وبلايا سماوية وأرضية. لذا إن كنا نريد أن نكون في أمان من المصائب السماوية والأرضية فعلينا العودة فوراً إلى تسلم وظيفتنا التي خُلقنا لأجلها.. وعلينا أن نعرف قطعاً أن المصائب النازلة تنـزل بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولئن كنا نريد دفع تلك المصائب والبلايا فلا

يتحقق ذلك إلا بأداء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فلا تحوز عبادة أخرى على هذه الخاصية. وقد يهلك الله شخصاً أو جماعة أو قوماً و يخسف بهم الأرض، وهم يذكرونه ويعبدونه ويتلون الأذكار آناء الليل وأطراف النهار ويطوفون ببيته الحرام إلا أن يكون ذلك الشخص أو الجماعة أو القوم مهمومين بأداء مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقلقين عليها، وعندها يتعهد الله سبحانه تلك البلدة ويحفظ أهلها من الهلاك.

ولأجل هذا نجد في بعض المصادر روايات إسرائيلية مفادها: أن قوم لوط عليه السلام أُهلكوا وكان فيهم ألوف العباد والزهاد القائمين الليل الصائمين النهار، ولكن ما كانوا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر. والله أعلم كم من قائم بالليل وصائم بالنهار كان في أثناء هلاك أصحاب الأيكة قوم شعيب عليه السلام.

وفي مقابل هذا لا نجد قوماً قط أُهلكوا وفيهم مَن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. ولا يذكر التاريخ ولو مثالا واحداً على هذا. وسنفصل هذه المسألة لدى بحثنا عن الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة الواردة في هذا الشأن.

يمكننا أن نقيّم حقيقة التبليغ والدعوة في الأرض والحاجة الماسة إليها من زاوية أخرى بالآتي:

إنه بمقتضى خلافة الإنسان في الأرض، فقد منحه الله سبحانه وتعالى القدرة على التصرف في الأشياء وبوّأه مكانة عالية في خلافة الأرض واهباً له إرادة من إرادته. فلا "أنانية" في أيّ مخلوق إلا في الإنسان. فهو بهذا "الأنا" والخواص الموهوبة له يبلغ إدراك حقيقة هويته وذاته. وذلك بالتعرف على أسماء الله الحسنى وصفاته الجليلة بتجلياتها المتنوعة. لأن "الأنا" المعطى له ما هو إلا وحدة قياسية لِيُشعره بالتملك والحرية، فيستطيع به أن يدرك ربَّه ومالكَه وقدرته على كل شيء، وذلك بوضعه خطوطا افتراضية لمُلكه ومَلَكاته النسبية بالقياس إلى مطلقات صفات الله الجليلة.

وهكذا فإعطاء هذه الميزة والخاصية للإنسان يعني قبوله خلافته منذ البداية. ومعلوم أن الله سبحانه قد خلق آدم ﵇ بعد خطابه الملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(البقرة:٣٠) وأعطاه حق التصرف في الأشياء وعيّنه خليفة في الأرض. والخليفة لا يستطيع أن يتجاوز الحدود المرسومة له من قبل من استخلفه، تلك الحدود التي رسمتها الأوامر الإلهية المبلّغة إلى أنبيائه الكرام. ومتى ما عمل الإنسان بمقتضى تلك البينات والأحكام الإلهية يكون مؤدياً مهمة الخلافة على أفضل وجه.

يروي الحسن البصري ﵁ حديثا مرسلا يوضح هذا المفهوم: "مَن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفةُ الله في الأرضِ وخليفةُ كتابه وخليفة رسوله".[1]

إن واجب كل إنسان هو معرفة الله سبحانه وتعريف الآخرين به تعالى وإظهاره بأطواره وأحواله أنه لله سبحانه. وكذا من الواجب أيضاً معرفة رسوله وكتابه والتعريف بهما. وكذا تحويل أوامر الله وأوامر رسوله إلى حياة معيشة ضمن هذه الوظيفة. علماً أن هذه الوظائف هي غاية وجود الإنسان. بمعنى أن الإنسان بقدر أدائه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يكون منجزاً وظيفته الملقاة عليه. وجميع هذه الأمور وسائل مهمة لبلوغ الإنسان خطوة فخطوة إلى رضى الله سبحانه وتعالى.

تروي درة بنت أبي لهب رضي الله عنها: "قالت: قام رجل إلى النّبيّ ﷺ وهو على المنبر فقال: يا رسول الله أيّ النّاس خير، فقال ﷺ: خير النّاس أقرؤهم وأَتقاهم وآمَرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأَوْصَلُهم للرّحم".[2]

نعم، إن خير الناس من يأمر بالمعروف وينشر الخير والفضيلة حتى يصبح ويمسي به، وينهى عن المنكر باذلاً قصارى جهده لمنع السيئات، متقياً رب

---

(١) الفردوس للديلمي، ٥٨٦/٣.

(٢) أحمد بن حنبل، المسند، ٦/ ٤٣٢؛ شعب الإيمان للبيهقي، ٢٢٠/٦.

العزة، جاعلا حياته المعاشة وفق ما يقتضيه اندماج أوامر القرآن الكريم والشريعة الفطرية، أي ينظر إلى الأشـياء والحوادث من زاويـة الحقائق المنبجسة من القرآن الكريم، شفيقاً على الخلق، واصلاً للرحم. وهذه هي أهم الوظائف.

فإن كنا حقاً نستشعر برباط العلاقة مع إنساننا الحاضر ونعتقد أننا نعطف عليه ونحتضنه بالرحمة والشفقة، فإن أحسن دليل على صدق تصرفنا هذا هو أداء ما يجب علينا من وظائف نحوه، ولا شك أن العمل المقدّم في هذا هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولهذا علينا السعي الجاد لأداء هذه الوظيفة تجاه الإنسانية جميعاً.

ثم إن مَن ينهض بهذه الوظيفة كائناً مَن كان يكون ضمن الثناء الرباني، إذ يقول تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۞ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾(آل عمران:١١٣-١١٤)

بمعنى أن أي إنسان كان إذا ما أدى هذه الوظيفة وكان مؤمناً بالله واليوم الآخر يحظى بالثناء القرآني. نعم، أليست هذه الآية الكريمة وأمثالها تسوقنا إلى الآمال العظيمة؟

إن إنساننا في الوقت الحاضر أحوج ما يكون إلى المحبة والشفقة والكلام الطيب والصوت الأنوس الحنون بدلاً عن القسوة والعنف والضرب والقتل. فالمنتظَر منا اليوم خفض جناح الرحمة والشفقة على الجميع حتى نسمع أنّاتهم في قلوبنا، وتستشعر قلقهم واضطرابهم في نفوسنا، فتشاركهم في الأفراح والأتراح. ومتى ما تحقق هذا فقد تحقق إذن عمل مهم تنتظره الإنسانية.

يشاهد في الوقت الحاضر عدد هائل من النـاس -يدفعنا إلى الإعجاب- اهتدوا واختاروا الإسلام ديناً لهم سـواء في الشرق أو في الغرب. ويشاهد

أيضا في داخل البلاد وخارجها عودة إلى الديـــن تحير العقول. فالمساجد والمصليات التي نسيت أو تنوسيت في الأمس أصبحت الآن جزءاً لا يتجزأ من الحياة. وحيث إن هذا الأمر عام وشامل فقد انتشر على الأرض جميعا بسرعة. ولئن كان كل هذا يعدّ في وقتنا الحاضر أمراً ذا بال -وهو كذلك- فإنه يدل على أن القلوب إنما تُفتح وتُغلق بالشفقة. وأن كل ما يثير الحقد والبغض لم يأت بخير سابقاً كما لن يأتي به حاضراً ومستقبلاً.

ولقد سمعت وشاهدت الكثيرين من الذين اهتدوا حديثاً أنهم لو كانوا قد قتلوا بالأمس ما كانوا لينعموا بهذه الأذواق الروحية اللطيفة التي تفيض اليوم من الإيمان، حتى كانوا يرددون مرات ومرات: "الحمد لله، لم نُقتل كفرد من أفراد الجبهة المقابلة في أيام الفوضى والإرهاب التي عمّت البلاد، وإلاّ لكنا خسرنا الدنيا والآخرة".

وإنه لذو مغزى عميق ما يقوله صحابي كريم اهتدى حديثا إلى الإسلام، مخاطباً صحابياً آخر عاتبه ولامه على قتله في الجاهلية أحد أصحاب النبي ﷺ: أنت تلومني لعملي ذاك، ولكن الله جل جلاله قـــد أدخله الجنة بيدي لفوزه بالشهادة، فماذا لو كنت أنا المقتول وأنـــا على الكفر حينذاك؟ بمعنى أنني كنت سأخلد في النار!

وأنتم كذلك إذا ما أصغيتم إلى من نجا من الإرهاب والفوضى واهتدى فلازم مصلاه، تسمعون الصوت نفسه. وفي الحقيقة أنني أترقب بلهفة ماذا يقول الذيـــن لجأوا إلى القوة في حل الأمور إذا ما رأوا أولئك المجرمين السابقين قد أصبحوا اليوم خاشعين لله في صلاتهم يبكون؟

أورد مثالاً حياً لتوضيح هذا الأمر من خير القرون:

عمرو بن العاص عاش عمراً مباركاً طويلاً، كان هذا القائد الجسور والسياسي المحنك قلقاً قلقاً شـــديداً "وهو في ســـياقة الموت. فبكى طويلا وحوّل وجهه إلى الجدار. فجعل ابنه يقول: يا أبتاه أما بشرك رسول الله ﷺ

بكذا ؟ أَمَا بشرك رسولُ الله ﷺ بكذا ؟ قال فأقبل بوجهه فقال: إن أفضل ما نُعِدُّ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رســـول الله. إني قد كنت على أطباقٍ ثلاث. لقد رأيتُني وما أحد أشد بغضا لرسول الله ﷺ مني. ولا أَحَبَّ إليّ أن أكون قد استمكنتُ منه فقتلتُه. فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار. فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسُطْ يمينك فلَأُبايعْك. فبسط يمينه. قال فقبضت يدي. قال: "ما لك يا عمرو؟" قال قلت: أردت أن أشـــترط. قال" تشترط بماذا؟" قلت: أن يُغفَر لي. قال" أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله؟" وما كان أحد أحب إليّ من رســـول الله ﷺ ولا أجلّ في عيني منه. وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالا لـــه. ولو سُئِلتُ أن أصفه ما أطقت؛ لأني لم أكن أملأ عيني منه. ولو مت على تلك الحَال لرجوت أن أكون من أهل الجنة. ثم وَلِينا أشياءَ ما أدري ما حالي فيها. فإذا أنا مت، فلا تصحبني نائحة ولا نار. فإذا دفنتموني فشنوا علي التراب شنا. ثم أقيموا حول قبري قـــدر ما تنحر جزور. ويقسم لحمها. حتى أستأنس بكم. وأنظرَ ماذا أراجع به رسل ربي."[١]

وقد شهدنا كثيراً، الحامدين الشاكرين الله لعدم موهم وهم يجتازون دهاليز تلك الفترة المعتمة، وتوجههم إليه سبحانه بالإيمان كتضرع عمرو بن العاص ﷺ وحمده لله لخلاصه من الموت في تلك الفترة. فلئن استطعنا أن نهيئ لهم في الدورة الثانية والثالثة حياة مليئة بأشواق الإيمان نكون قد ضمنّا لهم قضاء لحظاهم الأخيرة من حياهم أيضاً تدفق بنشوة الحمد والشكر.

إنه لا حدود للوظيفة. ولا سيما من نـــذر نفسه ليكون فدائي المحبة.. فدائيو المحبة هم الذين نذروا أنفسهم لتحبيب الله إلى الإنسانية جميعاً. لا همّ لهم إلاّ إيجاد سبل تحبيب الله للناس وتمهيد طرق الوصول إلى الحياة الخالدة.

---

(١) مسلم، الإيمان ١٩٢.

وقد كسبت هذه الوظيفة الملقاة على عاتق هؤلاء الأبطال في الوقت الحاضر أبعاداً جادة أخرى؛ لأن غالبية الناس يعيشون حياة مقطوعة الصلة بالله سبحانه على الرغم مما يشاهَد من عودة إلى الإسلام في مناطق مختلفة ومبشرة بالأمل. فإنقاذ هؤلاء من مثل هذه الدوامة أمرعسير جداً وجليل في الوقت نفسه. فكم هو عسير ومؤلم مخاطبة إنسان مصروع لحد الجنون مغمور في مستنقع آسن مميت: كن كما أنت عليه.. كذلك من العسير جداً إيقاظ هذا الجيل الذي يتخبط في هذا المستنقع وجلب انتباهه إلى أن يحافظ على صفاء قلبه وتوثيق صلته بالله. بل هو أعسر منه. ولكننا مضطرون إلى اجتياز هذه المشاق وتخطي هذه الصعوبات. فالمحبة والتسامح من الوسائل المهمة لتجاوز هذه الصعاب. لأن أغلب الناس يواجه إما بالفوز بالحياة الأبدية أو خسرانها. ونحن نريد أن يفوزوا بحياتهم الأبدية. والحال أنهم لم يدركوا بعدُ عِظَم ما هم فيه من المهالك، ولهذا يستغربون مما نبذله من جهد وهمّة على إنقاذهم، بل أحيانا يسخطون علينا ويصدوننا. فالقيام بعمل مماثل يدفعهم إلى حرمانهم من الحياة الأبدية. لذا فإن تصرفاتنا ينبغي أن تخالف تصرفاتهم وأعمالهم؛ إذ لو علموا حراجة وضعهم لأدركوا سبب اهتمامنا وبذلنا الجهود، ولَسَعَوا إلينا سعياً حثيثاً، ولغمروا قلوبنا بالبهجة والسرور. لذا ينبغي الاستمرار في الإيقاظ والتنبيه على الرغم من استغرابهم وصدّهم لنا. وهكذا فعل الأنبياء وكذا الأولياء والأصفياء وهم شموس الإنسانية وأقمارها. فمثلاً:

سيدنا نوح عليه السلام، كيف اهتاج وتفجّع من عصيان ابنه في عدم ركوب السفينة معه رغم إلحاحه عليه، ثم كيف توسل إلى الله سبحانه وتعالى ولاذ به لإنقاذه من الغرق حتى حال بينهما الموج؟[1] ففي وقتنا الحاضر مئات من الأحداث أمثال هذه تدفعنا إلى التفجع نفسه.

وسيدنا إبراهيم عليه السلام كان يهمه كثيراً ويقض مضجعه عبادة أبيه

---

(١) انظر إلى: سورة هود، الآيات ٤٢-٤٣.

للأصنام، فتوسل بكل الوسائل الممكنة لإفهامه الحقائق.[١] فسلوك الأنبياء هذا يعلّم الشيء الكثير لفدائيي المحبة في عصرنا الحاضر.

وسيدنا الرسول ﷺ الذي خاطب عمّه الذي حماه طوال أربعين سنة: "أَيْ عَمِّ قل لا إله إلاّ الله كلمة أُحَاجُّ لك بها عند الله".[٢]

هذا الموقف الجليل للنبي المحزون الذي كاد يهلك نفسه لهداية الناس، يجب أن يكون ماثلا أمام أعيننا دون مغادرة. وأنه ﷺ لم يقابل قومَه الذين حاصروه وآذوه بشتى صنوف الأذى إلا بالمحبة والتسامح والرحمة،[٣] قابلهم بالمحبة وأصبح هو الظافر؛ لأنه بهذه المعاناة والمكابدة قدمدّ جسراً يؤدي إلى اغتنام مليارات الناس حياتهم الأبدية.

نعم، إن هذه الوظيفة السامية وظيفة منوطة تماماً بفدائيي المحبة والشفقة... وظيفة الذين يرغبون عن أذواق عيشهم ليتنعم الآخرون. إنها وظيفة من لا يتنعم حتى في الجنة إن لم يرشد أفراد مجتمعه إلى طريق الجنة.. مثلما قاله مثال الشفقة: "لقد ضحيتُ حتى بآخرتي في سبيل تحقيق سلامة إيمان المجتمع، فليس في قلبي رغَبٌ في الجنة ولا رهَبٌ من جهنم، فليكن سعيد بل ألف سعيد قرباناً ليس في سبيل إيمان المجتمع التركي البالغ عشرين مليونا فقط بل في سبيل إيمان المجتمع الإسلامي البالغ مئات الملايين. ولئن ظل قرآننا دون جماعة تحمل رايته على سطح الأرض فلا أرغب حتى في الجنة، إذ ستكون هي أيضاً سجناً لي، وإن رأيت إيمان أمتنا في خير وسلام فإنني أرضى أن اُحرق في لهيب جهنم؛ إذ بينما يحترق جسدي يرفل قلبي في سعادة وسرور."[٤] وهكذا دأب الفدائيين، أما الصديقون فدأبهم: ليكبر جسدي بكبر جهنم لئلا يدخلهاعبد من عباد الله.

---

(١) انظر إلى: سورة الأنعام: الآية ٧٤.

(٢) البخاري، مناقب الأنصار ٤٠؛ الترمذي، تفسير القرآن ٢٨-٢٩؛ النسائي، الجنائز ١٠٢.

(٣) مجمع الزوائد للهيثمي، ٣٥/٦؛ شرح الشفا (للقاضي عياض) لعليّ القاري، ٢٧٩/١.

(٤) سيرة ذاتية لبديع الزمان النورسي، ص ٤٥٧.

إن تحويل هذه الأقوال إلى أفعال عسير جداً، ولكنها جديرة لإفهام مدى الشفقة الواسعة سعة البحار الزاخرة، لحالة جيشان الروح ولو آناً من الزمان.

وما أعظم شفقة الرسول الكريم ﷺ الذي سينادي في هول يوم المحشر "أمّتي.. أمّتي" متضرعاً خاشعاً ســـاجداً لله حالَما يدرك أن من أمته من سيدخل جهنم.. فلا يرفع رأسه من السجود إلا عندما يخاطَب: «يَا محمّد ارفع رأسك سَل تُعطَهْ واشفعْ تُشَفَّعْ».[1] فهذا تعبير عن شفقة ورحمة لا نظير لهما للرسول العظيم ﷺ تجاه أمته. وفي الوقت نفسه فهو مثال لأعظم فدائيي المحبة. فلا يكون فدائي المحبة إلاّ من ينسى حظوظه البشرية وسعادة عائلته ومشاغله الدنيوية في ســـبيل هموم الناس وآلامهم ومن يتعالى على مطالبه. بل لا يمكنه أداء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الوجه الأكمل إن لم يكن فدائي المحبة بحق.

٣- التبليغ أثمن هدية

إذا أردنا أن نعقد نشبه وظيفة التبليغ بتبادل الهدايا بين الناس يمكننا أن نسرد الآتي:

إنكم تتهادون فيما بينكم في المناسبات والأعراس، ولاشك أنكم قبل تقديم الهدية تفكرون ملياً في اختياركم لها ومدى ملاءمتها للشخص المُهدى إليه. وهذا أمر معتـــاد ومفيد في الوقت نفسه؛ لأنكم بها تقضون حاجة وتضمنون محبة. وكذلك الأمر لدى زياراتكم لمن يشاركونكم في الحياة الاجتماعية ورفقائكم في الدرب نفسه، فعليكم أن تكونوا دقيقين في اختيار ما ستقدمونه إليهم بمثل اهتمامكم ودقتكم في تقديم الهدايا.

وعلينـــا ألاّ ننسى أن أحوج ما يحتاجه إنسان اليـــوم: قليل من الكلام

---

(١) البخاري، التوحيد ٣٦، تفسير القرآن ٥؛ مسلم، الإيمان ٣٢٦-٣٢٧؛ الترمذي، القيامة ١٠.

الطيب والنصح لــــه. وكذا فإن أثمن هديـــة في الوقت الحاضر هي: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وإن أول ما علينا لأجل تحقيق هذه الوظيفة على الوجه الأكمل معرفة الشـــخص المخاطَب أو الأشخاص المخاطبين وتشخيص ما يحتاجونه تشخيصاً جيداً؛ إذ بخلافه سيكون الأمر كأنك تريد إلباس ثوب لشخص يضجر منه ولا يُعجبه ولا يليق به وإن كان من أفخر الأقمشة وأجودها. فعلى الرغم من أن هذا الأمر معروف إلاّ أنه يفعل فعل المنكر. فلا يعني شيئا لمن ابتلي بأفكار شتى ومذاهب ضالة أن تعرج به في أرجاء السماوات العلى قبل أن تُصفّي مفاهيمه. إذ كيف تتلألأ نجوم السماء في مرآة وجدان من انكسف قلبُه وأظلمت روحُه؟ ومن هنا فإن تشخيص حاجة أي إنسان كان من أهم الأمور؛ كي يؤثر الكلام فيه وتجدي المحاورة معه، وربما تهزّه هزاً ولعلها تكون سبباً لاسترشاده. ولربما حسراتكم المليئة بالأنّات المؤلمة هذه تكون سبباً في ملء خوائه المعنوي ودفع حاجته المعنوية. ولا هدية أغلى ولا أثمن من تلك الأنّات والاستغاثات المليئة بالأحزان مع القول اللين الذي يعيد إليه الصواب. بل ربما تكون تلك الاستغاثة سبباً في إيقاف جميع تصرفاته الخاطئة في المستقبل وتسوقه مع القول اللين إلى سبيل الاستقامة والصواب. فالهدية التي تكون سببا لتوجّه المرء من السيئات إلى الحسنات هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالذات. وأحسب أنها أجلّ الهدايا.

لقد دامت أيام محاصرة خيبر طويلا دون أن تسفر عن شيء؛ حيث كان يهود خيبر يقاومون الحصار بكل طاقتهم. وذات يوم قال رسول الله ﷺ: "لأعطين الراية -أو قال: ليأخذن- الراية غداً رجل يحبه اللهُ ورسوله، -أو قال: يحب اللهَ ورسولَه- يفتح الله عليه".[1] فهذه أعظم بشارة للصحابة الكرام، إذ كان كل منهم يتمنى هذه المنـــزلة. علماً أن كلاً منهم كان

---

(١) البخاري، الجهاد ١٢١، ١٤٣، فضائل أصحاب النبي ٩؛ مسلم، فضائل الصحابة ٣٢، ٣٥؛ الترمذي، المناقب ٢٠.

يفضّل أخاه المؤمن على نفسه في الشؤون كلها، حتى إن بعضهم عندما قُدّم إليه قدح من ماء يشربه نظر إلى مَن حوله فقال للذي جاء به: ويحك كيف أشرب أنا وهؤلاء يلتفون حولي؟ أعطه مَن شئتَ منهم. فإن كان يصح في وقت إيثارٌ ففي مثل هذا الوقت، ومات عطشا.(١) وهكذا كان يؤثر أخاه المؤمنَ على نفسه حتى يقدر أن يملّكه ما يمتلك حباً وكرامة. إلا أن الكلام الذي نطق به الرسول الكريم في هذا اليوم هو بشارة ضمان محبة الله ورسوله، لا يفوّته أحد ولا يُؤْثِر فيه على نفسه أحد أحداً.

والخلاصة أن كل واحد كان يريد أن يحظى بهذه المرتبة. حتى إن سيدنا عمر ذا الفطرة النادرة قال: "ما أحببت الإمارة إلا يومئذ قال فتساورت لها رجاء أن أدعى لها".(٢) ذلك لأن فيها ضمان محبة الله ورسوله ﷺ. لذا لم يغمض للصحب الكرام جفن حتى الصباح انتظاراً لهذه البشارة العظمى، فالجميع يترقبون لمن تُعطى الراية؟ وفي الصباح الباكر انتظروا بلهفة البشارة فأخذوا موضعهم في الصف الأول من صلاة الفجر حيث ستُسلّم الراية عقبها. وفعلا بعد أن أنهى الرسول الكريم ﷺ الصلاة تركزت العيون إليه في انتظار: ماذا سيخرج من بين الشفتين المباركتين؟. نعم، وقد نطق ذلك الفم الذي يفوح بطيب الجنة باسم مَن هو أسعد إنسان في الدنيا وأكثرهم حظاً. فقد آن أوان النطق بهذه البشارة العظمى حيث قد بلغ الاهتياج ذروته. فقال ﷺ بصوته الرقيق الشفيق: "أين علي؟" وعندها عُرف الأمر أن الإنسان المحظوظ هو سيدنا علي رضي الله عنه. ولكن مازال هناك أمل يستشرف له الصحابة الكرام وهو غياب سيدنا علي بسبب عينه الرمداء، فأجابوا الرسول ﷺ مساقين بهذا الأمل: إنه هاهنا مريض يرقد. فدعاه الرسول ومسح عينه بإصبعه المباركة بعد أن وضعها في فمه المبارك فطابت تلك العين حتى لم يذق سيدنا علي طوال حياته ألماً في عينه.

---

(١) انظر: شعب الإيمان للبيهقي، ٦١/٣.

(٢) أحمد بن حنبل، المسند ٣٨٤/٢؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ١١٠/٢.

وهكذا وجدت الراية صاحبها المحظوظ، فتسلمها سيدنا علي وتوجّه نحو خيبر. ولكن توقف فجأة مستفسراً من الرسول ﷺ على أي شيء نحاربهم؟ وعلى ماذا ندعوهم؟ فأجابه سيد الكونين ﷺ: "انفذ على رسلك حتى تنـــزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه فوالله لأن يهدىَ الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم".[1]

ومنذ ذلك الوقت لم يدخل جيش الإسلام إلى موضع وفي أي وقت كان إلا وكأن كل جندي في أذنه صدى أمر الرسول ﷺ هذا فيتلقاه واجباً عليه تنفيذه.

ففي العهود السابقة نُفّذ نظام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفق هذا الحديث الشريف وأمثاله من الأحاديث الشريفة من جهة، وما عمله الرسول ﷺ في حياته من جهة أخرى. بمعنى أن طلائع الإرشاد يدخلون البلاد التي ستفتح وينشرون الحق ويهيؤن الجو لصالح المسلمين، فإذا استجاب أهل تلك البلاد إلى الأمر فسيدخلون الإسلام وتعدّ بلادهم ديار الإسلام. ولكن إذا قاوموا وجابهوا المرشدين بمعارضة وأعاقوا نشر الإسلام، يُحسم الأمر بالفتح وفق ما ذكرنا سابقا من القواعد. أي يبلّغون الإسلام أولاً؛ لأنهم يعلمون يقيناً أن إرشاد رجل واحد خير من إنفاق ملءِ الأرض من حُمر النَّعم في سبيل الله.

ومن هنا نرى أن أجمل هدية يقدمها المسلم باسم الإنسانية، هو تحقيقه لوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. نعم، إن أداء هذه الوظيفة بإحسان ولطف لهو أعظم هدية وأثمنها.

---

(١) البخاري، فضائل أصحاب النبي ٩؛ مسلم، فضائل الصحابة ٣٤.

٤- التبليغ يتطلب الاستمرار

إن وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يتطلب الدوام والثبات. وقد وضحت الآية الكريمة الآتية هذا الأمر بقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّـــاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾(آل عمران: ١١٠) فإذا ما أنعمنا النظر إلى عبارات الآية الكريمة تتوضح أمامنا قرآنية ما ذكرناه من أمور.

إن كلمة ﴿كُنْتُمْ﴾ تعني "أصبحتم" ولا تعني "أنكم ســـابقاً كنتم".. فاختيار هذه الكلمة ذو مغزى دقيق. بمعنى أن هناك "كينونة"؛ أي الوجود من بعدُ. بمعنى: أصبحتم هكذا. و لم تكونوا هكذا منــــذ الأزل. ومن المعلوم أن الكيفية الحاصلة في الأزل لا تـــزول. وإنما الذي يـــزول هو ما يحدث ويحصل من أوضاع. بمعنى أن دوام ذلك الوضع و ثباته مشروط بموجودية الظروف التي تُكسِب تلك الحالة.

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ أي أصبحتم خير أمـــة بين الأمم. فهذا الحدوث، كسبُ حادث عَرَضي، أي أن زواله ممكن أيضاً. لأن الخير ليس نابعاً من ذاتيتنا قطعاً. إذ لا فرق بيننا وبين المولود في موسكو أو في غيرها من الأماكن، فكلنا مخلوقون من قطرة ماء. وليس هناك إلاّ عامل معنوي وتأثير عَرَضي يوجّه كياننا المعنوي وماهيتنا نحو الخير، بحيث يجعلنا نتميز عن الناس الآخرين. والمقصود هنا من "نحن" هو "الأمة" بكاملها. فهذه الأمة ليست خير أمة من الأزل. بل وُضِعَتْ فيها هذه "الخيرية". وليست مما لا تفارقها ولا تنفك عنها. فهناك حالات تحققت من قبلها فأصبحت خير أمة. أي كونها خير أمة لا تعني أنها ستبقى أبداً هكذا. فإن لم تراع هذه الأمة تلك الحالات التي جعلتها خير أمة، ستضيع تلك الخيرية.

فالشرط الأول لتلك الخيرية هي: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَن

الْمُنكَرِ﴾ بمعنى أنكم إذا قمتم بالأمـــر بالمعروف والنهى عن المنكر فإنكم تصبحون خير أمة. ولكن لنرى المفهوم المخالف للآية الكريمة، وهو: أنكم إن لم تقوموا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تصبحوا شر أمة. ومما يؤيد هذا المعنى أحاديث شريفة كثيرة وروايات متعلقة بالصحابة الكرام. فمثلاً:

إن هذه الأمة التي كانت تتفضل على الآخريـــن بتقبيل ركاب أفراسها، ظلت عزيزة الجانب طالما أمرت بالمعروف ونهت عن المنكر. ولكن بعد ما تخلت عن هذه الوظيفة المقدسة أصبحت ذليلة مهينة تتوسل بتقبيل ركاب الآخرين. ولعل السبب الأســـاس في الذل والهوان الـــذي يتجرعه العالم الإسلامي حتى لا يؤبَه له في مختلف المستويات الاجتماعية هو تقصيره في هذه المهمة الحياتية.

نعم، إذا لم توف هذه المهمة الجليلة حقها تنقطع برَكة الوحي. وتصبح الأفكار سائبة عقيمة، والمحاكمات العقلية ضعيفة واهية لا تأثير لها. وكل كلمة تفوه بها تصبح جافة غير مجدية، لا تترك أثراً إلاّ الإبهام الذي فيها، حتى لا تبقى فيها رشحة من حقيقة. وكل هذا علامة انقطاع برَكة الوحي. ومتى ما ينقطع مصدر الإلهام في التفكير والتفكر يبدأ التراجع والتقهقر حتى في ميدان الثقافة والتكنولوجيا.

وقد غدا قدراً مقدوراً لا يتبدل للمسلمين المحرومين من بركة الوحي، احتياجهم إلى غيرهم في كل الميادين والساحات حتى غدوا شحاذين سَأَلَة في أبواب الآخرين، يرقبون ما في أيديهم. والحقيقة أن بداية التقهقر والانحطاط تتزامن مع انهيارنا الداخلي.

وسنسعى في الفصول القادمة لتوضيح هذه المسألة بأمثلة متنوعة كثيرة. والآن نعود إلى الموضوع لتناول القيود الموجودة في الآية واحداً واحداً:

لقد ذكرنا أن مهمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تقتضي الدوام والثبات كما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ

تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ والحديث الشريف يؤيد هذا المعنى: "من رأى منكم منكرا فليغيّره بيده فإن لم يســـتطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان".(١)

والمنكر: هو كل ما يستقبحه الإســـلام، لذا فالمسلم عندما يجابه ما يستقبحه الإسلام فأول ما عليه أن يؤديه هو تغيير ذلك المنكر. أما كيفية التغيير فيختلف حسب وضع المنكر. والمهم في الأمر هو بذل الجهد في التغيير. ذلك لأنه يحتاج إلى الثبات والدوام. والذي يجب على المؤمن في تغييره ذلك المنكر أن يغيّره أولاً بيده، فإن لم يستطع باليد فبلسانه سواءً بالكلام أو بالكتابة. وإن لم يستطع فبقلبه، أي ببغضه ذلك المنكر. وذلك أضعف الإيمان. وليس بعد ذلك من خردل من الإيمان. لأنه يعني الرضا بالمنكر المشاهد.

أما إنكار القلب وبغضه فيمكن أن نفهمه كالآتى: إن الإنسان إذا اغتاظ وغضب على أحد يحاول جاهداً ألاّ يجالسه في مجلس واحد، وألاّ يتبادل معه الفكر والرأي؛ لأن المحبة والعداء لا تجتمعان في قلب واحد وفي آن واحد، ولأن الإنسان لا يميل قلباً إلى مَن يبغضه. فالمؤمن الذي يغضب على منكر ما ويبغضه يحتفظ بشدّه الروحي ويصون قوته المعنوية، ولكن الاكتفاء بهذا القدر من الانفعال ليس هو المطلوب من المؤمن، بل البغض القلبي هذا لا بد وأن يعقبه عمل باللسان أو باليد. علماً أن هذا النفور القلبي الجزئي من المنكر علامة على وجود الإيمان؛ إذ لا يستصوب مؤمن قط ما لا يستصوبه الإسلام من منكر. وحتى إن كان المؤمن يعايش من يرتكبون المنكر في نطاق المواطنة فعليه ألايتغاضى عن هذا والقصور. وبخلافه يُعدّ منهم. ولهذا فالمؤمن يكون دوماً في شدّ روحي وفي قوة معنوية عالية. وهذا الأمر هو ما تُعلمنا الآيةُ الكريمة والحديث الشريف الذي أوردناهما.

---

(١) مسلم، الإيمان ٧٨؛ الترمذى، الفتن ١١.

نعم، قد يؤدى الإنسان هذه المهمة أحياناً باليد واللسان مع زوجته وأولاده، وعندها تتكلم اليد وينطق اللسان. ولكن قد يقتضي الأمر أن تُؤدَّى هذه المهمة باللسان في الأماكن التي تعجز اليد عن الكلام. وعلى الأغلب تنفّذ هذه الطريقة مع الأقربين. ولئن عجز المرء عن هذا أيضاً فعليه أن يراجع علاقاته القلبية معهم. ويمكن أن يطلق على هذا معنى من معاني المقاطعة. لأن الذي يفعل المنكر قد قطع علاقته مع ربه، والمؤمن يأخذ سلوك المقاطع مع مَن قطع علاقته مع ربه ويبتعد كلياً عن كل ما يومئ إلى تقديره واحترامه. حيث إنه مضطر لتنسيق علاقته مع أمثال هؤلاء على وفق ارتباطهم مع ربهم. أي يجب إعادة النظر في العلاقة والارتباط مع مَن قطع علاقته مع الله ورسوله.

وهكذا كان الصحابة الكرام. وكلام سيدنا عمر ﵁ نموذج لما ذكرناه فعندما كانت الاستشارة مستمرة في شأن أسرى بدر قال له رسول الله ﷺ: "ما ترى يا ابن الخطّاب؟ فقال: لا والله يا رسول الله ما أرى الّذي رأى أبو بكر ولكنّي أرى أن تُمَكّنّا فنضربَ أعناقهم فتُمكّن عليًّا من عَقيل فيضربَ عنقَهُ وَتُمَكِّنِّي من فلان نسيبا لعُمَرَ فأَضربَ عنقه فإنّ هؤلاء أئمّة الْكفر وصناديدها".[1] علماً أن هذا الرأي لم يُقبل في الاستشارة إلاّ أنه أسلوب يستحق أن نقف عنده من حيث التعبير عن سلوك المؤمن تجاه المنكر، رغم أنه لم ينفّذ.

والمؤمن يتخذ مدى ارتباط من يقابله بربه مقياساً لارتباطه وعلاقته معه، فلا يكون صديقاً حميماً بالمعنى الحقيقي، ولا يوثق علاقته مع المبتوتى الصلة بربهم. وعلامة ذلك في أدنى حدودها بغض المنكر قلباً، ودوام هذا الانفعال القلبي. ولهذا نحن مضطرون إلى أن نتحرك كالصحابة الكرام. فإن كانت محبة الله ومحبة رسوله في كفة وفي الكفة الأخرى محبة القريبين لنا ولكنهم

---

(١) مسلم، الجهاد ٥٨؛ أحمد بن حنبل، المسند ١/٣٠-٣٢.

بعيدون عن الله، فمحبة الله ورسوله لا بد أن تُستشعر بكل ثقلها في قلوبنا.

والأمر ليس مسألة محبة فحسب. بل ينبغي أن يكون الحق والحقيقة فوق كل شيء في مسلك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وتُستعمل اليد أو اللسان حسب الاستطاعة، فإن لم يستطع الإنسان كل هذا، يقطع علاقته القلبية ويعيد النظر في علاقات الودّ مع المقابل. وليُعلم أن العلاقة مع أي شخص إن كانت تضادّ العلاقة مع الله ورسوله وتخالفها فسيقلب الأمر عليه دائماً ويهلكه ويفنيه.

والجهة الأخرى من الأمر هي شمول هذه المهمة، بمعنى أن دوام مهمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من مسؤوليات الدولة الدائمة أيضاً؛ لأن الدولة من المؤسسات التي هي في موقع تغيير المنكر باليد، حيث إنها قادرة على تغيير المنكرات باليد كالفحش والخمر والقمار والاحتكار وما شابهها. فهناك مواقع لا ولن تصل إليها يد الفرد، وتصل إليها يد الدولة؛ فالفرد لا يمكنه أن يعاقب الزاني وشارب الخمر وممارس القمار، ولا يستطيع أن يصرفهم بيده عن هذا المنكر.

ولقد ذكرنا آنفاً ميدان مداخلة الفرد. أما هنا فنذكر إنسان العالم الخارجي. فهذه المهمة في هذا الموقع تتعهدها الدولة، لأنها لا تدخل ضمن نطاق تغيير الفرد للمنكر. فهي من مهمات الدولة، وعليها أن تؤديها ما بقيت. فإذا هي أرخت عنان الأمر فالشعب ينبهها ويذكّرها بمهمتها في الانتخابات مثلاً. وهذا أيضاً -من جهة- يولّد جزءاً من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولنضرب مثلاً من خير القرون:

سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أحد العشرة المبشرين بالجنة،[1] والقائد العام للجيش الفاتح لإيران في عهد عمر بن خطاب رضي الله عنه أصبح والياً على البلاد التي فتحها. شكى الناس سعداً إلى سيدنا عمر بأنه نصب على بابه حرساً،

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير، ٣٦٦/٢؛ الإستيعاب لابن عبد البر، ٥١٣/٢؛ الإصابة لابن حجر، ٧٣/٣.

والحال يجب ألاّ يكون شيء حائلاً بين الوالي والناس. وعندما سأل سيدنا عمر: هل لديكم شكاوى أخرى؟ قالوا: إنه لا يُحسن أداء الصلاة!![1] وهذا رأيهم، إذ لا يمكن أن نقبل أو نوافق بأن صحابياً جليلاً كسعد لا يُحسن أداء الصلاة بأركانها. ولكن الذي نريد أن نقف عنده هو إظهار أنه كيف استطاع الناس أن يقوّموا الدولة ويراقبوها. فالشعب يقوّم الدولة دائماً، والدولة بدورها تراقب الشعب وتنضبط به، وبهذا تتوازن الأمور ويصان العدل. حيث إن الدولة تنجو أيضاً من الولوج في المنكرات مثلما ينجو منها الشعب.

فإذا ما قيّمنا العالم الإسلامي الحاضر ضمن هذه الأطر، لا يمكننا أن نقول أن الدولة وكذا الناس يؤدون المهمة التي عليهم. فالناس في الوقت الحاضر يرتكبون الرذائل بكل أنواعها، والدول تبقى في وضع اللامبالاة والمتفرجة عليها. حتى أنها تضع قوانين بأسماء وعناوين متنوعة للحفاظ عليها. وأوضح مثال على ذلك ما تُرتكب من منكرات في دول مختلفة حالياً، علماً أن وظيفتها الأساس منع المنكرات والحد من سوء الأخلاق. ولأجل تحقيقها لهذه المهمة، أي منع المنكرات، تستعمل القوانين الرادعة. فالفرد لا يمكن أن يعاقب السارق ولا أن يقيم الحد على الزاني. بل لا يمكن أن يقيم أيّاً من الحدود الجزائية باسمه. فلو أقام كل شخص الحد على غيره فهذا هو الفوضى واضطراب النظام بعينه.

و يمكن أن نستنتج من هذا أن للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حدوداً تخص الدولة لا يمكن أن يتجاوزها الفرد، وحدوداً تخص الأفراد وهي التي يمكنهم أن يؤدوها بالقلب واللسان.

فمثلاً: إفهام الناس العاقبة الوخيمة للزنا والقمار والسرقة والربا والاحتكار والسعي لمنع انتشار مثل هذه المنكرات في المجتمع وظيفة كل فرد ومسؤولية

---

(١) البخاري، الأذان ٩٥؛ مسلم، الصلاة ١٥٨؛ أحمد بن حنبل، المسند ١/١٧٦، ١٧٩، ١٨٠.

اجتماعية. بمعنى أن التغيير باليد تخص رجال الدولة بينما التغيير باللسان هو وظيفة كل مؤمن. وهذه الوظيفة تتعلق بالعلماء أكثر من غيرهم.

أما الذين يكتفون بالوضع الثالث أي البغض القلبي فهم العاجزون عن أداء المهمة على وجهها. فلئن كانت الأمة برمتها تكتفي بالبغض القلبي لِما يُرتكب من المنكرات في العالم فهي إذاً أمة عاجزة بائسة مسكينة.

ويمكن أن نقسّم هذه المهمة على الفرد نفسه كما قسمناها سابقاً على الأمة.

فهناك مواضع يؤدي الفرد مهمته باليد. مثلاً: محل للقمار غير مجاز من قبل الدولة. فالذهاب إلى صاحب المحل وإبلاغه بأني سأخبر الدولة عنكم، يعني إزالة المنكر -من جهة- باليد. ولكن إن كان المحل مجازاً من قبل الدولة والفرد لا يستطيع إنكار هذا المنكر، فعليه أن يفهّم صاحب المحل بلسان لين أن هذا العمل منكر. وإن لم يستطع هذا أيضاً فعليه أن يعيد النظر في علاقاته مع هذا الشخص أي صاحب المحل ويقطع علاقته القلبية معه وينبّه الآخرين على القيام بمثل هذا الإجراء. وليس بعد ذلك أمر رابع.

توضح مما سبق جلياً، أن ﴿كُنْتُمْ﴾ في الآية الكريمة تفيد الدوام والثبات، وأنهما موجودان في جميع الأحوال.

فعلينا إنكار المنكر باللسان والقلب فيما إذا أهملت الدولة والأمة قاطبة واجبها المقدس. ولكن يجب ألاّ ننسى "أن الغلبة على المدنيين (المتحضرين) إنما هي بالإقناع وليس بالإكراه".[1]

٥- جوانب التبليغ المتوجهة إلى الحق سبحانه وإلى الخَلق

إن مهمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إما أن تؤدّى لوجه الله، أو تؤدّى بما شرعه الله سبحانه من إحقاق الحقوق بين الناس.

---

(١) صيقل الإسلام لسعيد النورسي، ص ٥٢٧.

إن مسؤولية التبليغ والإرشاد مسؤولية كل فرد تجاه ربه. فكل فرد عليه أن يعتقد بأنه مكلّف بهذه الوظيفة، ويسعى لها سعيه للصلاة. ولا سيما وقد أُهملت هذه الوظيفة، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، حتى استولت المنكرات على المرافق كافة. وهذه المهمة الجليلة تحوز أهمية أكثر من الفرائض الشخصية، إذ لا يمكن الكلام حول الصلاة والزكاة والحج إن لم تُنجز هذه المهمة. وبخاصة في العهود المظلمة التي تُروّج فيها المنكرات ويُمنع المعروف، فالأمة قاطبة تكون مسؤولة في هذه الحالة.

ولا أعلم مهمة أجلّ من هذه المهمة في يومنا هذا، ولهذا أعتقد أن من نذر حياته لهذه المهمة فإن دنياه وآخرته ستكونان عامرتين بإذن الله. فكل شخص مضطر لأداء هذه المهمة الملقاة عليه سواء بالإفهام أو بالكتابة أو بالتأليف. وليؤدّها بأي طريقة كانت إلاّ أن عليه أن يؤديها حسبةً لله، ومنــزهة عن أغراض سياسية. ومن المعلوم أن تأثير هذا العمل ودوامه يكون بنسبة ما فيه من الإخلاص، وبمقدار ترفّعه عن الأغراض السياسية. ولا يمكن أن يعطى هذا العمل السامي ثماره من دون الإخلاص. فضلاً عن أنه سيكون وبالاً على صاحبه في الآخرة لحرمانه من الإخلاص. ولهذا فعلى القائم بهذه المهمة، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، أن يعمله حسب فحوى الحديث: "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ".[1] أي لا بد أن يكون كل جهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ولا يداخله شيء آخر، سواء أكان القائم يقوم ببناء سكن أو مدرسة أو مبيت للطلبة أو أية مؤسسة أخرى تمليها ظروف تلك الحالات في المستقبل، فالغاية الأساس في كل ذلك يجب أن تكون بمستوى يليق بتحقيق هذه المهمة المقدسة.

إن إنشاء مؤسسة وإحداث وحدة دَعَوية لابد أن تملأ الفراغ الروحي لدى الشباب وتعيد بناءهم المعنوي إلى هويته الأصلية وصفائه الأصيل، ليحول دون تسلل الإلحاد والفوضى والإرهاب وانتشارها في صفوفنا. فكل

---

(١) البخاري، العلم ٤٥؛ الجهاد والسير ١٥؛ مسلم، الإمارة ١٤٩-١٥١؛ الترمذي، فضائل الجهاد ١٦.

حملة من الحملات التي تنهض بها الأمة في سبيل الله هي في الحقيقة كسر لشوكة الملحدين والفوضويين وتفتيت لعزمهم. فهي الحل الوحيد لصدهم فكراً وعلماً ونشاطاً، بل لإزالتهم كلياً بإذن الله.

ولننتبه إلى هذا أيضاً: أننا إن لم نملأ هذا الفراغ و لم نصدع بالحق بوجه الإلحاد والإرهاب والفوضى بأعلى صوتنا و لم نقل لهم: "هذا الطريق مسدود لا يمكنكم عبوره"، فلا يبقى أيّ معنى للجهاد الذي بذله أجدادُنا لصد الروس واليونان والفرنسيين والإنكليز وأمثالهم من فرق الصليبيين عن حدود البلاد. فقد جعلوا أنفسهم وصدورهم هدفاً لطلقات الأعداء ومدافعهم وحرابهم، ودفعوا مئات الألوف من الشهداء. أي لا يبقى أي معنى لهذه التضحيات المعنوية. وأقول هذا من حيث عاقبتنا نحن، وإلاّ فسيجازيهم الله سبحانه وتعالى بالحسنى ولا يضيع مثقال ذرة من أعمالهم.

نعم، إن فتحنا أبواب الأخلاق السيئة والفكر الهدام وما شاكلها من الفساد على مصاريعها، فماذا يعني إذن جهاد أجدادنا وتضحياتهم؟ ألا يعني سلوكنا هذا هدر دماء أولئك الشهداء الأبرار هباءً؟

ولن يُهدر هباءً دم الثلاثمائة ألف شهيد ممن ضحوا رجالاً ونساءً بأموالهم وأنفسهم في "جَنَقْ قَلْعَة". فالروس الذين خرّبوا البلاد وأهلكوا العباد في "بالان دوكن"،[١] والأرمن الذين خانوا العهد وطعنوا من الخلف، فذهب بسببهم أكثر من مائتي ألف شهيد سطروا التوحيد بدمائهم في الثلوج التي تغطي الجبال الشاهقة.. نعم، لن تضيّع دماء أولئك المضحين! وإلاّ ستعاتبنا بشدة "نَنْه نَه خاتون"،[٢] و"صُوتْجُو إمام"[٣] وآلاف من أمثالهم من الأبطال، فكيف ننجي

(١) جبل قرب مدينة "أرضروم".

(٢) رمز البطولة للمرأة التركية حيث دافعت ببسالة نادرة مع الجيش العثماني في حرب الروس المشهورة بحرب ١٢٩٣هـ. ولدت في مدينة أرضروم وتوفيت في ١٩٥٥/٥/٢٢ بعد أن عمّرت ٩٨ سنة، ودفنت في مقبرة الشهداء في العزيزية.

(٣) من السبّاقين في حرب التحرير، إذ هو أول من أطلق النار على واحد من الجنود الفرنسيين الذي تعرّض لحجاب النساء في ١٩١٩/١٠/١٣.

أنفسنا من هذه المسؤولية الجسيمة؟. إذن نحن مضطرون أن نظهر تضحية مماثلة في سبيل دعوة أولئك الذين صدّوا هجمات الأجانب وضحوا بأنفسهم راغبين راضين مرضيين لئلا تداس أرض البلاد بأقدام الأجانب.

ولكن الفرق بين تضحياتهم وجهادهم أمس وما نحن بصدده هو فرق من حيث النوعية. فأجدادنا استعملوا في الجهاد السلاح مقابل السلاح، فكان هذا ما يجب أن يعملوه. أما نحن اليــــوم فعلينا أن نجابه الأعداء بالطرق والمناهج التي يستعملونها.. وهو الطريق الأسلم الأوحد للحفاظ على دماء أجدادنا من الضياع والهدر.

فعليك أيها المسلم –من حيث الظروف وطرق النضال والكفاح الحالي– ولأجل إنماء الفكر الإسلامي وإنعاش نشوة العبادة، أن تبني بجنب التكايا والزوايا مؤسسات تتمكن من أن تؤدي المهمات نفسها التي كانت تؤديها في سابق العهود. فتهرع لإمداد الجيل الناشئ في تلك المؤسسات لملء عالمه الداخلي بروح الإسلام والشعور به. وليُعلم أن الجيل المحروم من المعنويات لا يمكنه أن ينهض بأداء أي عمل إيجابي بنّاء. لأن تربية شخصيات ذوى فعالية ونشاط عظيمين منوطة بهمّتك هذه وبجهودك هذه. فإذا ما سعيت سعياً حثيثاً بمنهج معين وطريقة محددة منسقة يمكن أن يظهر في جيلك أنت: أمثال الإمام الرباني والإمام الغزالي والشاه النقشبند ومحمد الفاتح وياووز سليم من العظماء وأمثال الفارابي وابن سينا ومحي الدين بن عربي ومولانا جلال الدين الرومي من نجوم الفكر وأقطاب الأولياء.

فلا يحول شيء من أن تزدهر في حدائقنا أمثال هذه الأزاهير الفواحة. ويكفي أن يتقن البستاني عمله ويبذل أقصى جهده.

ووجه آخر أيضاً للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو أنـــه يجب أداؤه باسم الحقوق المشتركة بين الناس، وهو في الوقت نفسه مسؤولية نابعة من الحياة الاجتماعية. فإن تحقيق الأخلاق الإسلامية والفكر الإســـلامي كي

يُستشعر بها ويُعاش بها هو في ضمن هـــذا القسم من المسؤولية الاجتماعية. فكما تعد من القواعد التي لا تتبدل بالنسبة للمسلم لمعاملاته اليومية في السوق وغيرها ضمن هذه المسؤولية كذلك الحقوق التي يجب أن تصان بين الأفراد، هي ضمن هذه المسؤولية أيضاً. والآن لنوضح الأمر:

إن للإسلام أخلاقاً خاصة بـــه في التجارة والاقتصاد. والمسلم مضطر لإقامة حياته التجارية والاقتصادية ضمن إطار هذه الأخلاق. فلا يمكنه أن يتعامل بالربا ولا أن يحتكر ولا يدخل في المضاربات التجارية المحرمة. فهو مضطر لأن يبقى خارج كل ما هو غير أخلاقي كحماية زمر معينة وإزالة الطبقة الوسطى. وعليه أن يقيم الميزان والتوازن في جميع معاملاته التجارية. فكل ما هو خارج عما يقبله الإسلام لا يعد متاعاً للمسلم، وعليه أيضاً أن يسعى لتكون حياته التجارية مستقرة ومعاشـــة. بل مضطر إلى هذا السعي. وهكذا فللأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هذه الجهة أيضاً.

وبهذا يكون المسلم قد ضرب ضربة قاصمة المراباةَ والاحتكار والسوق السوداء، وغيرها من المنكرات التجارية حتى لا يجد ما يحظره الدين المناخ الذي يتنامى فيه في ذلك المجتمع.

نعم إن للإسلام -كأي نظام آخر- قواعده في مناحي الحياة كلها: في التجارة، في العائلة، في العلاقات الاجتماعية...الخ. فمثلاً: في العائلة يشترط الإسلام النكاح، وبه يتكاثر الإنسان. فلا موضع للزنا والفحشاء في المحيط الذي يعيش فيه الإسلام. لأنهما من الأمراض الخطرة والمدمرة لكيان المجتمع بينما الإسلام يصد أي عامل يحاول تدمير حياة المجتمع.

وفي داخل العائلة حُددت العلاقات التي تربط بين أفراد العائلة، بين الأب والأم والأولاد بحدود قواعد الإسلام. والإسلام دقيق جداً في المحافظة على العائلة وعشها. ولهذا فإن أي فكر يحاول هدم هذا العش العائلى يجد الإسلام يصدّه. ومن المعلوم أن هذه العناية شرط أساس للحفاظ على كيان العائلة والحيلولة دون ضياع النسل.

فالمؤمن -كما يُرى هنا- حينما يسعى من جهة لتحقيق أوامر الإسلام في حياته الخاصة وفيمن حوله من الناس، يحاول من جهة أخرى أن يبعد ما يحظره الإسلام ويحرمه من حياته الخاصة ومن حياة المجتمع. وهذه إحدى طرق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أيضاً.

فالمؤمن إذن -ضمن هذه الطرق المتعددة- في الوقت الذي ينفّذ ما هو الواجب عليه من مهام ليملأ حياته بالفضائل، يحاول أن يملأ مجتمعه الذي يعيش فيه بها كذلك. وعندها يمكن التحدث عن الإنسان الفاضل بمعنى الإنسان الكامل والمجتمع الفاضل الناشئ من هؤلاء الأفاضل والأمة الفاضلة... ومرحلة أخرى، الدنيا الفاضلة التي تتركب وتنسج من هذه المجتمعات والأمم. وهكذا. ينتظر العالم ما يحيكه المؤمن من الدنيا من خمائل مطرزة، وبناء مثل هذه الدنيا منوط بالعمل، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فالأفراد في هذه الدنيا التي نرغب في إنشائها ونطمع أن نراها يسعى كلٌ منهم ليفيد الآخرين، وتحاول الأمة أن تجعل الدنيـــا جنة نعيم لها وللأمم الأخرى. والمنافسة في الفضائل هي الأســـاس في هذه الدنيـــا. والمجتمع والعالم الذي تتسابق فيه الفضائل، يسيطر فيه "نحن" بدلاً من "أنا" فتُقتل فيها الأنانية التي يعبر عنها الشاعر "إذا متّ ظمآن فلا نـــزل القطر" و تُدفن هذه الأنانية المحضة إلى غير بعث. وتنشأ وتزهر فيها "إذا مات أحدهم ظمآن فلأكن أنا". هذا المجتمع هو الذي يرى النمو والإنبات. وليسعد كل الناس وسأكون سعيداً بسعادتهم، ولكن لأكن أنا آخر مَن يسعد. هذه الفكرة هي التي تعم الجميع وتربط أفراده الواحد بالآخر. والشعور بالصداقة والمحبة يعم الجميع ويعيش الكل في هذا الجو ويُنسى العداء والبغضاء.

والحقيقة أن كل هذا الكلام المذكور موجود في الفكر الإسلامي الأقدس الذي يشكل بناءنا الروحي. وحينما يفهم الناس هذا النظام ويعمل في أرواحهم إذا بعالم الفضيلة يظهر إلى الوجود بنسبة معايشتهم له.

والشرط الأساس في هذا: لا بد أن تدرك الدنيا كلها هذه النتيجة وتعيها وتشاهدها في الواقع، وهذا سيحدث كذلك بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وتنتظر هذه الوظيفة -في مستوى الفرد والعائلة والمجتمع- حالياً تلك الأيدي المباركة التي ستمتد إليها.

٦- التبليغ والعلاقة بين الفرد والمجتمع

يقول الرسول الكريم ﷺ في حديثه الشريف: "المسلم مَنْ سَلِم المسلمون من لسانه ويده".(١)

يفهم من هذا الحديث الشريف: أن المسلم لا يمكن أن يستخف بمال أي إنسان كان ولا بعرضه ولا بشرفه ولا بكرامته، وكذلك لا يمكنه أن يتصرف فيما يومئ إلى التعرض لحياة أي إنسان كان. فلئن كان الزوج هو وحده له الصلاحية على مس ما يُعدّ من المحارم في الدين لدى المرأة، فهل يتصور أن يعقد غيره علاقة معها؟ ثم إن تجول المرأة متبرجة مكشوفة المحارم إثم يخصها وحدها. إلاأنه لا يسوّغ تبرجها هذا نظر الأجنبي لها. ولئن كان المسلم ينظر إلى هذه المسألة بهذه الدرجة من الحساسية والدقة فهل يمكن أن يرتكب إذن ما وراء هذا النظر من الحرام الذي يعدّه الدين من الكبائر. ولاشك أن حوادث فردية تقع في كل مجتمع، ولكن المسألة هنا تتعلق بالتقصد والتمادي في الأمر.

ولقد تعرفت على نمط من الشباب لو تعلق بنظرهم حرام في أثناء تجوالهم لضرورة في السوق يتصدقون بيوميتهم كفارةً لذلك الذنب فراراً إلى باب التوبة. وفي الحقيقة لا بد أن يتحلى كل مسلم بمثل هذه الأخلاق. حيث إن المسلم مَن يطمئن إليه المسلمون ويأمنون جانبه. أجل إن المسلم لا يمكنه أن

---

(١) البخاري، الإيمان ٤-٥؛ مسلم، الإيمان ٦٥؛ أبو داود، الجهاد ٢.

يمد يده حتى إلى لقمة واحدة لغيره. ولا يفكر بل ولا يخطر بباله أن يستفيد بغرام واحد من ملء الأرض ذهبا لغيره. ذلك لأنه إنسان الأمان والثقة. وما المجتمع الإسلامي إلا مجموع أمثال هؤلاء الأفراد. ولا يحق لأحد أن يتخوف من مثل هـــذا المجتمع. والحديث الشريف المذكور أعلاه يشير بالمفهوم المخالف: أن الكافر هو من لا يسلَم الناس من لسانه ويده. نعم إن البشرية محقة في الوقت الحاضر إذا ما تخوفت وقلقت -مهما كانت- من كل إنسان يمثل الإلحاد، حيث لا يوجد في أي منهم الشعور بالأمان والاطمئنان. أليست الحوادث التاريخية شواهد حية على هذا؟ أما الإسلام فيربي منتسبيه بأخلاق فاضلة بحيث يتميزون عن الآخرين في بنيتهم الروحية وتصرفاتهم، وينبغي أن يكون هكذا. ذلك لأن المجتمع الذي يعيش فيه قد سد جميع أبواب الأخلاق السيئة بكافة أنواعها، واتخذ موقفاً تجاه جميع السيئات التي يعدّها الدين من المنكرات. وحيث إن الأمر هكذا فالأمم أو المجتمعات التي ينشؤها المسلمون يفوح منها شذا الروح والريحان فهي متميزة كليا عن المجتمعات الأخرى التي تصول فيها الرذائل. نعم إن من أولى واجبات المسلم التحلي بهذه الخصال أولا ثم نقلها إلى الآخرين.

بمعنى أن هذا الواجب لابد أن يجرى في مستوى الفرد أولا ثم في مستوى المجتمع ثم في مستوى الدولة. ومن المعلوم أن المجتمع المنوّر يتكون من أفراد منورين. ومثل هذا التشكل لا يقتصر على جذب الأفراد إليه فحسب بل يجذب أيضا التكتلات والشعوب الأخرى معا. ولعل أوضح مثال لهذه الحقيقة الكلية إسلام النجاشي:

النجاشي حاكم الحبشة، وقـــد اســـتجار به ثلة من المسلمين فحماهم، وتفرس في أقوالهم وأطوارهم بمرور الزمن وفي النور الذي يشع من ناصيتهم ومن طفح الإيمان في صدورهم طريقا إلى الحقيقة، فاسلم حالاً للرسول الكريم ﷺ. وفضلا عن أن هذا ثمرة من ثمرات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قصر النجاشي، فإنه نتيجة لتنفيذ ما يمكن أن يقولوه إلى النجاشي

في أنفسهم أولا. أو بتعبير آخر: إنه بقدر ما أعجب النجاشي بأقوالهم فإنه أعجب بالفضائل التي تنم عنها أطوارهم وحالاتهم الروحية.

إن الرسالة التي بعث بها النجاشي إلى الرسول الكريم ﷺ مشحونة بأدب محض. إذ استهل رسالته: "إلى محمد رسول الله من النجاشي.." فقدم اسم الرسول على اسمه أي قَبِل عظمته فضلا عما في ثنايا الرسالة من كلمات التقدير والاحترام، وكيف ماجت في روحه فجأة أمواج الإيمان.. كل ذلك يجعل تلك الرسالة تستحق قراءتها مراراً.

فما أعظم قوله: "أشهد أنك رسول الله.. فإني لا أملك إلاّ نفسي وإن شئت أن آتيك فعلتُ. يا رسول الله، فإني أشهد أنما تقول حق".(١)

وفي يوم آخر يقول وبحسرة بالغة: "أشهد أنه رسول الله وأنّه الذي بشر به عيسى بن مريم، ولولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أحمل نعليه!!"(٢)

إن الذي دفع النجاشي إلى هذه الحالة، الحياة الإسلامية في تلك النخبة من الصحابة الكرام وما كانوا يتفوهون بها من كلمات طيبة نــــزيهة. فالذين ينقلون الحادثة يروونها على الصورة الآتية:

لقد ضاقت مكة بالمسلمين. ولم يبق أحد من المسلمين يأمن على حياته وماله وعرضه وشرفه. ففي هذه الأثناء أُذن بالهجرة إلى الحبشة. وهاجر مجموعة من المسلمين إليها واستُقبلوا هناك استقبال ضيف عزيز كريم أكثر مما كان يُنتظر. ولكن مشركي مكة كانوا قد عقدوا العزم على جعل الدنيا ضيقة على المسلمين. وتشاوروا فيما بينهم وأرسلوا وفدا إلى الحبشة برئاسة الداهية السياسي عمرو بن العاص -الذي أصبح ﷺ فيما بعد من كبار الصحابة- وحاولوا إثارة النجاشي على المسلمين كي يتخلى عن حمايتهم.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير، ١٠٥/٣.

(٢) أبو داود، الجنائز ٥٦؛ السنن لسعيد بن منصور، ٢٢٨/٢؛ أحمد بن حنبل، المسند ٤٦١/١؛ المستدرك لحاكم النيسابوري، ٣٣٨/٢.

فيكونوا قد خيبوا أمل المسلمين مرة أخرى.

أنصت النجاشي إليهم مليا. وقد استفرغوا كل ما لديهم من افتراءات في سعيهم للتأثير على مشاعر النجاشي، بيد أن النجاشي كان مثالا للمروءة، فلم يطرد من استجار به بمجرد اتهامات رخيصة تافهة. وأوضح فكره هذا للوفد القادم من قريش، وأفاد بجلاء أنه لن يحكم بشيء ما لم يستمع إليهم أيضا. وعلى ضوء هذا دُعي عدد من المسلمين إلى القصر وكان جعفر بن أبي طالب ﵁ يترأسهم واختاره المسلمون ناطقا باسمهم، وهو من أشراف مكة وابن عم الرسول ﷺ والأخ الكبير لسيدنا علي ﵁. وكان المسلمون قد اختاروه ناطقا باسمهم إذ كانوا صفا واحدا ووحدة متحدة كأنهم كيان واحد. وهذه الرابطة الوثيقة بينهم كانت ملفتة للأنظار.

كان على الداخل أن يسجد للملك تعظيماله، وكان هذا يعدّ من أصول التشريفات، إلا أن المسلمين لم يسجدواله، إذ لا يجوز للمسلم أن يسجد لغير الله جل جلاله. وقد سرّ وفد المشركين تصرف المسلمين هذا، حيث فكروا أن النجاشي سيغضب عليهم ويطردهم من ديوانه. ولكن النجاشي –كما ذكرنا– كان مثالا للفضيلة. ويا ليت الذين يقولون بالديمقراطية في أيامنا هذه يمتثلون بالديمقراطية التي مارسها وعاشها هذا الملك الحبشي قبل أربعة عشر قرنا، ولكان فيما يدّعونه حظ من الحقيقة.

سأل النجاشي المسلمين بعض الأسئلة، فأجابه جعفر ﵁: "أيها الملك: كنا قوماً أهلَ جاهلية؛ نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرْحَامَ، ونسيء الجوار، يأكل القويّ منا الضعيف. فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمَرَنا بصدق الحديث، وآداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقولِ الزور، وأكْلِ مالِ اليتيم، وقذْفِ المحصنة. وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به

شيئاً، وأمرنـــا بالصلاة والزكاة والصيام. قال: فعدد عليه أمور الإســـلام فصدقناه، وآمنا بـــه واتبعناه على ما جاء بـــه فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا. فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله. وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث فلما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك!".

ثم استرســـل جعفر بالكلام والنجاشي ينصت ملياً. فسأله عن ســـيدنا عيسى ومريم عليهما السلام، فتلا عليه جعفر ﵁ سورة مريم في خشوع ولم يتمالك النجاشي نفسه فأجهش بالبكاء. "فضرب النجاشي يده إلى الأرض، فأخذ عودا، ثم قال: ما عدا عيسى بنُ مريم ما قلت هذا العود".[١] نعم، لا فرق قطعا لأن الوحي النازل على جميع الأنبياء صادر من منبع واحد.

ردّ النجاشي المشركين مع ما حملوا إليه من الهدايا. وأعلن حمايته للمسلمين، لأنه شاهد أشعة عظيمة من الفضائل تشع من المسلمين رغم اللقاء القصير معهم. وكان هذا كافيا لاختياره الإسلام دينا له.

وإذا ما عدنا إلى الموضوع، نجد أن هذا الواجب المقدس السامي إن لم ينفّذ في حياة الفرد، فإن انتظار نشوء مجتمع فاضل لا يعني غير الخيال. وذلك للعلاقة الوطيدة بين الفرد والمجتمع، حيث إن المجتمع يتشكل من الأفراد. ولهذا فالمجتمع الفاضل هو الذي يتحلى أفرادُه بالفضائل. ومن جهة أخرى فكما أن الأفراد مضطرون إلى صيـــانة الفضائل التي كسبوها فالمجتمعات أيضا مضطرة إلى صيانة الفضائل التي كسبتها من قبل. وكما ذكرنا آنفا، إن الفضائل التي يكسبها الإنسان ليست أزلية كما أنها ليست

(١) أحمد بن حنبل، المسند ٢٠١/١-٢٠٢؛ السيرة لابن هشام، ٣٥٨/١-٣٦٢؛ البداية لابن كثير، ٨٨/٣؛ دلائل النبوة لأبي نعيم، ٢٤٣/١-٢٥٣؛ البيهقي، دلائل النبوة، ٣٠١/٢-٣٠٣.

أبدية. فهي كينونة... بمعنى أن الفضيلة والخير المكسوب يقتضي الدوام على الشروط التي أكتسبت الفضيلة بسببها. ولا أحد غير الأنبياء عليهم السلام لهم الضمان، فلقد مُنح لهم هذا الضمان كأجرة مقدمة لما يحرزونه من ظهور في أثناء جهادهم بإرادتهم لكسب الفضيلة، لأن الله سبحانه قد علم بعلمه الأزلي ما يصلون إليه في المستقبل وكافأهم مسبقا بمنح إلهية. ولهذا فغير الأنبياء مهما كانت منـــزلتهم ومقامهم مضطرون على الحفاظ على ما كسبوه من مقام، وإلاّ فالمآل الضياع والتقهقر دائماً.

والنتيجة التي نحصل عليها من هذا الاستطراد هي: أن الفضائل التي يُكسبها الأمر بالمعروف للفرد والمجتمع تدوم ويحافَظ عليها بالأمر بالمعروف أيضا. وبخلافه سيبدأ التقهقر والتراجع تدريجياً حتى ينتهي بانتهاء ذلك المجتمع القاصر. وللحيلولة دون بلوغ هذه النتيجة لابد من إذكاء القوة المعنوية وجعلها في حيوية مستمرة. وهذا يحصل أيضا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. بمعنى أن هذه الوظيفة المقدسة حياةٌ للفرد وللمجتمع على السواء، وفي الوقت نفسه شرط للحفاظ على الحياة. ولعل هذا هو السبب في اشتراط سيد المرسلين ﷺ الأمر بالمعروف عند قبوله البيعة من بعض الأشخاص.

فمثلا قد قَبِل بيعة جرير بن عبد الله البجلي ﷺ على هذا الشرط. يقول هذا الصحابي الجليل: "بايعتُ رسولَ الله ﷺ على إقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة والنّصح لكلِّ مسلم".[1] وهذا يعني بوضوح: أن عليك القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فضلا عن ذلك فإن هذه الوظيفة المقدسة تُكسب الإنسان فضائل العبادات الأخرى أيضاً، لأن الذي يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أي الذي نذر نفسه لهذا الأمر الجليل قد زيّن نفسه أولاً بتلك الفضائل لدى قيامه بهذه الوظيفة واستعد للتحلي بأية فضيلة أخرى. إذ إنه يؤدي أصعب

---

(١) البخاري، الإيمان ٤٢؛ مسلم، الإيمان ٩٧؛ الترمذي، البرّ والصلة ١٧؛ الدارمي، البيوع ٩.

الأمور وأثقلها، عمل الأنبياء بل غاية حياتهم. فلاشك أن مقامه أيضاً يكون في مستوى رفيع.

انظروا إلى القرآن الكريم كيف يشير إلى ثقل هذه الوظيفة المقدسة لدى ذكره وصية لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾(لقمان:١٧).

يتبين من الآية الكريمة أن سيدنا لقمان يعظ ابنه بإقامة الصلاة أول ما يعظ ثم يعقبها بالقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وكأنه يريـــد أن يقول لابنه:

يا بنيّ إن من لا صلاة لـــه لا جهاد لـــه، فالصلاة شرط لقبول جميع العبادات، لذا عليك أن تؤدي عبوديتك هذه تجاه ربك أولاً، ثم اسع بما عندك من جهد أن تنشر حولك هذا المعروف وتسعى لمنع المنكر والنهي عنه. وفي أثناء قيامك بهذا العمل ستجابهك أنواع شتى من النوازل والمصائب. فتجمّل بالصبر تجاهها منذ البداية وفي أول الطريق.

إنه لا مفاجأة ولا عجب لصاحب أية دعوة كانت مجيء البلايا ونـــزول المصائب. بل هي منتظَرة، لأنه لم يحدث خلافه لحد الآن. ذلك لأن هذا العمل من المهام الجسيمة وما لا يتحمله إلاّ أولو العزم من الرجال و ما لا يقدر على جزائه إلا الله سبحانه وتعالى. وستعلو بهم هذه الأمور العظام ليكونوا مع أولئك العظام، ولكن سيتعرضون هنا للبلايا والمصائب التي هي ملازمة لأولئك العظام. وما عليهم إلا التجمل بالصبر اللائق بأولئك العظام.

يبين الرســـول الكريم ﷺ في حديث شـــريف أهمية هذه الوظيفة الجليلة إذ يقول: "خيـــارُ أمّتي بَين جُهَلائهم في بَـــلاءٍ وَجِهادٍ".[1] وحديث آخر يؤيد هذا الأمر: "المسلم إذا كان مخالطا النّـــاس ويصبر على أذاهم خير من

(١) الفردوس للديلمي، ١٧٤/٢.

المسلم الّـــذي لا يخالط النّـــاس ولا يصبر علَى أَذاهم".[1]

نعم، القيـــام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مجتمع فاسد آسن، عبادة أفضل من انكفاء المرء على نفسه متفرغا للتعبد في زاوية قصية بعيداً عن المجتمع. ولـــو لم تكن هذه الوظيفة أفضل من العبادة الشخصية لكان الرســـول الكريم ﷺ لا يغادر بيته ويمكث منشغلا بالفيوضات والتجليات الربانية وما كان يخالط الناس قط. وكذا لو لم تكن هذه الوظيفة أفضل من غيرها من الأعمال ولاســـيما اعتزال الناس لما خوطب بـــ﴿ يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنذِرْ﴾(المدثر:١-٢).

الدين كله نصيحة، الدين أمر بالمعروف ونهي عن المنكر. وقد قال الرسول الكريم ﷺ: "الدّين النّصيحة. قلنا: لمن؟ قال: للّه ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامّتهم".[2]

وعلى هذا فالمؤمن يعرّف بالله دون توقف وهذه القضية قضيته الأساس. بل يفرغ نفسه لهذا العمل حتى يجافيه النوم ويفقد شهيته للطعام في يوم لم يتمكن من تعريف الآخرين بالله ولا يعدّ ذلك اليوم من حياته.

وكذا سيكون التعريف بالرسول ﷺ شغله الشاغل فيسرد ما تحمله ﷺ في سبيل هذه الدعوة من مشاق ويتحدث عن هذا ويتحدث.. حتى يضمن أن يتخذه السامعون قدوة في أعمالهم كافة.

وكذا سيكون تعريفه بالقرآن الذي أنـــزله الرب الجليل دستوراً وهادياً للعمل. وأن عزنا وكرامتنا منوطتان باعتصامنا به. هذا ما نفهمه من شهادة التاريخ، إذ ما أن اعتصم به العالم الإسلامي وعمل بأحكامه إلاّ وجال في الذرى، وبخلافه ما إن أرخى يده عنه حتى تفرّق شذر مذر.

---

(١) الترمذي، القيامة ٥٥؛ ابن ماجه، الفتن ٢٣؛ أحمد بن حنبل، المسند ٤٣/٢.

(٢) مسلم، الإيمان ٩٥؛ البخاري، الإيمان ٤٢؛ أبوداود، الأدب ٥٩؛ الترمذي، البر والصلة ١٧؛ النسائي، البيعة ٣١.

أرى هنا ضرورة تقتضي البيان وبحسرة في قلبي، أقول حسرة وحزناً لأنني كلما فكرت فيه أجدني متألماً أشد الألم وهي:

إن مسلمي يومنا الحاضر أصبحوا لا يفقهون شيئا من كتاب الله. فهم في واد والقرآن في واد آخر. وغدا ارتباطهم بالقرآن شكلياً محضاً. فتجد الذي ينهر مَن لم يرفع القرآن فوق صدره احتراما، وهو في حياته المعيشة يخالف القرآن مخالفة كلية. فالذي لا يتخذ قرآنه دستور حياته ولا يجعل الاحتكام به غاية حياته، يعاقب في الآخرة عقاباً أليماً مهما كان عنوانه وموقعه. وحتى لو احتفظ بالقرآن في الدنيا في محافظ أو علّقه في موقع رفيع، بل ربما سيُعلّق هو كذلك من قفاه أو رجليه، لمخالفته ذلك القرآن وارتكابه الآثام في حياته الدنيوية.

ليت شعري هل يمكن أن يرفع ستار الغيب ولو للحظة ليرى هؤلاء الناس من وعاظ ومفتين وكتّاب ومحررين ومفكرين وقرّاء ومستمعين ومعلمين مصير بُعدهم عن القرآن وهجرهم له... ولكن هذا الأمر يعني سلب الإنسان من إرادته وهو مخالف لسر الامتحان والتكليف.

قلنا: رفع ستار الغيب لمشاهدة لوحات الآخرة. ولكن أظن أن قليلاً من التفكير كاف لرؤية عاقبتنا في الدنيا، أليست واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار كيف ندفع ثمن بقائنا بعيدين عن القرآن؟ ولمن؟. تُرى أي ذل ننتظره بعد هذا الذل ليكون وسيلة لاعتصامنا بالقران ودفعنا إليه؟. نعم لا بد أن ينتهي هذا الوضع الأليم ولابد أن يعلم العالم الإسلامي أن المنقذ الوحيد هو الاعتصام بكتاب الله. وما بُعث النبي العظيم إلاّ لإفهامنا هذا الأمر. وسترتفع وتعلو الإنسانية بمقدار استيعابها لأوامر كتاب الله.

والنتيجة أن الإنسان، في المستوى الفردي من جراء قيامه بهذه الوظيفة المقدسة يصبح وسيلة لإيقاظ الأشخاص على صوت الإيمان، ينال ثواباً مثل جميع ثوابهم. يعني: أنكم إذا أصبحتم وسيلة لإقناع شخص ما إلى أهمية

الصلاة ووجوب الزكاة وحكمة الصيام وضرورة الإرشاد وما شاكلها من الأمور، فالثواب الحاصل مما يفعله و سيفعله ذلك الشخص من هذه الأعمال يُكتب لكم مثل ثوابه دون نقصان. ذلك "إنّ الدّالّ على الخير كفاعله"(١) كما قال من أوتي جوامع الكلم ﷺ. فضلاً عن ذلك فإن الثواب الحاصل مما يغنمه ذلك الشخص الذي هداه الله إلى الإيمان بإرشادكم، يكتب لكم مثل ثوابه أيضاً. وهذا يبين لنا مدى أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حيث العمل الصغير في هذه السبيل يورث الإنسان أثوبة إلى هذا الحد. يقول الرسول ﷺ:

"مَن سنّ في الإسلام سُنّةً حسنة فَعُمِل بها بعده كُتب له مثلُ أَجرِ مَن عَمِل بها ولا يَنقُص من أجورهم شيء ومَن سَنّ في الإسلام سنّة سيِّئةً فَعُمِل بها بعده كُتِبَ عليه مثلُ وِزْرِ مَن عمِل بها ولا ينقص من أَوزارهم شيء". (٢)

فكل من سار في ضوء هذه السنة يأخذ ثوابه، سواء أكان من الأقارب أو البعيدين. لأن فتح نهج جديد وسنّ سنة حسنة كنفخ حياة في حياتنا الاجتماعية الميتة، وحتى إذا فارقنا هذه الحياة ورحلنا من هنا، فإن تلك الحسنات تظل في سجل حسناتنا. ويمكننا أن نقيس الحسنات الأخرى على هذا.

يجب ألاّ ننسى أن يوماً ما سيحملوننا على محمل بلا روح و يضعوننا في حفرة ويهيلون علينا التراب، وحتى أقرب الناس إلينا من أب وأم وصديق وأخ وأحباب سيتركوننا هناك. وستنـــزل علينا غدقا من تلك الأثوبة التي ترد من السنّة الحسنة التي سننّاها. وستجعل قبرنا غارقا في بحر من الأنوار. وفي هذه الحالة سنكون أحياءً إلى يوم القيامة بتلك البذور التي بذرناها في الدنيا مع أننا أموات من حيث أجسامنا.

تأملوا في سيدنا محمد ﷺ وقد ارتحل إلى العالم الآخر منذ أربعة عشر قرنا

---

(١) الترمذي، العلم ١٤.

(٢) مسلم، العلم ١٦؛ الترمذي، العلم ١٥؛ أحمد بن حنبل، المسند ٣٦١/٤.

من الزمان، ولكن مَن ينعم بالحياة مثله ومَن هو حي مثله؟ إذ يفتح يوميا ولا يغلق أبداً سجل حسناته بجميع صحائفه وتُكتب له الأثوبة؟ ثم يليه مَن وضع لبنة من ذهب في بناء الحياة الاجتماعية، وهم يربون على الملايين وكلهم أخذوا ثوابهم بنسبة ما أصبحوا وسيلة لسنّة حسنة. نعم إن رحمة الله واسعة وحسب المرء أن يسلك الطريق الذي يوصل إليها.

يقول الرسول الكريم ﷺ: "كلُّ الميّت يختَمُ على عمله إلاّ المُرابط فإنّه يَنْمُو له عملُه إلى يوم القيامة ويُؤَمَّنُ من فَتَّان القبر".[1]

نعم "المرابط" الذي نذر نفسه في سبيل الحق، ولا يفكر في شيء غير دعوته، وجعل غاية حياته سد الثغرات التي قد تتسرب منها المهالك والمخاطر إلى بلاده، ويعدّ تبليغ ما منّ الله عليه من يُمن وبركة إلى الآخرين أعظم وظيفة. فإنسان كهذا لا يُغلق سجل حسناته قط، بل ينمو ويربو كل حين. وفي تاريخ الإرشاد والتبليغ مَن نشر ملايين من بذور الإرشاد ثم ارتحلوا دون أن يشمّوا رائحة وردة منها. ومَن بذر تلك البذور وشاهدوا اخضرار الأرجاء بالربيع الزاهر بعد خمسين سنة. فأثوبة جميع هؤلاء حولت قبورهم إلى مركز إشعاع ومنبع نور.

نعم، إن الله سبحانه وتعالى يربي أعمالهم وينمّي حسناتهم ويعصمهم من فتنة القبر وينـــزل عليهم سيولاً من الأنوار. بمعنى أن هؤلاء قد ماتوا بجسمانيتهم فحسب، وهم أحياء من حيث الثواب، بل أكثر حياة ممن يسمّون أحياء و لم يوفّقوا إلى مثل هذا العمل.

٧- الإرشاد وموقف المؤمن والمنافق

المؤمن يعلّم الفضيلة ويلقّنها باسم الحق والحقيقة في المجتمع الذي يعيش فيه بدءاً من أقرب الدوائر إليه. وهذه نتيجة ضرورية لإيمانه. إذ سلامة المسلمين

(١) أبو داود، الجهاد ١٦؛ الترمذي، فضائل الجهاد ٢.

من يده ولسانه تولد هذه النتيجة. ومن جهة أخرى فالمؤمنون كالجسد الواحد كما ورد في الحديث الشريف. فإذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى. ومن المعلوم أن سلامة كل عضو من النقص والعوز تولد سلامة الجسد كله. فأمر فطريّ وطبيعي جداً أن يهتم المؤمن بهموم المؤمنين، ويتألم بآلامهم، وينشرح بسرورهم، ويسعد بسعادتهم.. أليسوا أعضاء جسد واحد؟ وبالأخص إن كان هذا التألم والسرور يتعلق بالعالم الأخروي الأبدي. فكيف يظل المؤمن غير مبال بذهاب أخيه إلى الجنة أو إلى النار؟ لذا فإن قيام المؤمن بالواجب المقدس أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تجاه أخيه المؤمن صفة ملازمة له. وإلى هذا المعنى يشير القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(التوبة: ٧١).

نعم، المؤمنون ذكراناً وإناثاً بعضهم أولياء بعض، ومقتضى هذه الموالاة هو الأمر بالمعروف أي الذي يراه الله حسناً، والنهي عن المنكر وهو ما يراه الله قبيحاً.. وفي الحقيقة لا يتعامل المرء مع وليّه بغير هذا التعامل.

والمهم هو ألاّ ينسى المؤمن نفسه في أثناء قيامه بهذا العمل أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ عليه أن يحقق الإسلام أولاً في نفسه، حتى يجعله جزءاً من طبعه وخلقه، فيقيم صلاته بإتقان ويؤتي زكاته على أفضل وجه.. أي يطيع الله ورسوله ﷺ في كل شأن من شؤونه. فإذا ما أصبح كل فرد في المجتمع على هذه الصورة فالمجتمع بدوره ينتظم. وعندها تحتضنه الرحمة الإلهية بكل سعتها ويكلأ أفراده في كنفه سبحانه فينبعث جو رحماني في ذلك المحيط.

ومقابل هذا النمط السامي للمجتمع وهذه النماذج الفريدة الخالصة للمؤمنين يصور القرآن الكريم المنافقين كالآتي: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ

بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللّٰهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(التوبة:٦٧).

وكما يبدو من قوله تعالى:﴿بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أن القرآن الكريم لا يستعمل كلمة "الوليّ" للمنافقين، لأن الولاية لا وجود لها بين المنافقين، إذ المنفعة هي الرابطة الوحيدة التي تربطهم. فإن أصيبت منافعهم بضرر طفيف إذا بصراع حاد يدبّ فيما بينهم، فالآية الكريمة: ﴿بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ تظهر حالتهم النفسية المشبعة بالخبث.

وصفة أخرى يشتركون فيها هي: أنهم "يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ" بما ينشرون من نشريات مبتذلة خليعة ويلقنون الفساد باستمرار، فيستحوذون بها على الشباب استحواذ التنويم المغناطيسي؛ فينقاد الناس لأوامرهم. حيث إن وسائل الإعلام والإعلانات قوية إلى درجة تؤثر في الإنسان. فالذين زاغت عقولهم وغشيت أبصارهم وسطاء وعملاء وآلات بيد المنافقين لا ينفكون عنهم. فلا يدعون خبثاً ولا فساداً لعيناً إلاّ واقترفوه لأجل إدامة قواهم الاستغلالية، ولأنهم منافقون، فهم يُعرفون حالاً بصفتهم المميزة هذه أينما كانوا في العالم. حيث إنهم يأمرون الناس بالمنكر وينهونهم عن المعروف.

نعم، الصفة المشتركة الثانية لهم هي أنهم "يحولون دون المعروف ويمنعون الخير"؛ حيث يسعون لجعل المجتمع تحت سيطرتهم النفسية بوصمهم كل من يريد العيش الفاضل بأنه "متخلف رجعي". فكل مصلّ وصائم متخلف رجعي في نظرهم. والزيّ المميز للنساء وما يغطي رؤوسهن علامة رجعية مرعبة وإشارة شؤم لهم. وإذا ما تطرقت إلى محبة الأمة فإذن أنت قومي متطرف في نظرهم.. وهكذا.

نعم إن كل جميل وحسن منكر وقبيح عندهم. حتى كأنهم مصابون بمرض حساسية مفرطة تجاه كل ما هو معروف ومستحسن لدى الأمة. وهذا من مقتضى النفاق الذي هو الدرك الأسفل الذي يسقط فيه من لم

يتكامل ظاهراً وباطناً، كما يعبّر عنهم القرآن الكريم، بل يجسّم القرآن الكريم صورهم واضحة بقوله: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلّ﴾(الأعراف:١٧٩).

وعلى هذا الأساس ينبغي على المؤمنين أن يقوا أنفسهم من التورط في السقوط في هذا الدرك الأسفل بأدائهم مسؤولياتهم على وجهها، وذلك بأمرهم بعضهم البعض بالمعروف والحث عليه ونهيهم عن المنكرات والسعي للتخلي عنها. فكما أنهم يتجنبون ويخشون السقوط في هاوية النفاق، عليهم أن يخشوا كذلك من مثل هذه العاقبة لأصدقائهم وأحبابهم. وعليهم أن يكونوا يقظين ويجعلوا المجتمع الذي يعايشونه في حالة متيقظة أيضاً. نعم، إن هذه الميزات لا تنفك عن كونهم مؤمنين كما ذكرنا آنفاً.

وفي الحقيقة لأجل إقامة مجتمع سعيد آمن ينبغي عدم إفساح المجال لأصغر منكر. وبخلافه فإن ما يبدو صغيراً في بادئ الأمر ينتشر في وقت قصير جداً ويستشري كالوبـــاء الساري إلى حد قد يهدد المجتمع بكامله، وأحياناً الأمة قاطبة، بل الإنسانية جميعا فيهددهم بالفناء والتعاسة. وما دبّ الفساد والانحراف في المجتمع إلاّ من مستصغر المنكرات. فإذا ألقينا نظرة إلى التاريخ من هذه الزاوية رأينا كثيراً من فساد المجتمعات وتفسخها نتيجة لتكرر الأمر نفسه. والحديث الشريف الذي ســـنورده مهم جـــداً من حيث التحليل التاريخي لمثل هذه المجتمعات المتفسخة:

"إن أول ما دخل النقص على بني إســـرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك. ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض. ثُمَّ قَالَ: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۞ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾(المائدة:٧٨-٧٩)". ثم قال رسول الله ﷺ: "كلاّ والله لَتأْمرُنَّ بالمعروف ولَتنهَوُنَّ عن المنكر، وَلَتأْخذُنّ على يدَي

الظّالم، ولَتَأْطُرُنَّه على الحقّ أَطْرًا، ولَتَقْصُرُنَّه عَلَى الحقّ قصرًا".[1]

هنا عندما يذكر موقف قسم من بني إسرائيل الذين أجازوا المنكر، يجنّب المؤمنين من مغبة العاقبة نفسها، وينبّههم إلى عدم السقوط في الهاوية نفسها. ولاشك أن ذكر أمثال هذه الحوادث هو لبيان قسم من الحكم لكل زمان.

ويمكن أن نحلل الحادثة نفسها كالآتي: لقد شوهد منكر مرتكَب، فالذي نبّه مرتكِبَ المنكر هو في الحقيقة ينكر ذلك المنكر ويعارضه.. وقد نبّه المرتكِب في اليوم الأول، ولكنه لم يحافظ على موقفه هذا الذي يتطلب الدوام والثبات، ولم يتمكن من أن يحافظ على حيويته الروحية ومعنوياته، تجاه إصرار مرتكب المنكر على منكره، بل تقرّب إليه وجالسه وآكله وسامره مديماً صداقته معه. أي لم يستطع أن يحرك ساكناً بإظهار البغض في قلبه الذي ما بعده من خردل من الإيمان. ولما لم يبق تجاه ذلك المنكر ما يقاومه فقد تهيأ له وسط ملائم لينتشر في المجتمع. والله سبحانه جعل قلوبهم مختلفة حتى ألقى فيما بينهم منازعات داخلية ومزّقهم شر ممزق.

نعم، إن الله سبحانه وتعالى قد ألقى في قلب الكافرمن اليهود النفاق بجعله موافقاً لقلب صاحب المنكر. ولم يبق من صنوف التعذيب وأنواع الهوان والذل إلا سامهم بها عالم النصارى في حقبة من أحقاب التاريخ.. ومن قبل عاشوا حياة الأسرى طوال عصور في بابل. وقبل ذلك في فترة أخرى ذاقوا صنوف التنكيل والعذاب في عهد "شابور". وهكذا لم يجدوا الراحة والأمان في أي وقت كان. والسبب الوحيد الذي أرداهم إلى هذه الحالة هو تركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما بينهم. فانتعشت فتن التفرقة والاختلاف في قلوبهم، بل كانوا يتزعزعون من الأساس بين حين وآخر.

فالرسول ﷺ عندما يذكر هذه الحالة عن بني إسرائيل، يبين في الحقيقة

---

(١) أبو داود، الملاحم ١٧؛ ابن ماجه، الفتن ٢٠.

للأمة ما ينبغي القيام به مقدماً لئلا تجد العاقبة نفسها، ويعلّم كيفية الحيلولة دون التفكك والانهيار الاجتماعي.

واستطرادا أود أن أبين بعض النقاط التي ألحظ فيها فائدة وهي خارج الصدد: إن بني إسرائيل -كما هو لدى البعض- لم يحققوا الاتفاق والتوحد حتى في زمن سيدنا موسى عليه السلام. ولهذا كانوا يؤدَّبون دائماً. فلئن كان اليهود ظاهرين في الوقت الحاضر -ويعدّ هكذا- فلابد أنه نتيجة اتفاقهم الظاهر والناشئ من التمسك والاعتزاز بقيمهم التاريخية، حتى حقق لهم إنشاء دولة بشكل من الأشكال. فلو ابتعدوا عن قيمهم التاريخية وانشغلوا بالمنازعات الداخلية فلا مناص من الانهيار المحتم. نعم، إن بني إسرائيل اليوم واليهود يجنون ثمرات احترامهم لدين سماوي رغم أنه مفتوح من حيث بعض جوانبه للتصحيح والتجديد.

وإن العالم الإسلامي اليوم يعاني مما هو فيه من أمراض وعلل وفقر إلى حد البؤس، فلابد له من انتفاضة ورجوعٍ إلى ذاته، فروحه يكابد الذل وعقله يعاني من القصور والضعف، وأعضاؤه تضطرب من العلل والأسقام، فلئن لم يسعف عاجلاً ويضمد فوراً فلربما يتدهور أكثر فأكثر. وحينما يتداوى لابد أن يُعلم في أثناء التداوي والضماد أن رسالته تحيط بالكائنات برمتها. وحينها يحتضن الإسلام بإذن الله جميع أمم الأرض ناشراً المحبة والوئام والوفاق ونافثاً روحاً جديدة في العالم أجمع.

إن حوادث كثيرة تدل على أن شعار الإيمان هو أداء مهمة الدعوة والإرشاد. وسأفتتح هذا الفصل بإحدى تلك الحوادث. هذه الحادثة متعلقة بسيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه: قام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه، وقال: أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت

رسول الله ﷺ قَالَ: "والّذي نفسي بيده لَتَأْمُرُنَّ بالمعروف ولَتَنْهَوُنَّ عن المنكر أو لَيُوشِكَنَّ الله أَن يَبعث عليكم عِقابا منه ثمّ تدعونه فلا يُستجاب لكم".[1]
ولا تعني الآية الكريمة: لا تلتفتوا إلى الآخرين وانكفئوا على أنفسكم، بل المراد منها هو خلاف هذا المفهوم، وهو: أنكم إذا تباحثتم عن ضلال الآخرين وزلاّتهم لا تنسوا أنفسكم. أي أن في الآية حثاً على محاسبة الفرد لنفسه. و سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه هو أحد الذين أدركوا هذا المعنى على أفضل وجه فروى حديث رسول الله ﷺ دليلاً على فهمه الصائب للآية الكريمة. وهناك أحاديث كثيرة في هذا الباب نسجل هنا بعضها:

روى الترمذي في حديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: "والّذي نفسي بيده لتأمُرُنّ بالمعروفِ ولَتنهَوُنّ عن المنكر أو لَيوشكنّ الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يُستَجابُ لكم".[2] وروى الترمذي أيضاً حديثاً ضعيفاً هو الحديث السابق مع زيادة الآتي: "أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم".[3]

الشرار هم الحثالات والرعاع الذين لا يفهمون شيئاَ من الأعمال وشؤون الإدارة، ولا يعلمون شيئاً عن الدين والتدين، ولا يؤمنون بكتاب أو نبي، فيسخرون بالمقدسات المعروفة كلها ولا يقدروها حق قدرها. ولم يسلطهم الله على أمة من الأمم أو دولة من الدول إلاّ خابت وما أفلحت. فصنف من أصناف ذلك العقاب هو تسلط الأشرار على الأمة وتوليهم أمرها بالقوة والقهر، حتى غدا هذا العقاب عقابا عادلاً استحقه المسلمون، ذلك لأن الله سبحانه يمهل ولا يهمل قط، فيؤخر ويؤجل عقاب عدم الإيفاء بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن ما إن يحين موعد العقاب حتى يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.. وفي هذه الأثناء لو ملأ الأخيار والأبرار

---

(١) الترمذي، الفتن ٩؛ أحمد بن حنبل، المسند ٥/٣٨٨.

(٢) الترمذي، الفتن ٩؛ أحمد بن حنبل، المسند ٥/٣٨٨.

(٣) مجمع الزوائد للهيثمي، ٧/٢٦٦.

المساجد وتضرعوا إلى الله بدموع غزيرة ساخنة حتى تبتل سجاجيدهم بها وقاموا بهذا إلى الفجر فلا يُرفع عنهم هذا العقاب ولا يفلتون منه إلاّ باكتمال مدته. وهذا قانون إلهي لا يحيد ولا يتبدل في أي زمان.

وإذا بسطتم هذه العبارات كحقيقة في واقع الحياة وعلى جميع وحداتها رأيتم أن الأمر نفسه لا يختلف منذ القدم. فحالنا اليوم ما هو إلاّ بضعة أجزاء من هذه الدورة التاريخية المتكررة.

فالأدعية المرفوعة والتضرعات والزفرات الصاعدة والدموع المنهمرة في المناجاة في المساجد إن لم تجد القبول عند ذي العرش العظيم، فكيف إذن يمكننا أن نوضح الأمر إلاّ بأنه كفارة لذنب قد ارتكب، هذا الذنب هو الذي أكّدنا عليه كثيراً وهو إهمال القيام بمهمة مقدسة أو على الأقل عدم إيفاء حقها من الأداء.

نعم، لقد جعَلَنا هذا الذنبُ مقطوعي الصلة بربنا، إذ إن غاية وجودنا هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد خلقنا ربُّنا لأجل هذا الأمر.. ولاسيما الداعين إلى الحق، الذين نذروا أنفسهم في سبيل الحق، أولئك العشاق الذين لا يجعلون غاية سعيهم في الدنيا حتى الجنة، بل لو استطاعوا ووجدوا فرصة لبلّغوا هناك كذلك عن ربهم ودعوا إليه مفضلين هذا الأمر على نعم الجنة الأخرى. أولئك الذين يحملون أرواحاً سامية يفضلون دخول جهنم دون تردد إن أمكنهم للتبليغ حتى لزبانيّها. نعم فلئن أهمل هؤلاء غاية وجودهم، تلك المهمة الجسيمة.. فهذا يعني أن البلايا والمصائب قد استأذنت بالنـــزول على الدنيا. وليس بعد ذلك ما ينبغي أداؤه إلا الدعاء. والله أعلم بجدوى الدعاء. لأن الإصابة بهذه الحالة توجه تام نحو الفناء من زاوية.. ومثل هذا اليوم يوم عصيب.. حيث أسدلت فيه الرحمة نقاباً على وجهها ورفع الغضب لثامه عن وجهه. بمعنى أنه قد ابتلي ببلاء جارف لا رجعة له.

وإذا نظرتم إلى هذا الوضع المزري للعالم الإسلامي، رأيتم في هذه المرآة ما ذكرناه آنفاً الواحد تلو الآخر.

نعم، إذا نظرتم إلى التاريخ سترون كيف أن أمة عظيمة عريقة قد دفعت إلى هاوية سحيقة ولوليتم فراراً من المنظر الرهيب، فالأجيال أصبحوا مقطوعي الصلة بالله ورسوله وكتابه حتى ضلوا ضلالاً بعيداً، فقد نـــزع عنهم الروح والقلب وغدوا خلقاً عجيباً ليس لهم إلا المعدة والأمعاء، من دون رأس ولا رئيس.

هذا الجمع من الشعوب العريقة دون حظ ولا سعد يكابدون ويعانون تحت مخالب القوى السرية الأجنبية، ولا يجدون الخلاص والفكاك منها. ترى ماذا حل بالأدعية المرفوعة في الكعبة المشرفة؟ لِمَ لا تسعف الدموع التي تسكب في المساجد؟.. ذلك لأن كفارة ذلك الذنب ليست هذه، فلقد حلّت بنا هذه الطامة بتركنا وظيفة جليلة.. ولنأت البيوت من أبوابها. فالخروج من الهاوية السحيقة هو من موضع السقوط فيها. ولئن أدينا تلك المهمة على وجهها نجونا من هذه الحالة الرهيبة بإذن الله تعالى. ولهذا فالأدعية المرفوعة بالألسنة لا تجدي وحدها مع أن لها فوائد أخروية للداعي بلا شك، ولكن النجاة من الذل والهوان في الدنيا ليس إلاّ بأداء مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أفضل أداء.

وكما ذكرنا سابقاً يمكن أن يكون في الجماعة والمجتمع أشخاص أفاضل كثيرون. ويمكن أن يكونوا مقربين إلى الله، ولكن إن لم يكن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤدّى، ولم تؤسس مؤسسات لتوفي هذه المهمة حقها بصورة منظمة، فالله سبحانه وتعالى يجعل ذلك المجتمع عاليه سافله وهيهات أن يحظى ذلك المجتمع أو تلك الأمة بدوام البقاء.

نعم، إن الله سبحانه وتعالى لا يؤاخذ الجميع لذنب ارتكبته ثلة منهم؛ فلا يؤاخذ المجتمع بما يرتكبه المترفون الضالون، إلاّ أن القادرين على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إن لم ينطلقوا إلى الميدان فالعذاب يحيط بالجميع.

يروي أحمد بن حنبل حديثاً شريفاً حول هذه القضية: "إنّ الناس إذا رأَوا المنكرَ فلَم ينكروه أوشك أن يَعُمَّهم الله بعقابه".[1] والأمر نفسه تبينه الآية الكريمة الآتية: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(الأنفال:٢٥).

٨- الإرشاد والهلاك من خلال الحوادث التاريخية

يمكن النظر إلى أسباب هلاك أقوام في التاريخ من زاوية القيام بمهمة "الأمـــر بالمعروف والنهي عن المنكر". وحينما ننظر بهذا المنظار ونقيم الأحداث في ضوئها يصادفنا الآتي:

لضمان دوام المجتمعات المؤمنة دعامتان أساسيتان، وإن عدمهما هلاك صنفين من المجتمع وعاقبة هلاكهما أمر محتّم، ونصل إلى النتيجة نفسها سواء اطلعنا على الأمر من جانبه السلبي أو الإيجابي. إن الله لا يهلك قوماً يؤدون مهمة "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر". وكذا لا يهلك قوماً فيهم من يؤدي هذه المهمة المقدسة ولم يكونوا مغلوبين على أمرهم ولو كانوا قلة. ويمكن أن نعد هذا الجانب هو الإيجابي في النظر إلى المسألة. أما الجانب السلبي فهو إن لم يكن في قوم من يقوم بـــ"الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" فالله سبحانه يهلكهم. وكذا لو كان فيهم جم غفير يؤدون تلك المهمة القدسية ولكن غلبتهم ضلالة الآخرين وفجورهم حتى أقروا بمغلوبيتهم، فالله سبحانه وتعالى سبحانه يهلكهم أيضاً. وسنوضح الأمر بالآيات الكريمة في موضعه. وهنا لابد أن نقول بيقين: أن الذي يحول دون هلاك أمة من الأمم المؤمنة هو قيامهم بهذه المهمة الجليلة بما أسسوه من مؤسسات للإرشاد. نعم الأمة لا تنجو من النهاية المحتمة إلا بمثل هذه الجهود الجادة.

ونوردعددا من الأسئلة:

---

(١) أحمد بن حنبل، المسند ٢٥/١؛ أبو داود، الملاحم ١٧.

أ- سيدنا نوح عليه السلام

لقد دعا سيدنا نوح عليه السلام طوال عمره قومَه إلى الحق، ولكنه قوبل في كل مرة بالإنكار والردّ بل أوذي، فما آمن معه إلاّ قليل. وآل الأمر إلى حد اضطر معه سيدنا نوح عليه السلام إلى الاعتراف بأنه مغلوب تجاه الكفار، وإلى الدعاء والالتجاء إلى ربه الجليل طلباً للنصر. ولا شك أن دعاء مثل هذا النبي الكريم لا يردّ، وفعلا لم يردّ. والقرآن الكريم يفصل لنا هذه الحادثة: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۞ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ۞ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۞ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۞ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۞ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ۞ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ۞ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾(القمر:٩-١٦).

نعم إن سيدنا نوحاً عليه السلام قد حظي بالنبوة وأُلبس تاجها. فهو مأمور إلهي يأتمر بأمر الله وحده ويدعو الناس إلى العبودية لله. غير أن قومه كانوا يقولون إنه مجنون. والحال أن قولهم هذا دليل كمال الإيمان في النبي. لأن موازين الحياة الاجتماعية في ذلك القوم قد انقلبت رأساً على عقب وجميع القيم قد انعكست وانتكست. فالنبي ليس سوياً في مقاييسهم. وسيطلقون عليه أنه مجنون وقد أشاعوه فعلاً. ذلك لأن هذا النبي العظيم كان يسعى لإعمار ما هدموه وإصلاح ما أفسدوه في كيان المجتمع كله. ولا جرم أن يوصم من كان هكذا في هذا الوسط أنه مجنون. كما ورد في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أَكْثِروا ذكر الله حتّى يقولوا مجنون".[1] وعلى هذا رفع سيدنا نوح عليه السلام يديه ودعا ربه: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ فأغرق الله سبحانه قومه الضالين، وأهلكهم بالماء المنهمر من السماء والعيون المتفجرة من

---

(١) أحمد بن حنبل، المسند ٦٨/٣؛ الترمذي، الزهد ٣٩؛ صحيح ابن حبان، ٩٩/٣.

الأرض، وربما هي هذه حضارة الأطلنطس وربما هي حضارة أخرى فالنتيجة أن الكفار قد أُغرقوا سواء في الأطلنطي أو أي بحر آخر. والحادثة هي أن حضارة تغرق على الرغم من وجود نبي عظيم بينهم يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر كل آن وحين، لمّا أعلن أنه مغلوب. وتعقب الآية الكريمة غرق القوم ونجاة المؤمنين مع سيدنا نوح عليه السلام ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ أي هل من متّعظ؟ ونحن نقول أيضا: هل من متعظ من الآثار والخرائب المبثوثة على وجه الأرض؟ فالمئات منها علامات وأمارات على قوم مجرمين بل كل منها آية من الله ماثلة أمامنا فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ؟ وهَلْ..؟

بـــ- سيدنا صالح عليه السلام

لقد عصى قوم ســـيدنا صالح عليه السلام نبيهم، حينما أرسل الله إليهم ناقة معجزة وأمرهم بعدم مسها بسوء، ولكنهم بَغَوا فعقروا الناقة. وربما يُستغرب هذا التكليف الإلهي بعدم التعرض للناقة، ولكن إذا علمنا أن لله سبحانه لكل عصر نوعاً من التكاليف يزول الإستغراب؛ فكما يكلف سبحانه بأداء الصلاة وإيتاء الزكاة والصيام في شهر رمضان كذلك له تكاليف أخرى كعدم شرب الخمر وتجنب الربا والزنا. وكذلك أمر الله قوم صالح عليه السلام بعدم التعرض للناقة. إلاّ أنهم خسروا هذا الامتحان.

وسورة الشمس توضّح الحادثة كالآتي: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۞ إِذْ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ۞ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا ۞ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾(الشمس:١١-١٤).

فقوم ثمود لمّا عصوا نبيهم صالح عليه السلام ما كان منه إلاّ قوله: ﴿نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا﴾ ذلك لأن التعرض لها يعني مس زر البلاء والمصيبة. ولكن أشقاهم عقر الناقة فمس زر البلاء. وهذا الأمر -كما يبدو- سار في الأدوار جميعها، إذ يتقدم أحدهم القوم بالكفر والآخرون يتعقبونه أفواجاً. والذين تعرضوا

لديننا في فترات مختلفة قد مسوا زر البلاء والمصيبة، فأسقطوا بمسهم هذا أمةً رفيعة عظيمة. وقد بدأت نكبة هذه الأمة بالتعرض للقرآن الكريم. واستمر السيناريو مع تبدل الأدوار والأشخاص. أما قام أحدهم بتلويث الكعبة المشرفة وبئر زمزم في فترة من التاريخ؟ وربما تحدث أشياء أخرى أمثالها.

وهكذا تقدم أشقى القوم من ثمود وعقر الناقة دون أن يلقي السمع إلى نداء النبي الكريم: لا.. لا تعملوا.. لا تتعرضوا.. فالذين قاموا بهذا فعلاً والذين سكتوا عليهم قد هيأوا بأنفسهم عاقبتهم الوخيمة. فدمدم عليهم ربُّهم وأهلكهم جميعاً دون تمييز بينهم، ودفَنَهم في مقبرة الماضي. فكما أبادهم ببلاء ومصيبة جعلهم لا يُذكَرون إلاّ بسوء.

وقد لا تصيب المصيبة الأجساد، فمثلا المسخ قد لا يصيب الصورة بل السيرة. لـــذا يصعب فهم هذا البـــلاء، بلاء مسخ السيرة، أكثر من الذي يصيب الجسد فقط على الرغم من أنه أشد منه. وأغلب البلايا التي تنـــزل في الوقت الحاضر هي من هذا الصنف. وأعتقد أن أحد أسباب دوام الغفلة بشكل محير؛ هو أن الناس لا يميزون البلاء النازل عليهم.وتختم السورة بـــ: ﴿وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ فهو صاحب الملك يتصرف في ملكه ما يشاء.

نرى في ضوء هذه الآيات أن الله سبحانه يهلك ثمود عندما يكون نبيهم صالح ﷺ مغلوباً على أمره ولا يُسمع كلامه وإرشاده، فيهلكهم ويسوي بهم الأرض. ذلك أنه ســـبحانه وتعالى قـــد خلق الكون ولاسيما الإنسان لمعرفته والإيمان به. فهذه هي حكمة وجود الدنيا. وعندما يكون المؤمنون مغلوبين على أمرهم تتزعزع هذه الحكمة، فالله سبحانه يزعزع أهل ذلك العصر ويسوي بهم الأرض كما ذكرنا. وهذا قانون إلهي لم يتبدل ولن يتبدل في أي زمان كان.

جـــ- سيدنا لوط عليه السلام

وكان سيدنا لوط عليه السلام معاصراً لسيدنا إبراهيم. ظهر في قومه فساد لم يسبق له مثيل في البشرية فارتكبوا إثم اللواطة. وهذا النبي العظيم يجادل قومه في هذا الإثم الشنيع. وإذا بضيوف يحلّون في بيته على صورة شبان مُرْد. وإذا بالقوم الضالين يهرعون إلى بيت النبي الكريم ويُعلمونه ما يريدون، وسيدنا لوط كأنه يتوسل بقوله: ﴿وَلاَ تُخْزُونِي فِي ضَيْفِي﴾ فأشار لهم إلى بناته ساعيا جرّهم إلى وسط شرعي. ولكن الجهود كلها ذهبت أدراج الرياح. إذ: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾. وسيدنا لوط قال متحسراً: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾. وفي الحقيقة كان له ركن شديد يأوي إليه، إلاّ أن الموقف العصيب دفعه ليقول هذا الكلام. وعندها يكشف الضيوف عن كونهم ملائكة لا يمكن أن يقترب القوم الضالون منهم.

نورد أجزاء من هذه القصة الطويلة في القرآن الكريم: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۞ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَاقَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَلا تُخْزُونِي فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ۞ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۞ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَـــدِيد ۞ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنْ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمْ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۞ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَـــافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ۞ مُسَوَّمَةً عِنْـــدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنْ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾(هود:٧٧-٨٣)

وهكذا أُهلكت سدوم (مدينة قوم لوط عليه السلام) فجعل الله عاليها سافلها

ودُفنوا في عمق بحيرة لوط. ولاشك أن هذا العقاب لا يخص قوم لوط وحدهم بل إن ظالمي كل دور وفترة معرّضون إلى هذا العقاب.

وأبرز مثال لهذا (بومبي في ايطاليا). إذ كان هناك نصارى يدعون إلى الحق والحقيقة ولكنهم كانوا مغلوبين أيضاً، بينما كان القوم يتمرغون في الفساد والرذائل، فحول الله سبحانه ذلك المكان إلى مقبرة باللهب المتأجج من بركان (فيزوف)، علماً انهم كانوا قد أصبحوا في عداد الأموات بأرواحهم منذ مدة مديدة. ومع أن الذين هربوا إلى شواطئ البحر لينجوا، فقد تعقبتهم ركامات عظيمة من الرماد ودفنتهم في مواضعهم.

د- وآخرون

إن القدرة الأزلية التي أخذت قوم لوط غير المؤمنين أخذ عزيز مقتدر، قد أجرت حكمها بقانون عام في الهلاك على أقوام آخرين، وعلى النمط نفسه.. وهذا واقع على مرّ الزمان في التاريخ.

فمثلاً: الحضارة الباهرة التي دامت ثمانية قرون في الأندلس، عندما اعترتها تغييرات داخلية عاد الذين دخلوا البلاد أعزاء أذلاء بسيف "فرديناند". فكان المسلمون يبكون كمداً على هذه العودة المشينة، ولكن لات حين مندم.. إذ كانوا لا يبكون على ما يستحق البكاء عليه مما هدموه بأيديهم من عوامل وجودهم، بل كانوا يبكون على ما تركوه من جنات وعيون وحمامات طليطلة. نعم، كانوا يبكون على جنائزهم.

هذه الروح الرذيلة المنهارة هي التي دمّرت العباسيين، وكذلك الأمويون انهاروا وانقرضوا باللوثة نفسها، والسلاجقة تجرعوا الغصص من عاقبه العيش الفاسد، وما عاقبة العثمانيين إلاّ نتيجة هوان الروح وانهيارها؛ فعندما تدخلون قصر "دولمة باغجة" تجدون أنفسكم أمام لوحات حزينة للانهيار في حيطانه، ذلك لأنكم تسمعون أن ستة عشر طناً من الذهب صرفت لتذهيب

زخارف تلك الحيطان وريازتها، فيأخذكم الهلع والرعشة.

فهذا قانون إلهي لا يتبدل ولا يتحول. ويمكنكم أن تقيموا على هذه القاعدة سقوط روما والساسانيين وكذا حضارة مصر، وكل ما قامت وانهارت من الحضارات على طول التاريخ. فالله سبحانه يهلك البلدة التي لا يُذكر فيها اسمه ولا يعرّف به. إذيعني هذا أنه قد انتفت حكمة وجود تلك البلدة. ولعل سبب قيام الساعة هو هذا، أي لا تبقى لوجود الدنيا حكمة، حيث المؤمنون على أهون حال والإلحاد مستشر، وعندها يجعل الله سبحانه الدنيا عاليها سافلها.

هذا، وإن غدا القرآن كتاباً لا يُفهم ولا تُدرك مراميه، فظلال البلايا والمصائب تطل علينا إذن. ولئن لم ينـــزل الهلاك بعدُ علينا، فإنه من سعة رحمته تعالى وعظيم حلمه، كما كان سيدنا أبو بكر الصديق يقول حيناً بعد حين "اللهم ما أحلمك!" نعم، إنه حليم يمهل المذنب ولا يهمله، ذلك "إنّ الله لَيُملِي للظّالِم حتّى إذا أخذَه لَم يُفلِتْه".[1]

تأملوا، كيف أن الله سبحانه وتعالى يعرّف نفسه لنا بصفتي "الرحمن الرحيم".. فالواجب إذاً علينا أن نؤمن بـــه ونقابل تلك الصفتين الجليلتين بالعبودية والإخلاص، دعـــاة إلى الله تعالى مرشدين القلوب إليه بالإيمان والأمان.

وفي الحقيقة أن المؤمن هو إنسان الأمن والأمان، فلن يصدر منه ضرر، والمسلمون هـــم ضمان الأمان للإنسانية، وصمام أمن وأمان للحياة الاجتماعية، فكما أن المؤمن هذا حاله مع الإنسانية قاطبة فهو أشد أمناً للمؤمنين وأعمق أماناً لهم. ولهذا فهو يبلّغ ما انتقل إليه من جمال ما أمره الله به ورسوله ﷺ، وفي الوقت نفسه يحاول إعمار مجتمعه ويسعى بجد للحيولة دون أن يمسهم أي ضرر. والذين يأبون القيام بهذه الوظيفة النبيلة يعني أنهم

---

(١) البخاري، التفسير (١١) ٥؛ مسلم، البر ٦١.

يردّون ما وهب الله لهم من صفة "المؤمن" الرفيعة!

نعم، للمؤمن وظائف عدة ابتداءً من أصغر دائرة، وهي دائرة القلب، إلى أوسع دائرة، كل حسب موضعه، فالبيت، والقرية، والبلدة، والأمة، والإنسانية، كلها دوائر لوظائف متداخلة، فإذا تيسّر له البلوغ إلى أقاصي العالم وآفاقها لإبلاغ ما لديه من كنوز النور بلّغها. وحتى لو لم يفهم مخاطبوه ولم يدركوا كنه ما يبلّغه لهم فإن حرمانهم الناجم من إهمال إرشادهم نقص عظيم وعاقبته وخيمة.

وكذا إن لم يُصدّ الكفرُ ويُمنع الإلحاد، فلا يُهلك الكفار والملحدون وحدهم بل المؤمن أيضاً سينال حظه من هذا الخراب والدمار؛ إذ كان عليه أن يؤدى وظيفة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ليحول دون الوقوع بالهلاك الفجيع الشامل على أقل تقدير.

يوضح الرسول الكريم ﷺ هذا الأمر بقوله الشريف: "مَثَلُ القائم على حُدود الله والواقِعِ فيها كمثَلِ قَومٍ استهَموا على سَفينة فأصابَ بَعضُهم أعلاها وبَعضُهم أسفلها فكان الذِين في أسفلها إذا استقَوا من الماء مَرّوا على مَن فَوقَهم فقالوا لو أنّا خَرَقنا في نصيبنا خَرقا ولم نُؤذ مَن فَوقَنا فإنْ يَترُكوهم وما أرادوا هَلَكوا جميعا وإنْ أخذوا على أيديهم نجَوا ونَجَوا جميعا".(١)

فهذا الحديث الشريف هو تمثيل، بالقياس التمثيلي، كما يطلق عليه علم المنطق. إذ يبين الرسول ﷺ مسألة اجتماعية خطرة ويعبّر عنها بمستوى أفهامنا في صورة تمثيل. فالراغبون في خرق السفينة ربما يبدون لأول وهلة أنهم أبرياء، ولكن عاقبته الوخيمة لا تسمح أن يعدّوا أبرياء قط.

فانطلاقاً من مفهوم هذا الحديث الشريف، يمكن القول: إن الدنيا هي كسفينة نوح عليه السلام، وإن جميع بني البشر دون استثناء ولا اختيار قد أُركِبوا هذه السفينة، لأنهم مضطرون للعيش في الدنيا، وإن سفينة الدنيا التي نعيش

(١) البخاري، الشركة ٦؛ أحمد بن حنبل، المسند ٤/٢٦٨، ٢٦٩.

فيها ونسيح معاً هي وحيدة ليس لنا خيار غيرها، ونظام الحياة في هذه السفينة يخص مَن أركبنا فيها. لذا لا يحقّ لأحد كائناً من كان أن يغيّر هذا النظام أو يخلّ به. والحفاظ على السفينة والحيلولة دون غرقنا جميعاً وظيفة كل من فيها دون أستثناء، والحياة الخاصة لا أهمية لها.. أي إن هذه الوظيفة العظيمة قد أُلقيت على كاهلنا جميعاً حالَما ركبنا في السفينة. فلا يمكن أن نسمح لإعدامنا وإعدام ملايين الناس الأبرياء بحجة أننا نهتم بخاصة أمورنا ولا نتدخل بشؤون الآخرين. أي من الضروري أن نكافح كل من يريد خرق السفينة أوالإخلال بالحياة الاجتماعية. ولهذا ففي الوقت الذي نحول بين المجتمع وبين أضرار المنكرات، حافظين الإنسانية من شرورها ونبلّغ في الوقت نفسه الخصال الحميدة والفضائل السامية أمراً بالمعروف. فالمجتمع الذي تنشئه الفطر السليمة يسلم من السيئات بأنواعها.

هذا جانب من المسألة، والجانب الآخر هو تحقيق الفضائل وإنمائها ونشر الحسنات في المجتمع. هذه هي المهمة التي تعهدناها للمجتمع، وهي مقدسة وعسيرة أيضاً.

إن الذي ذاق حلاوة الإيمان، من مقتضى المروءة، أن يُشرك الآخرين فيه. والمؤمن إنسان المروءة من قمة رأسه إلى أخمص قدمه، فهو يفكر دوماً بمصير الآخرين. فحين يرتع وسط ربيع زاه، يسعى أن يعيش غيره معه ويتذوق ما يتذوقه. أليس المؤمن يدع حبه للحياة ليديم حياة غيره؟ هل يمكن أن يقف من نفذ نور الإيمان في قلبه دون حراك؟ هذه الاستحالة تدفع المؤمن إلى السير في الأسواق، وفي البيوتات باحثاً عن القلوب المتعارفة. وهذا ضمان لوجوده أيضاً -من جانب- إذ الحفاظ على إيمانه في قلبه حتى الموت، وضمان دخوله القبر بهذا الإيمان إنما هو بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. فمن كان محروما منهما فلا ضمان له للإيمان. لذا يتحتم على المؤمن أن يؤدى هذه الوظيفة، إنقاذاً لنفسه، في الأقل.

٩- التبليغ والإرشاد مقياساً لنصرة الدين

الدين الإسلامي محفوظ من قبل الرب الجليل وسيحافظ على طراوته ونضارته إلى يـــوم الدين. فقد وعد الله ســـبحانه بحفظ دينه. ولكن هذه المحافظة والدفـــاع عن الدين وصونه تتوقف على همة المؤمنين بـــه ومدى تمسكهم وولائهم لهذا الدين، أي إن الله قد جعل نصرة المسلمين لدينهم شرطاً عادياً لحمايته وحفظه، أي ســـيظل الدين محفوظاً ما دامت المشيئة الإلهية وتحقق الشرط العادي. هكذا يفهم الوعد الإلهي، لا غير.

أجل، على المؤمنين أن يكونوا حراساً للدين، فلو لم يكونوا ذابّين عن حياضه وناشرين له في الآفاق يُحرمون من فيض دينهم وبركته، وهذا لا يعني قطعاً أن الله تخلى عن حفظ دينه، بل إن المسلمين لم يرجعوا إلى الله ســـبحانه في طلب حفظ دينه، أي لم يدخلوا في الحفظ بإرادتهم التي تعدّ شرطاً عادياً من حيث تعلق الإرادة الإلهية. ولهذا شتتهم الله سبحانه وأذلّهم، أو حرمهم من بركات الدين ويُمنه. وهكذا يُفهم سبب الانقراض الحالي في الحياة الدينية؛ إذ بمدى تمسك المسلمين بالدين ونصرتهم له يُحافظ عليه، وبمقدار ما يبذلونه من جهد في نشره في الآفاق يتعالى وتتفتح أزاهيره اليانعة.

ولقد نصر الرسول ﷺ هذا الدين وذبّ عن حياضه، فحافظ الله سبحانه عليه. ومن بعد رسول الله ﷺ تولى المسلمون الدفاع عنه والحفاظ عليه، طوال العصور، فحافظ الله سبحانه أيضاً دينه. ولكن ما أن تخلّى المسلمون عن دينهم وأرخوا أيديهم عنه حتى أذلّهم الله.

ولقد تلقى الرسول الكريم ﷺ هذه النصرة للدين والحفاظ عليه أعظم قضية من القضايا، وسعى حثيثاً لإيقاظ الأمة، حيث السعادة الأبدية في العالم الآخر متوقفة على مدى معايشة المسلمين لدينهم، والشيء الأساس الذي ينفع في المحشر والصراط والجنة ورؤية جمال الله هو خدمة الدين والعمل الصالح والقلب السليم.

وهكذا دأب الرسول الكريم ﷺ لأجل أن يملّك المسلمين مثل هذا الجواز "جواز مرور". لذا كانت الدعوة إلى الله والإرشاد إلى الدين أولى مسائله ﷺ.

وقد تنبه هذا الشعور للحفاظ على الدين في الصحب الكرام، فهم أيضاً نصروا الدين ودافعوا عنه بالغالي والنفيس واعتصموا به... ولم تذهب أعمالهم سدىً، حيث تحقق حفظ الله لدينه. نعم، كانوا رضوان الله تعالى عليهم يتسابقون في إبلاغ الدين إلى أقطار العالم، لما تعلّموه من الرسول الكريم ﷺ، وربما ما كان يتجاوز حفظهم للقرآن إلاّ بضع آيات وكذا من الحديث، إلاّ أنهم عاشوا بما علموا وسعوا في نشر الدين في أرجاء العالم.

فهذا مصعب بن عمير رضي الله عنه، بعثه الرسول الكريم ﷺ إلى المدينة المنورة عقب قدوم ثلة منهم إليه طالبين مَن يعلّمهم دينهم، أرسله لتحقيق هذه الغاية وحدها، فذهب وحده دون أن يستصحب معه أحداً، ونـــزل ضيفاً عند أحد المسلمين هناك. وكان كبار أهل المدينة يزورونه يومياً، فيعلّمهم دينهم، فيوماً أسيد بن حضير رضي الله عنه، ويوماً آخر سعد بن عبادة رضي الله عنه ويوماً آخر سعد بن معاذ رضي الله عنه. وهكذا.. وكانوا ينصتون إليه جيداً.[1]

وكان مصعب رضي الله عنه يتعامل بلين ورفق مع من يأتيه حانقاً ممتعضاً، فمن كان يأتيه حاملاً السلاح يرجع حاملاً الإيمان في قلبه –وهم الذين سيكونون من صحابة رسوله ﷺ في المستقبل– حتى كان مِن رفقِ حديثه معهم لا يتمكن أخشنُ إنسان أن يصمد طويلاً أمام ذلك اللين وتلك الرقة واللطف. فكان يقول مثلاً: أوَ تقعد فتسمع، فإن رضيت أمراً ورغبتَ فيه قبلتَه، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره، فوالله لا أقابلك بشيء حتى لو قطعت عنقي.. وهكذا زالت العقبات من أمام هذا الداعية العظيم الذي يستهين بالموت وليس له همّ إلاّ إبلاغ الحق إلى الناس. فتوسعت بفضل الله حلقات الهالة من حوله، ومضت حياته رضي الله عنه هكذا في دعوة الناس إلى الله حتى يوم بدر، وكذا الصحابة الكرام رضي الله عنهم

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم، ١/١٠٧؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ١/٢٢٠.

قد أمضوا حياهم إلى تلك الفترة في التبليغ والإرشاد. ولكن في "أُحد" تقلدوا جميعاً السيوف حفاظاً على الدين، إذ كما أن التبليغ والإرشاد واجب، فالحفاظ على الدين واجب آخر.. ومصعب بن عمير ﷺ أيضاً معهم في هذا الحفظ. فحارب ببسالة نادرة إلى المساء حتى غبطته الملائكة على بسالته. ولكن وعلى حين غرة وقع على الأرض على وجهه بضربة قاضية من سيف كافر، وإذا بمَلَك يتخذ صورته ويديم جولات مصعب وصولاته، وفي المساء خاطبه الرسول الكريم ﷺ: يا مصعب! فأجابه المَلَك: لستُ مصعباً يا رسول الله.. وعندها علموا أن مصعباً قد استُشهد منذ مدة.

وبعد انتهاء المعركة أتى الرسول ﷺ مع جمع من الصحابة الكرام إلى جثمان مصعب الشهيد، ورأوا أن يديه قد قطعتا من المنكب، وضربة السيف على عنقه قوية إلى درجة فصلت الرأس عن العنق إلاّ بعض الألياف تربط ذلك الرأس المبارك بكتفه،[1] وقد أخفى وجهه في تراب الأرض المضمخ بدمائه الزكية.. لكأنما خاف أن يبصر وهو جثة هامدة رسول الله يصيبه السوء، فأخفى وجهه حتى لا يرى هذا الذي يُحاذره ويخشاه!. أو كأنه خجلان إذ سقط شهيداً قبل أن يطمئن على نجاة رسول الله، وقبل أن يؤدي إلى نهاية واجب حمايته والدفاع عنه.[2]

لم يكن مصعب بن عمير هو الوحيد في هذه الشـــجاعة والنبل بل الصحابـــة الكرام ﷺ جميعاً كانوا يحملون تلك الروح وذلك الشعور.. وهكذا حفظ سبحانه وتعالى دينه. ودام هذا الحفظ إلى أن حدث بعض التصدعات وفي فترات، وحيناً بعد حين. وفي فترات الهزات هذه قطع سبحانه شيئاً من يُمن الدين وبركته عن المسلمين الذين لم يدافعوا عنه ولم ينصروه، حيث إن الدين يصبح ديننا متى ما نصرناه ودافعنا عنه، وإلاّ لو

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢/٤٢، ٣/١٢٠، ١٢١.

(٢) رجال حول الرسول لخالد محمد خالد، ص ٥٢.

كففنا يدنا عنه وتراخينا في الذب عن حياضه يحرمنا الرب الجليل من فيوضاته النورانية وارداته الروحية.

فعندما كانت القدس تحت الاحتلال الصليبي ما ابتسم صلاح الدين الأيوبي ولا ضحك، بل بكى بكاءً مراً لسنين عدة، حتى إن خطيب يوم الجمعة ذكر ضرورة الابتسامة والضحك. وبعد انقضاء الصلاة أخذ صلاح الدين بيد الخطيب وقال له مقولته التي تستحق أن تنقش في حافظة التاريخ: "لعلك تعنيني. ولكن قل لي بربك كيف أبتسم والمسجد الذي عرج منه المصطفى ﷺ إلى ربه الكريم تحت سيطرة الأعداء". فهذا الرجل العظيم ما كان له إلاّ خيمة واحدة ليسكنها لحين استرداد المسجد الأقصى وكان يقول: كيف أمتلك بيتاً وبيت الله أسير بيد الأعداء.

هكذا صانوا الدين فغدا الدين دينهم... والآن جاء دورنا، فإذا نصرنا ديننا وتوليناه، ونشرناه، حفظ الله سبحانه لنا ديننا وهذا من أفرض الفرائض على كل أحد دون استثناء.

نعم، إن المؤمن عليه أن يعرف أولاً دينه ثم يحيا به حياته كلها، ثم يفهّم غيره بما يحيا به لينوّر حياتهم أيضاً بهذا النور. فكل مؤمن مكلف بهذه الوظيفة -كما نعتقد- وفق مبادئ الإسلام.

سأبين بعض المسائل التي أراها ضرورية، حيث لا تقدّر حق قدرها، بل هي من الأسباب الرئيسية التي أدت بنا إلى هذه الحالة المحزنة في الوقت الحاضر.

أولاها: إهمال الدين تدريجياً.

ثانيتها: حصر الخدمات الدينية على فئة معينة، وترك زمام الأمر موقوفاً على تلك الزمرة. هذا السبب الثاني خطر علينا كالسبب الأول.

ليُعلم جيداً أن الدين لا يُحصر على فئة قطعاً. فلا يمكن في أي وقت من الأوقات أن يكون الدين ملك فئة معينة، حيث هو ملك جميع من ينتسب إليه، إذ إن كل فرد ذو علاقة ورابطة مع ربه. فلا يمكن إزالة هذه الرابطة بين العبد

وربه كما لا يمكن الحيلولة دون نصرهم لدينهم ودفاعهم الشخصي عنه. إن حصر الخدمات الدينية على فئة خاصة غفلة عظيمة وخطأ جسيم لا يُغتفر. ولن ننجو مما نحن فيه من وضع أليم إلاّ بالخلاص من هذه الغفلة، وعندها يجد الفرج إلينا طريقه. وبخلاف هذا نكون مانعي ظهور الدين.

ولا شك أن حصر الخدمات الدينية على مؤسسة معينة لعبة من لعب الأجانب، ذلك لأن مثل هذا العمل لا علاقة له مع مفهوم الجهاد والتبليغ في الإسلام؛ إذ الإسلام كدين لا يمكن حصره بين جدران المسجد، فقد بعثه الله سبحانه إعماراً للدنيا والآخرة، فهو كلٌ لا يقبل التجزئة.

ففي اليوم الذي نقيّم الدين ككل وتألفه أرواحنا، نتحرر من الذل وننجو من الهوان، حيث ستتوضح المسائل الفردية والاجتماعية والإنسانية بشعاع الوحي المنير. وعندئذٍ ينجو الإنسان من القلق والاضطراب في الظلمات.

ولكي نقيّم مثل هذه الحالة، علينا التوجه التام الكلي –بأرواحنا وكياننا– إلى الدين القويم المؤسس على ما بيّنه مَن لا ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى، ذلكم الرسول الكريم ﷺ.

وأذكّر بالآتي مرة أخرى: إن لم نغيّر ما في أنفسنا لا يغيّرنا الله تعالى، وهذه القاعدة سارية سلبا وإيجابا؛ فالنتيجة منوطة بمدى استقامة الفرد فكما أن انحرافه يُذهب بالحياة الدينية،كذلك استقامته تستردها مرة أخرى، لذا لا بد من تنشئة الناس فرداً فرداً ليكونوا ناصرين للدين مدافعين عنه.

هذا، ولابد أن لا ننسى أن الأفراد الأصحاء ينشئون أسراً صحيحة سليمة، وهذه تولد مجتمعاً سليماً معافى. فالحجر الأساس إذن في المجتمع هو الفرد ثم الأسرة وهكذا.. فلا مجتمع صالح من دون صلاح أفراده أولاً، والمجتمع السليم هو الذي يثبت وجوده بالاستقامة على ما أمره الله ورسوله ﷺ، ولأجل ديمومة هذا المجتمع على هذا المنوال لا بد أن يكون قلب كل من فيه عامراً بالمعروف ومتطهراً من المنكرات. ومن يقوم بهذا غير الأفراد أنفسهم؟

أما أصول التبليغ وفنه (تقنيته) فقد بيّنها الله سبحانه وبيّنها الرسول الكريم ﷺ. حتى إن الإرشاد والدعوة التي لا تسير وفق هذا المنهج لا تبلغ النتيجة المرجوة. ذلك لأن الله لا يرضى بسلوكٍ غير سلوك صراطه السوي، فلا جدوى من أمرٍ لا يرضى عنه الله حتى لو رضيت عنه الدنيا بأسرها. ولا شك أن رحمة الله قريبة ممن كان مع الله سبحانه. ونحن لا يعدّل حظنا المنكود إلاّ أولئك المباركون الناصرون للدين ممن لهم النصيب الوافر، من الرحمة الإلهية فيستنشقون تلك النفحات وينظمون حياقم وفقها. وأكرر مرة أخرى: أنه بقدر نصرتنا الدين، يكون الدين ديننا.

الفصل الثاني

أصول وقواعد في التبليغ

١. علاقة العلم والإرشاد

٢. الحقائق الإسلامية ومعرفة الفترة المعاصرة

٣. علاقة القرآن بالقلب

٤. استعمال الوسائل المشروعة

٥. الأجرة وطلبها

٦. معرفة المخاطب وأسلوب التفاهم

٧. نظرة إلى علاقة الإيمان –التبليغ– العمل

٨. الصفاء والإخلاص

٩. موازين في العلاقات برجال الدولة والأغنياء

١٠.المثابرة

١١.اقتضاء البصيرة وعدم مصادمة قوانين الفطرة

لكل علم تعريفه الخاص به، ولكل عمل فنّه وتقنيته الخاصة به، ومن دون هذا التعريف وهذه التقنية لا يمكن الخوض في أي فرع من فروع العلم ولا أية جهة من جهات العمل. ولما كان التبليغ أقدس عمل للمسلم فلا شك أن له أصولاً وفنوناً خاصة به. وأي تبليغ لا يراعى فيه هذه الأمور لا يجدي نفعاً سوى بذل جهد لا طائل من ورائه. أما ما يحرز من نجاح وقتي فهو إخفاق ضمني، لأنه بلا غد.

سنورد بعض فنون التبليغ وتقنياته على صورة مواد، ولكن نسبق ذلك بالقول: بأن أصول التبليغ والإرشاد وفنونه لا تنحصر على ما نذكره، علماً أن ما نحاول أن نقدمه من أصول وقواعد قد اتخذ فيه جانب التطبيق العملي أساساً وأعدّ في ضوء الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، ممَّن خبرها في الواقع العملي، فجالس رجالات الإرشاد والتبليغ منذ عهد الصبا، حتى تقلدهِ وظيفة الدعوة والتبليغ رسميا.

هذا وقد لا تتوافق بعض تعابيرنا مع عالم الحقيقة والواقع، وتلك هي من نقصنا وقصورنا.

ودستورنا في هذا الصدد: أن الأفكار التي تسري في مفاصل الحياة المعيشة هي التي تستحق الحياة.

١- العلاقة بين العلم والإرشاد

لا بد أن يكون كل من يتولى مهمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مجهزاً بالعلم. ذلك لأن العلم والتبليغ وجهان لحقيقة واحدة. فعلى الداعية أن ينشئ نفسه جيداً بحقائق دينه الذي يريد تبليغه للآخرين، وإلاّ يكون سبباً

لإخفاقات كثيرة، بل قد ينفّر مخاطبيه عنه وعن دينه. وما هذه النتيجة إلاّ تجاوز على الحقوق الدينية والدنيوية له ولغيره.

سنذكر في هذا الفصل نظرتنا للعلم عامة، ثم نسعى لبسط علاقة الإرشاد والعلم والعمل.

العلم في عالم الوجود كله محراب سيدنا آدم، وهو يتجسم ليصبح سفينة سيدنا نوح، ويصبح سيدنا نوح في السفينة، وهو في سيدنا إبراهيم وديان جارية بمسيل الوحي الإلهي، وهو يتجسم ليصبح الطور في سيدنا موسى، أو يصبح سيدنا موسى في الطور.. لذا فما يُرى في الكائنات قالب واللب هو العلم.

ما العلم؟ العلم هو معرفة الإنسان لربه بعد معرفة نفسه، أو رؤية الإنسان لربه بجعل نفسه مرصاداً لمشاهدة "الصفات" و"الأسماء" الإلهية، بما يكتشفه في مشاعره، وسعيه للوصول إلى معرفة ربه والعلم به. فهذا هو العلم الحقيقي، كما عبّر عنه الشاعر يونس أمرة ضارباً في صميم العلم:

العلم هو أن تعرف،

أن تعرف نفسك،

فإن لم تعرفها،

فالعفاء على ما قرأت...

أما قولهم: "من عَرف نفسَه فقد عرف ربَّه" فهو كلام بليغ ذو مغزى دقيق يكاد يكون حديثاً نبوياً، وهو ليس بحديث شريف بل دستور رصين قيّم من حيث المغزى والمعنى، والقرآن الكريم يسند هذا الدستور بالآية الكريمة ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللّٰهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾(الحشر:١٩).

نعم إذا نسيتم الله، يُنسيكم أنفسكم وذاتكم. وإذا ما نسيتم أنفسكم تبتعدون عن الله. وعنده تغفلون وتصبحون غرباء عن أنفسكم فتنسونها. وهكذا تتكون حلقة مفرغة تولد إحداها الأخرى وتغذيها، ومن يدخل في هذه الدائرة الفاســـدة من الصعوبة بمكان أن ينجو، بل ينقلب على عقبيه،

ويذهب هدرا. ويمكن أن نفهم من الآيـــة الكريمة معنى آخر وهـــو:

احذروا أن تنسوا الله، فينسيكم أنفسَكم، وعنده تنشغلون بالخارج فحسب، فتتحول أنظاركم إلى الآفاق وحدها، فلا توجهون مجال تفكركم ومحاسبتكم إلى أنفسكم. فتجد من يتكلم عن الإسلام، وعن القرآن ولكنه ينتظر تطبيق أحكامه من الآخرين، وربما يهمل أقرب الأقربين إليه أحكام الإسلام ويحقرها جهاراً وفي بيته، وهو لا يراهم حيث كثف نظره إلى الآخرين منتظراً منهم ما يريد. وكم هو حزين أن يطلق الإنسان الهتافات المطالبة بالإسلام والجولات في الأزقة والشوارع، متتبعاً خطوات الشياطين، ناسياً نفسه من دون أن يأخذها بالمحاسبة الدقيقة. ولا يتحرى يومياً مرات ومرات مدى علاقته مع ربه الجليل.

نعم، نحن كمن يتسلق ذرى الجبال، علينا أن نحسب حساباً دقيقاً أين سنضع أقدامنا وأين سنضرب الكلاّب (الخطّاف) ونربط الحبل، لأن أي خطأ نرتكبه -ولو كان تافهاً- يودى بحياتنا.

نعم! أليس عجباً أن ينسى الإنسان نفسه في المعبد والمسجد بل حتى في الكعبة والروضة المطهرة.. وأعترف متألماً أن عدد هؤلاء الذين ينسون أنفسهم في هذه الأماكن لا يحصى. فيا رب ما أعظم هذه الخسارة!

للعلم غاية، وهي أنه ينتج المعرفة الإلهية والمحبة الإلهية. إذ العلم الذي لا يضرم محبة الله في قلب الإنسان ولا يلهب ذوقه الروحاني -وهو ضمان نعيم الجنة- لا يعدّ علماً بلغ غايته. لأن العلم الذي بلغ الغاية وحققها هو منبع حياة لطائفنا، والشريان الدافق لمشاعرنا، وبدونه موت معنوي. فالعلم الذي يثني عليه ويحث عليه القرآن الكريم والحديث الشريف هو هذا العلم وليس غيره. بل هذا هو العلم.

وقد خضنا هذا الموضوع مع أنه ليس موضوعنا الأساس، إلاّ أنني أحب أن أتناول بعضاً من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التي تخص العلم:

أ- ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(الزمر:١٤٦)

أي هـــل العلم الذي يأخذ بيد الإنسان إلى الله تعالى ســـواء مع الذي يسجن الإنسان في المختبر؟ وهل يستوي العلم الذي يوصل من يراقب النجوم أمام التلسكوب ناوياً أن يصعد بمدارج من نور إلى الله والعلم الذي يسمّر نظره في النجوم وأنظمتها؟. وبتعبير أوضح هل يستوي هذان اللذان يملك كل منهما زاوية نظر مختلفة عن الأخرى؟

إن مَن يجول في بطون الكتب كالفأر متتبعاً خزينة الأسرار يصرف جلّ عمره في كتابة الحواشي والشروح من دون أن يقرأ سطراً واحداً من علم الحقيقة، هذا الذي يطلق عليه اسم العالم، هو بالتعبير القرآني كمن يحمل أسفاراً. أين هذا من الإنسان الكامل الذي يقرأ سطراً وإذا به يحلّق في السماوات ويعيش في كل آن في نشوة وانتشاء روحي. أظن أن الفرق بينهما كالفرق بين "لا شيء" و"كل شيء". فالعلم الموصل إلى الله "كل شيء" والذي يتركك في الطريق "لا شيء".

بـــ- ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(فاطر:٢٨).

واضح جداً الإشادة بالعلم والثناء على العلماء في هذه الآية الكريمة. ولكن الثناء يكون في موصوفه، أي في الإنسان الواقف في خشوع بعلمه تجاه ربه. ولكل علم ثقله وأهميته. والرسول ﷺ يقول: "إنّ العلماءَ ورَثةُ الأنبياء".[١]

نعم! لئن كانت هناك زمرة من البشر يرون الحقيقة على نصاعتها دون غبش، فهم الأنبياء عليهم السلام. أما نحن فنستطيع أن ننفذ إلى الحقيقة بوساطة النور الذي يشعّه كلامهم. حيث لا يمكن لإنسان كائناً مَن كان أن يجد الحقيقة المطلقة من دون أن يدخل تحت رعاية نبيّ من الأنبياء. وربما يكشف عن بعض الحقائق القريبة من الصواب بجهوده وسعيه، أما الصواب

---

(١) البخاري، العلم ١٠؛ الترمذي، العلم ١٩.

المطلق فلا يمكنه الكشف عنه إلاّ بدلالة الأنبياء عليهم السلام. ولهذا فالأنبياء هم الوارثون الحقيقيون لله، ومن بعدهم العباد الصالحون. والقرآن الكريم يشير إلى عباد الله الصالحين الذين يرثون الأرض. و تلك العلاقة بين الحديث المذكور وهذه الآية جلية وواضحة إذ تعني: أن عباد الله الصالحين هم الذين يستحقون أن يكونوا خلفاء الأرض، وهم الوارثون للأنبياء وليس غيرهم؛ ذلك لأن النبي ترجمان الصواب، وبمقدار تحقق أيّ إنسان ليكون مترجماً للصواب يكون وارثاً حقاً للأنبياء.

ولأجل بيان فضل العالم على الآخرين أُورِدُ من الرسول ﷺ هذا القياس، إذ يقول: "فَضْلُ العالِمِ عَلَى العابِدِ كَفَضْلِي على أَدناكم".[1]

نعم إن العابد الجاهل معرّض للانحراف والزيغ كل حين. وهذا الانحراف نسبي حسب مرتبة العبد عند الله. فمنهم من يعدّ عدم مراقبته لله في آن واحد انحرافاً جاداً.. ورغم نسبية المسألة فهناك انحراف. والحال أن العلماء الذين هم ورثة الأنبياء في مراقبة دائمة ومحاسبة مستمرة مع أنفسهم. فهم في توق روحي دائم، وعلى أهبة الاستعداد تجاه المهالك والمخاطر المحدقة. ومما لا شك فيه أن العالم الذي يتعبد عن معرفة وبشعور تام بكل مسألة، أفضل ممن يتعبد بلا شعور، كفضل الرسول ﷺ على أدنى الصحابة الكرام. والحقيقة أن هذا يعني: أنه لا يمكن مقايستهما.

وهناك نكتة دقيقة في هذه المسألة، وهي أن الإنسان الكامل الوارث للنبي ﷺ لا يفلت منه نور يُفاض عليه من الفيض الأقدس. حتى كأنه مركز استقطاب كبير لابتلاع الأشعة المنبعثة من الشمس. فلا يهدر ولو ذرّة من كل فيض مقدس يفيض عليه بتجليات الأحدية، وينتقل إليه بتجليات جمالية لطيفة تلاطفه بإسباغ الرحمة عليه، فتكون جميع أركان قلبه في نشاط مستديم وفعالية دائمة، ساعياً ليكون مرآة عاكسة لهذه الفيوضات.

---

(١) الترمذى، العلم ١٩.

هــــذا -في الوقت نفسه- تعبير عن خشوعه العظيم وتوقيره الكامل لربه الجليل، وهو عملية شحن روحي مستمر. ولهذا الشخص المشحون باستمرار له إفراغ أيضاً، وهذا الإفراغ هو نشر ما في روحه من ضياء ونور وحقائق أخرى إلى مَن حوله. وليس هناك معيار لقياس عمله هذا حسب أعماق روحيته. إذاً فمهما توغل العابد في عبادته لا يبلغ درجة عبادة عالم مؤهل لأن يكون إنسانا كاملا. فضلاً عن أن المرء عليه أن يعمل بما عَلم. وإلاّ فالقرآن الكريم يهدده ويزجره بالآية الكريمة: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعلَمُونَ﴾(البقرة:١٤٦).

نعم، إنهم يعلمون ولكن لا يعملون، فهم كالثقوب السوداء لا تعكس نوراً إلى شيء. فلا يستفاد بشيء من طاقاتهم الضوئية، أو بتعبير أصح لا يكون كالشمس تشع ضياءها إلى كل مكان، فهي موقد وهي سراج وهي حزمة ألوان تلامس أزاهيرها، من الكواكب السيارة. ولنترك محرومي الحظ الذين ضياؤهم كالثقب الأســـود مظلماً قاتماً، مع ما لديهم من طاقات مدخرة. نتركهم وحالهم منتقلين إلى حديث شريف للرسول الأكرم ﷺ؛ إذ يقول: "مَن سُئل عن علمٍ عَلِمَهُ ثم كَتَمَه أُلْجِم يوم الْقيامة بلجَامٍ من نار".[(١)]

فهذا الكلام الطيب بيّن المعنى، أي مَن تعلم شيئاً ولم يحاول نشره إلى مَن حوله، أي لم يفرغ بعد ما شُحن، ولم يصبح قدوة حسنة بأطوراه، فلا يكون مرآة عاكسة للحق. ويكون جزاؤه أن يلجم بلجام من نار. ونجد في الحديث الشريف تقريعاً وتوبيخاً شديدين؛ حيث إن اللجام لا يستعمل إلاّ للحيوانات. أي تشبيه مَن كتم علمه بالحيوانات، وهو تعبير شديد كما هو واضح.

إن ذلك الإنسان -الذي كتم الحق- لم يدرك قيمة ما أهّله الله وجعله في أحسن تقويم، وأهمل ما أودع الله في ماهيته من شعور وبيان وتفكر حتى ميّزه عن الحيوانات، بل جعله خلقاً ممتازاً مختاراً من بين المخلوقات، ولكنه لم

---

(١) الترمذي، العلم ٣؛ أبو داود، العلم ٩؛ ابن ماجه، المقدمة ٢٤؛ مجمع الزوائد للهيثمي ١٦٣/١.

يؤد شكر ما أودع الله فيه. أليست معاملة عادلة عدالة محضة أن ينـــزع رب العالمين أفضاله عنه.. الأمر أعرضه لأنظاركم.

العلم والتبليغ وجهان لحقيقة واحدة، أما العمل فهو شرط لا ينفك عنهما. فلا يفرز هذه الثلاثة بعضها عن بعض؛ إن عمل المرء بما علم تعبير عن توقيره لعلمه، إذ عدم القيام بالعبودية لمن عرف ربه هو عدم توقيرله وعدم اكتراث، بل بلاهة وعمى وصمم. ولاسيما من تولى عناء خدمة الإيمان وتكاسل عن العبودية فهذا أمر مخيف أكثر من مخافة العدو الخارجي. والحالة التي يتقمص بها الغربيون حينما يرون غير الملتزمين من المسلمين، وما يتفوهون به له دلالة لهذا الحكم، إذ الكلام أو الشهادة من الخصم له دلالة خاصة.

يسأل أحدهم إنكليزيا مسلماً، لماذا لا يدخل الإنكليز في الإسلام أفواجاً، فهم أناس عقلاء حتى إنهم يديرون سياسة العالم؟ فلا يجيبه الإنكليزي المسلم وإنما يمسك بيد السائل ويأخذه إلى أقرب مسجد.. وضع كئيب، ليس هناك إلاّ عدد ممن يؤدون العبادة بأجسادهم.. وكان هذا جوابه. وهذا يعني: أن طور الغربي واضح تجاه النظم الدينية، أو غير الدينية، إن لم تظهر في التطبيق العملي وإن لم تترجم إلى واقع عمليّ. فمتى ما أصبحنا نقابلهم كجماعة توحد فيها الظاهر والباطن، وتكامل فيهم العقل والروح، وغدت قلوبهم متعارفة مفتوحة للقرآن الكريم، وانسجمت أعمالهم مع فطرة الإنسان، وهمّ كل منهم متوجه إلى هداية الإنسانية.. فانهم يلجأون إلى الإسلام. وقد لجأوا إليه، وسيلجأون بإذن الله من دون أن نكلفهم به.

نعم، إن مجتمعا لا يعرف دينه، ولا يعرف ربه، ولا يفهم عن كتابه، وليس له من المظاهر ما يجلبه اليه كيف يلتحق به الغربي؟ فهو ينظر أول ما ينظر إلى الواقع العملي والى بناء قلب المسلم وعقله. إذ يهتم بأناس تتماوج في آهاتهم الحسرات حباً للإنسانية وإشفاقاً عليها، يقضون لياليهم بالتهجد

والقيام لله، وألسنتهم رطبة بذكر الله، لا يهدرون الوقت ما استطاعوا، بل يشغل كل منهم كل آن من وقته بما يفيد وينفع.. نعم إنهم يهتمون بأناس مشحونين بمثل هذه الطاقات.

فإذا ما تمكن الذين يمثلون الإسلام أن يصبحوا على هذه الشاكلة فسيهرع الغربيون إلى الإسلام ويدخلونه أفواجاً. ولكن لان الحالة معكوسة، تجلت النتيجة معكوسة أيضاً، فابتعدوا عنا حالياً.

وباختصار نقول: إن الإسلام نظام إلهيّ يربط العلم بالعمل ربطاً محكماً. ففي إحدى جانبيه الإيمان، والجانب الآخر تحويل هذا الإيمان إلى عمل وفعالية. نعم، إن ذكر أعمالِ وعباداتِ الآخرين وروايةَ حكايات عنهم جميل من جهة لما فيها من عبر وعظات. ولكن الاكتفاء بهذا القدر فقط من دون القيام بتطبيق تلك الأعمال في الواقع يؤثر تأثيراً سلبياً في المقابل. فالإسلام ليس ذكر مناقب الأولياء أو الاستماع إليها فحسب، بل هو تحويل ما يُذكر عنهم إلى حياة معيشة. نعم، الإسلام إيمان وعمل. فالذين يتكلمون عن العمل الإسلامي من دون أن يدركوا أن الإسلام إيمان وعمل كلامهم هذر ليس إلاّ.

٢- الحقائق الإسلامية ومعرفة الواقع المعاصر

لقد تبدل تقويم الأشياء والنظر إلى الحوادث في وقتنا الحاضر تبدلاً كلياً، فالمنطق والعقلانية في مقدمة الأمور، وقد حازتا أهمية كبرى في التقويم، حيث إن الكفر والإلحاد يتكلمان باسم العلم والفلسفة. ومن هنا يضطر المسلم إلى مقابلتهم بالأسلوب نفسها، وهذا وثيق الصلة بمعرفة ثقافة عصره، وما العلم والعرفان اللذان لا ينفكان عن المسلم إلاّ هذا الأمر.

إن من لا يعرف مجريات عصره كمن يعيش في دهليز مظلم، عبثاً يحاول أن يبلّغ شيئاً عن الدين والإيمان إلى الآخرين، فعجلات الزمن والحوادث

ستفقده التأثير إن عاجلاً أو آجلاً. ومن هنا فعلى المؤمن أن يفهّم ويبلّغ ما ينبغي أن يُفهّم بأسلوب ملائم ومنسجم مع المستوى الفكري والعلمي والثقافي لعصره، ولعلي أجزم أن مرشداً وداعية -في يومنا هذا- إذا ما تمكن من تطبيق هذه النقطة المذكورة يسبق الأولياء والأقطاب في الآخرة، إذ يقف خلف الأنبياء عليهم السلام. نعم إن هذه النقطة سامية وجليلة إلى هذا الحد. علماً أن التمسك بها وتنفيذها صعب أيضاً مثلما أنها ضرورية جداً.

إن من لا يعرف عصره لا يختلف عمن يعيش تحت الارض، بينما المبلّغ أو الداعية يجوب في الفضاءات. وعندما يجول بين النجوم بعقله، يعاين بقلبه وبلطائفه الأخرى رياض الجنان، أي عندما يحجزه عقله في المختبر جنب (باستور)، ويسيّره برفقة (انشتاين) في أعماق الوجود، تراه واقفاً بروحه بكل إجلال وتوقير أمام الله سبحانه وأمام رسوله الكريم ﷺ، فينصبغ بصبغة الله مرات ومرات في اليوم الواحد.. وأعتقد أن المرشد الحقيقي هو هذا. تأملوا في كلام النبي ﷺ، لماذا لقي قبولاً وتأثيراً لدى مخاطبيه؟ لأنه تعامل مع عصره بمثل ما يتعاملون به بينهم. ولا شك أن جميع الأوامر الآتية من الرب الجليل لا تخالف الحوادث الجارية في الكائنات، ويكفي للإنسان أن يدرك حكمة الوجود وروحه، فينسّق ما يريد أن يبلّغه وفق ذلك.

وكذا الأمر لدى الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين أخذوا ظروف واقعهم ومستوى مخاطبيهم بنظر الاعتبار لدى تبليغهم ودعوتهم، وذلك ما تعلّموه من الرسول الكريم ﷺ،ولذا سَمَوا إلى مستوى رفيع في قوة التأثير مما جعل الدنيا تجثو أمامهم في أقصر وقت. وكذلك فعل جميع العظماء الذين أتوا بعدهم من الوارثين الحقيقيين للرسول الكريم ﷺ، سلكوا الأسلوب نفسه في التبليغ وإن تخالفت مسالكهم، حيث أدركوا مدارك عصرهم، فدام تأثيرهم إلى يومنا هذا، كالإمام الغزالي والإمام الرباني ومولانا جلال الدين الرومي وأمثالهم من الدعاة الأثبات.

ولكن لما آل الأمر إلينا.. فأسفاً.. أدرنا ظهرنا إلى العلم، كوارثين غير صالحين لأولئك الأبرار. حيث دمّرنا ما يجعل المسلم مسلماً حقاً من آداب وأركان. فنحن ضحايا جهلنا.

٣- علاقة القرآن بالقلب

لابد أن ينظم المبلّغ قلبه وضميره وفق القرآن الكريم ويجعله متناغماً معه. ويعبّر القرآن الكريم عن هذا بالآية الكريمة الآتية: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾(ق:٣٧).

نعم، إن القرآن الكريم كتاب وعظ وإرشاد وذكر وتذكير، ولكن الشرط الأساس للاستفادة من القرآن من هذه الجهة هو انفتاح القلوب نحوه. ولأجل ذلك على القارئ أن يسدد نظره ويلقى سمعه نحو القرآن. وأن يتوجه إلى القرآن الكريم بكيانه كله، إذ من المحال الاستفادة من القرآن على الوجه المطلوب باتباع سبيل آخر. حيث إن من لا ينظم أطواره وفق هذا النسق لا يستطيع أن يرى الجهة المعجزة المنورة للقرآن، فلا يميز كلام الله عن كلام إنسانٍ ما. ومن هبط إلى هذا الدرك لا يرجى منه أن يؤدي عملاً ما باسم القرآن، لأن القرآن يعقب بعد قوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ بقوله: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾. أي إنه كلام رب العالمين، لا ريب فيه، ولكن لا يستفيد منه على الوجه المطلوب إلاّ المتقون. والمتقون هم أفضل الناس معرفة بالشريعة الفطرية؛ فكما لا يكون المهمل متقياً، لا يستفيد من القرآن أيضاً، حيث إن قلبه قد مات، والآية الكريمة تبين ذلك: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنْ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ﴾(محمد:٢٠).

ترى ماذا سيفهم من القرآن ومن كلام الرسول الكريم ﷺ من ينظر إليه نظر المغشي عليه من الموت؟ لا شيء قطعاً. ولكن الذي يسدد قلبه نحو القرآن يستشعر بالحوادث التي تجري في الكائنات كنبضات قلبه. لماذا؟ لأنه

أوجد وحدة بينه وبين الكائنات؛ فالذين لا يملكون القدرة على جس نبض الحوادث لا يقال عنهم إنهم يعملون شيئاً كثيراً للإرشاد؛ إذ إن هذا الأمر ذو علاقة بكيفية النظر إلى القرآن ككل.

وإذا ما اقتربنا إلى المسألة نفسها من زاوية أخرى نقول: إن أول شرط لا يستغني عنه المبلّغ قط هو تطبيقه الآيات الكونية الظاهرة في الآفاق والأنفسي على الآيات القرآنية المتلوّة، ومن ثم صياغة مركب منهما. وبمقدار نجاحه في هذا الميدان يوفَّق في تبليغه وإرشاده. وبخلافه لا شيء إلاّ الإسراف له ولمخاطبيه.

نعم، إن المبلّغ يتصف بكامل كيانه بالصفات الإسلامية، وجميعُ أطواره وأحواله تدل على حيازته لها. وإن القدرة على تحليل الآيات الآفاقية والأنفسية وصياغة تركيب منهما لا تفارق المبلّغ، فضلاً عن الاتصاف باللطف والنـــزاهة والشفقة والنظام وأمثالها من الصفات التي تجعل المؤمن مؤمناً حقاً.

وبتعبير آخر: كما أن كل صفة من صفات الكافر ليست بكافرة فكل صفة من صفات المؤمن أيضاً ليست بمؤمنة، وربما تكمن صفاتٌ مؤمنةٌ في تقدم الكفار في الوقت الحاضر في كثير من النواحي في أرجاء الدنيا، وان تلوثنا بصفاتهم الكافرة سبب انهزامنا. والحال ينبغي على المؤمن أن يتصف ويتشبث بكل صفة من صفات المؤمن، ولاسيما المبلّغون عليهم أن يسبقوا المؤمنين في التحلي بهذه الصفات بخطوات. فالمؤمن إنسان اللطف، وإنسان النـــزاهة، ومثال للشفقة والرحمة... وهو بهذه الصفات يرى الكائنات أنها مهد الرحمة، موطن الأخوة.. والمؤمن حياته منظمة بكاملها، لا يمر عليه آن إلاّ وهو منوّر، لا يعرف الإسراف في الوقت. وليس له قضاء الوقت في المقاهي، لأنه لم يرد شيء من هذا القبيل في السيرة المطهرة، بل موقعه خارج مسكنه المساجد والمعابد ومواضع تبليغ دعوته إلى المحتاجين، فهو محمّل بالمعرفة ومشحون بالعرفان وأبعد من يكون عن الأمور الاعتباطية، إذ هو رجـــل منهج وخطة دوماً، وهو الخبير بالعلاقة بين السبب والمسبب وهو النافذ نفوذاً تاماً إلى روح الأشياء.

نعم، مثلما ذكرنا أعلاه، إن سبب تفوق الغرب في الوقت الحاضر هو ما أخذوه من صفات المسلمين، لذا تراهم يجولون في الذرى. بينما تحوّل العالم الإسلامي إلى حمّال رذائل صفاقم، فهو عندما يأتي إلى المسجد يلقي صفاقم كالمعطف على كتفه، والآخر يسعى إلى الكنيسة بالصفات التي تخص المسلمين. بمعنى أن الغالب في الوقت الحاضر ليس الغرب نفسه، وإنما الصفات الإسلامية التي فيهم. وكذا المغلوبون ليسوا هم المسلمين بل الصفات الكافرة التي قلّدوها. فلا نجاة لنا حقاً إلاّ باعتصامنا القويّ بالقرآن الكريم.

٤- استعمال الوسائل المشروعة

الداعي إلى الله يتحرى بدقة الوسائل والطرق المشروعة لدى دعوته الناس وتبليغهم. إذ لا يُسلك إلى هدف مشروع إلاّ بوسيلة مشروعة، بل لا يمكن بلوغ الهدف المشروع بوسائط ووسائل غير مشروعة ألبتة. ولما كان هدفنا هو الحق ونحن أعداء الباطل، فلبلوغ هذا الهدف الحق ليس لنا أن نستعمل الباطل الذي هو عدوّنا. فبخلافه نكون قد كذّبنا أنفسنا وناقضنا جميع ما قمنا به من أعمال. وفي الحقيقة لا تقوم دعوة على الكذب، ولو قامت فلا تدوم قطعاً، فلقد رفع الله سبحانه البركة واليُمن من الأعمال التي اتخذ فيها العاملون للإسلام هذه الوســـائل. فهم يستطيعون حشد ألوف من الناس في الشـــوارع والميادين ليطلقوا الخطب والهتافات، ولكن لا تبلغ بركة هذه الكثرة الظاهرة، بركة إرشاد ثلاثة أفراد دعاة لله صادقين قولاً وعملاً إلى ثلة من الناس في بيت متواضع. فالواحد من هذه الثلة يعدل ألفاً، بينما الألف من الآخرين لا يعدل الواحد.

القلوب بيد الله عزّ وجلّ. وقبول المخاطَب لما نقول له أو ما سنقول له، أي قميئة مسببات الهدايـــة بكلامنا معه، كل ذلك بيده ســـبحانه وتعالى. وحيث إن غايتنا توجيه الناس إلى الطريق الحق، فلا تنفعنا التعابير الكاذبة أو

الشـــبيهة بالكذب كالمبالغة، بـــل تضر بتحقيق غايتنا. فنحن مكلّفون ومأمورون بأداء وظيفتنا وفق ما خطّه الإسلام لنا. ولا يحق لنا بأي حال من الأحوال أن نـــزلّ إلى ميادين غير مشروعة تحت اسم العمل الإسلامي. ولا سيما في أيامنا هذه التي يباع فيها الكذب مع الصدق جنباً إلى جنب في حانوت واحد. إذن فنحن مضطرون إلى أن يكون كلامنا صدقاً وأحوالنا صادقة، ونتمثل الصدق خالصاً.

٥- الأجرة وطلبها

إن المبلّغ لا يريد جزاءاً ولا شكوراً من أحد عوضاً عما يؤديه من وظيفته المقدسة، مادياً كان ذلك الأجر أو معنويا وروحياً، لأن طلب الأجر يُذهب صفاء الإخلاص والصدق. وحالما يتكدر الصدق والإخلاص تتلاشى قوة التأثير. بل المبلّغ يقلق حتى على ما يورثه تبليغه من ذوق معنوي ولذة روحية أن يكدّرا صفو الإخلاص، ناهيك عن الأجر المادي الذي يجرح التبليغ. وإذا تداخلت منافع مادية في التبليغ رُفع الإخلاص كلياً. ولا يقال لهذا العمل: إنه تبليغ ولن يقال. وأوضحُ دليلٍ على ما ذكرناه ما يقوله القرآن الكريم نقلاً عن لسان جميع الأنبياء عليهم السلام: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلاّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الشعراء:١٠٩).

وفي الحقيقة يمكن أن نستشف تحت عبارة الأنبياء هذه أنيناً كهذا: "إنني أتقلب لأجلكم في ألم وقلق، وأنتم تهينونني وتطلقون عليّ إسم مجنون، وتحاولون إبعادي عن الناس وترجمونني، وأنا أسعى لأبلّغ الحق بيتاً بيتاً. بينما أنتم توصدون كل باب عليّ. وأنتم تحاولون بكل وسيلة أن تضيقوا الخناق عليّ وتصيبوني بالأذى. وأنا لا أطلب منكم شيئاً، لا في الدنيا ولا في العقبى. إن أجرى إلاّ على الذي أرسلني وقلّدني هذه الوظيفة".

فهذا صـــوت الأنبياء وأنفاسهم جميعاً منـــذ آدم عليه السلام إلى ســـيدنا

الرســـول الكريم ﷺ. وهذا هـــو روح أدائهم لمهماتهم.

فعندما أتى حواريو سيدنا المسيح عليه السلام إلى أنطاكية -إن كانت أنطاكية- إذا برجال الدولة يريدون سجنهم فوراً، فينفّذ الأمر، ويُزجّون في السجن. وما إن سمع حبيب النجار النبأ -وهو موضع ثقة لدى الجميع- حتى هرع إلى المسؤولين، وخاطبهم قائلاً: ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾(يس:٢١).

يذكر القرآن الكريم هذه الحادثة ملفتاً النظر إلى شرطين أساسيين، أو بالأحرى إلى وظيفتين أساسيتين للمبلّغ:

أحداهما: أن يكون المبلّغ نفسه مهتدياً.

ثانيتهما: عدم طلب أيّ شيء كان مقابل التبليغ.

نعم، لا يكون مبلّغاً أو مرشداً من لا يصلي، فلا يُسمَع كلام من لا يؤدي عباداته كاملة، خالية من القصور والنقص ولا يؤثر في المخاطب. وكيف يكون مرشداً من ملأ بطنه بالربا والرشوة والكسب الحرام.. إذ كيف يكون الذين غرقوا في حياة مسرفة فارهة مبلّغين ومرشدين وهم بحاجة إلى إرشاد لأجل آخرتهم؟

نعم، إن الذين لم يجعلوا حياتهم بمستوى السواد الأعظم ليسوا ممن يسيرون في طريق الرسول الأعظم ﷺ وأصحابه الكرام.. بل أطوارهم وأقوالهم كذب في كذب. و لم يهتد أحدٌ إلى الصدق بالكذب، ومن لم يهتد إلى الصدق لن يكون هادياً لغيره قط.

إن المبلّغ كلوحة اتجاه ثابتة، يعلّم الصدق والصواب دائماً. فكل من يعاين حياته ومعايشته يرى الصدق بسهولة ويجده على سيماه. والأولى أن نقول ينبغي أن يرى ويجد.

والقرآن الكريم منبع هداية للمتقين. فكيف ينتفع من منبع الهداية هذا من لم يُدخل حياته كاملة في نطاق ما وضّحه القرآن الكريم؛ إذ الهداية الحقة هي الصراط المستقيم الموصوف في القرآن الكريم، فلا يبلغ الهداية من كانت حياته

غير مستقيمة. والتناقض بعينه إن كان هؤلاء أدلاء على طريق هداية الناس.

فالمرشدون والمبلّغون إذن عندما يؤدون ما تعهده الأنبياء عليهم السلام من وظيفة الإرشاد يسلكون طريق الأنبياء. ولا سيما من يتقدم إلى مهمة التبليغ في الوقت الحاضر عليه أن يستمع بقلب شهيد -أكثر من غيره- إلى المرشد الكامل الذي نوّر الله عقله كقلبه، وقلبه كعقله. إذ يقول: "إن أهل الضلالة يتهمون العلماء باتخاذهم العلم مغنماً، فيهاجمونهم ظلماً وعدواناً بقولهم: "إنهم يجعلون العلم والدين وسيلة لكسب معيشتهم" فيجب تكذيب هؤلاء تكذيباً فعلياً".[1]

نعم، لا بد من تكذيب أهل الدنيا فعلاً وإلاّ فما عداه كلام لا طائل وراءه. تتولى خدمةَ الإسلام جماعة من المحتسبين لله في كل زمان، على سطح الأرض. فهؤلاء المضحون لأجل سعادة الإنسانية، يعلّمونها كيف يكون المبلّغ الصادق. فهذه الزمرة الصادقة مع الله تعمل حسبة لله إلى حد تكاد تكفى تركته لكفنه، وقد لا تكفي أحياناً. فأنا أجمّل خيالي بهؤلاء البررة، إنهم حَمَلة عظماء لدعوة عظيمة.

لقد شاهدتْ هذه الأمة الكثيرين ممن يتمشدقون بالحياة الإسلامية واستمعوا إليهم كثيراً، ولكن كلما شاهدوهم واستمعوا إليهم خاب ظنُهم أكثر. وقد لا تتحمل هذه الأمة خداعاً أكثر من هذا، فهي الآن تنظر إلى الحياة الإسلامية المعيشة لا إلى الكلام، وتحتضن كل من يعيش بكلامه فعلاً حياة إسلامية، بل تضحي في سبيله، بينما لا تعير سمعاً ولا تكترث بمن لا يعمل بما عَلم.

ولأوضح المسألة أكثر فأقول: إنكم لاتثقون بالذين لايعيشون من قمة رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم حياة مشابهة لحياتكم "حياة السواد الأعظم"، ولا تعتمدون عليهم، فلا تتفق وفراسةَ المؤمن الاعتمادُ والوثوق بكل خَدّاع ماكر. وإذا أردتم الانتماء إلى أحدهم، فانظروا أولاً إلى حياته اليومية فإن

---

(١) المكتوبات لبديع الزمان سعيد النورسي، ص ١٦.

كانت تتسم بالتواضع والاستغناء، ولا تكذب أعمالُه أقوالَه، فاتبِعوه وانتموا إليه. وأعتقد أن هذا أمر فطريّ، إذ ليس من الصواب الانتماء والإتباع دون الإمرار على المحك؛ فالتاريخ أظهر كثيراً من أمثال هؤلاء. ولهذا يجب إتباع من كانت أحواله وأطواره "محمدية" وليست كثرةَ الكلام. فالذين يعدّون الخب مهارة وصنعة ليس لهم إلاّ الضرر للعمل الإسلامي، فهم بعيدون عنا روحياً، وسنبقى بعيدين عنهم.

ثم إن من انتمى إلى جهة وانضوى تحت منّتهم، لا يستطيع أن يفهّم أولياء نعمته شيئا، ولهذا فإن أبا حنيفة، والليث بن سعد، والإمام الثوري، والفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأمثالهم من الأفذاذ تعاملوا معاملة حذرة جداً في هذا الأمر، أي عدم الدخول تحت منّة أحد. ولهذا تجاوزت أعمالهم وأقوالهم العصور، حتى بلغت عصرنا، فعاصرونا. ألا ما أزهر ذلك العصر حتى نوّر العصور التي تلته واحتضن هذه الكثرة الكاثرة من الناس دفعة واحدة!

فمثلاً: "رؤي سفيان الثوري رحمه الله حزيناً، فقيل له: ما لك؟ فقال: صرنا متجراً لأبناء الدنيا، يلزمنا أحدُهم حتى إذا تعلّم، جعل قاضيا أو عاملاً أو قهرماناً".[١]

ورسالة سفيان الثوري إلى الخليفة هارون الرشيد معروفة ومشهورة، وهي أنموذج لكيفية المعاملة مع الحكام! إذ لما تولى هارون الرشيد الخلافة انتظر أن يأتي صديقه الحميم السابق سفيان الثوريّ لمبايعته –وهذا من حقه بلا شك– بيد أن سفيان لم يفكر مثله قط. ولم يتمالك هارون الرشيد فكتب إليه رسالة، وعاتبه فيها عتاباً رقيقاً جاء فيها: "..واعلم يا أبا عبد الله أنه ما بقى من إخواني وإخوانك أحد إلا وقد زارني وهناني بما صرت إليه، وقد فتحت بيوت الأموال وأعطيتهم من الجوائز السنية ما فرحت به نفسي

---

(١) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ٨٤/١.

وقرت به عيني، وإني استبطأتك فلم تأتني، وقد كتبت لك كتاباً شوقاً مني إليك شديداً، وقد علمت يا أبا عبد الله ما جاء في فضل المؤمن وزيارته ومواصلته...". ولما رأى سفيان الكتاب ارتعد وتباعد منه... وأدخل يده في كمّه ولفها بعباءته وأخذه، فقلّبه بيده ثم رماه إلى مَن كان خلفه وقال: يأخذه بعضكم يقرؤه فإني أستغفر الله أن أمسّ شيئاً مسّه ظالم بيده... فأخذه بعضهم.. ثم فضه وقرأه، وأقبل سفيان يتبسم تبسم المتعجب فلما فرغ من قراءته قال: اقلبوه واكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه، فقيل له: يا أبا عبد الله إنه خليفة، فلو كتبت إليه في قرطاس نقي، فقال: اكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه؛ فإن كان اكتسبه من حلال فسوف يجزى به، وإن كان اكتسبه من حرام فسوف يُصْلَى به ولا يبقى شيء مسه ظالم عندنا فيفسد علينا ديننا، فقيل له: ما نكتب؟ فقال: اكتبوا:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من العبد المذنب سفيان بن سعيد بن المنذر الثوري، إلى العبد المغرور بالآمال هارون الرشيد الذي سُلب حلاوة الإيمان... أما بعد: فإنك قد جعلتني شاهداً عليك بإقرارك على نفسك في كتابك بما هجمت به على بيت مال المسلمين فأنفقته في غير حقه وأنفذته في غير حكمه... فشدّ يا هارون مئزرك، وأعد للمسألة جواباً، وللبلاء جلباباً، واعلم أنك ستقف بين يدي الحكم العدل...". وبقية الحادثة يذكرها أحد الشهود في قصر الرشيد فيقول: "..فأقبل هارون يقرأ الكتاب ودموعه تنحدر من عينيه ويقرأ ويشهق... ثم لم يزل كتاب سفيان إلى جنب هارون يقرؤه عند كل صلاة حتى توفي رحمه الله".[(١)]

ترى، ما القوة، وأين مكمن الشجاعة ومنبع الجرأة حتى خاطب الخليفةَ بهذا الأسلوب؟ هذه القوة هي عدم رضوخه لمتاع الدنيا، وتجاوزه الدنيا وكل ما سوى الله. ولو كان كأمثاله مرتبطاً بالدنيا لما استطاع أن يخاطب

(١) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، ٢/٥٠٧، ٥٠٩.

الخليفة بهذا الأسلوب. علما أن ذلك الخليفة كان مؤدياً لصلواته الخمس يومياً، وقد حج مراراً واعتمر، وله من النوافل ماله من صيام وقيام، فضلاً على رقة قلبه ولطفه، ولكن الأمر هو أن له بعض أعمال يأثم مرتكبها فأيقظه أحد أصدقائه السابقين بهذا الأسلوب.

وقفة قصيرة هنا لأعرض وصيتي الأولى والأخيرة إلى الأجيال المقبلة الذين يُنتظر منهم خلاص الإنسانية: كونوا أعزاء كرماء. لا تدعوا مراكز القوى المعلومة أن تمكّن منكم. وحتى إن ترددتم عليهم لأجل دعوتكم فكونوا مستغنين دائماً، وإياكم أن تدخلوا ضمن قيود الآخرين لدى نشركم الحق والحقيقة. إن ما وضع الله سبحانه من أسس وقواعد لَمِــنَ الأهمية بمكان. وأنتم ليس عليكم إلاّ إظهار العبودية له. وعندها يكون لكلامكم تأثير ووقع ويتقبل تبليغكم في وجدان الآخرين. وقد تكفل سبحانه بذاته إعطاء قوة التأثير لكلامكم إذا لم تنتظروا شيئاً من الآخرين، إذ تأخذونه من الله سبحانه. وكيف ذلك؟ هو: بتأثير كلامكم في الدنيا، وتشرفكم بجمال الله والجنة في الآخرة. وإن لم تعملوا على هذه الشاكلة وأردتم من الناس شيئاً، يزول تأثير كلامكم أولاً، وتُحرمون من أعظم النعم.

إن مناصب الدنيا وجاهها زائلة فانية. لا تستحق أن يُرتبط بها ولا الاغترار بها! ولكن في الوقت الحاضر يجوز العمل في وظائف الدولة ضمن حالات الاضطرار. وفي أيامنا هذه إذا ما عاش الموظف وعائلته من مرتّبه فإنه من الورع ألاّ يترك ميراثاً، لأنــه قد اختلط -بصورة عامة- كثير من المحظورات مــع المرتّبات. وهذا كلام خاص قيل في الظروف التي نعيشها. وآمل أن تتبدل هذه الظروف كلياً، ويجد كل واحد الطريق المشروع للكسب.

ولقد عزمنا نحن في سبيل أداء التبليغ ليس على ترك المقامات والمناصب الدنيوية وحدها بل حتى على ترك المقامات والمناصب الأخروية، لو كانت لنا في سبيل التبليغ. نعم فكما نفضل تفهيم بعض الشيء في سبيل الحق إلى بضعة أشخاص على أن نكون نواباً في البرلمان، فإننا إذا اقتضت الضرورة

نرجّحه على القطبية والغوثية، لأن الأصل هو تذكير الناس وإرشادهم، فلا مقام أرقى وأفضل منه سواءً كان دنيوياً أم أخروياً. لذا فإن جعل التبليغ تكئة لبلوغ مآرب دنيوية -كأن يستعمل الشهرة والصيت التي حازها المبلّغ في أثناء نشره الحق والحقيقة- حماقة كحماقة من يستبدل قطعاً زجاجية تافهة بقطع الألماس الثمينة.

ففي رواية ضعيفة أن في عهد موسى عليه السلام مُسخ إلى خنـــزير مَن كان يجعل الدين مغنماً، مع أنه كان يذكر موسى عليه السلام وعظمته أينما حلّ من مجلس، ولكن لأنه كان يستغل ذلك لمنافعه الشخصية مسخه الله إلى أخس الحيوانات.

لا شك أن المسخ صورة قد رُفع عن هذه الأمة الإسلامية لوعد قطعه الله على نفسه لحبيبه ﷺ، إلاّ أن الكثيرين كانت عاقبتهم مثل هذا الشخص سيرةً.

نسأل الله العلي القدير أن يحفظنا وجميع المبلّغين المرشدين من السقوط إلى هاوية هذه العاقبة، إنه للدعاء سميع وبالإجابة جدير.

٦- معرفة المخاطب وأسلوب التفاهم

أ- معرفة المخاطب

إن المبلّغ يتفقد أحوال مخاطبه عن كثب، ويتصرف تجاه أخطائه برحابة صدر، فيتخذ تجاه المؤمن طور المروءة. أما تجاه أهل الكفر والإلحاد فيتصرف بالدراية والكياسة. وبهذه الأساليب يتمكن أن يتقرب إلى قلب مخاطبه ومنطقه من جهة، محبباً إليه ما يريد تبليغه ويسوقه إلى القبول من جهة أخرى.

نعم، المبلّغ يعرف جيداً أوضاع مخاطبه، فيبتعد كلياً عن كل ما ينفّره من أسلوب أو تصرف، فما يبلّغ إلاّ أموراً سامية طاهرة. ولاشك أن من يبلغ عن الله ورسوله ﷺ وكتابه واليوم الأخر ويحبب ذلك إلى قلب مخاطبه، يقدر

مدى أهمية عمله فيقوّم أحواله وأطواره وتصرفاته وفق تلك الأهمية؛ لأن أيّ امتعاض يستشعره المخاطب من أطواره، ربما يكون سبباً لتنفيره مما هو مكلّف أن يحببه إليه. فهل من خسارة أفدح من هذا؟ وسنتحمل جميع المسؤوليات في الآخرة إن كانت نابعة من أحوالنا وسلوكنا.

تأملوا! كيف كان الرسول ﷺ يبلّغ بأسلوب لا يشعر معه المخاطب أنه غارق في الإثم؛ فلم يك يخاطب الكافر ولا المجرم كمدان أمامه، بل كان يوجه كلامه بصورة عامة، دون تشخيص وتحديد، وكان يصعد المنبر ويرشد إلى أمر من الأمور الفرعية التي رأى تقصيراً فيها داخل الجماعة.

كان صحابي رضي الله عنه يدعو ربه ممداً يده إلى السماء رافعاً صوته، وهو قريب من مجلس الرسول ﷺ. فهذا الوضع يخالف آداب الدعاء، ولكن الرسول ﷺ بدلاً من أن يخاطبه ويبين خطأه، خاطب الجميع قائلاً: "اربَعوا على أنفسكم إنّكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبا إنّكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم".[١]

و"جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنّي وَالله لأتأخّر عن صلاة الغداة من أجل فلان ممّا يطيل بنا فيها". فاشتد غضب الرسول ﷺ من هذا الكلام وهو أعلم بالإمام، ومع هذا لم يستدعه ليحاسبه بل خطب بالناس مرشداً لهم وقال: "يا أيّها النّاس إنّ منكم مُنَفِّرينَ فأيّكم ما صلّى بالنّاس فليُوجزْ فإنّ فِيهم الكبيرَ والضّعيفَ وذا الحاجة".[٢]

هكذا كان أسلوبه ﷺ تجاه أخطاء الآخرين، حيث كان يسعى لإنقاذهم، لذا قدم لهم كل مسألة من المسائل بأبسط أشكالها وأكثرها عملياً.

فقد قال رسول الله ﷺ: "أيّها النَّاس قولوا لا إله إلاّ الله تُفلِحُوا".[٣] ومن هنا نرى أنه خطأ جسيم أن تجعل المخاطب في حالة الشعور بالإثم، بل يقال

---

(١) البخاري، المغازي ٣٨؛ مسلم، الذكر ٤٤-٤٥؛ أحمد بن حنبل، المسند ٤٠٣/٤.

(٢) البخاري، الأحكام ١٣؛ مسلم، الصلاة ١٨٢.

(٣) أحمد بن حنبل، المسند ٤٩٢/٣، ٦٠٣/٤.

ما يراد قوله دون تشخيص أحد من الناس، وعلى المبلغ أن يستفيد من هذا الكلام كلٌّ حسب استعداده، كاستفادة الأشياء من أشعة الشمس، وبخلاف هذا الأمر يصعب التئام الجروح.

بـــ- الحذر من النقاش والمراء

إن المبلّغ حذر جداً من أن يؤول الكلام في الحوار إلى جدال ونقاش، إذ المتكلم في المجادلة والمناقشة هو "الأنانية". فهذا الجو الذي لا يراد به الوصول إلى الحق، يسلّم زمامه إلى الشيطان. ولهذا فمهما كان الكلام الذي نريد أن نبسطه للمخاطب مقنعاً ومؤدباً، لا يؤثر فيه ولا يجد القبول الحسن لديه. وإذا ما نظر إلى المسألة من زاوية نفسية المتحاورين يظهر أمامنا أن المراء لا خير فيه، لأنه مثلما نتهيأ للظهور على خصمنا كذلك المخاطب يتهيأ مثلنا في الأقل، ولا شك أن الأدلة التي نسردها لإثبات مقولتنا قد استعد هو لتفنيدها بأدلة أخرى. وهكذا يتحول الحوار في المراء إلى كلام عقيم ولو طال ليالي وأياماً.

لقد دخل الرسول الكريم ﷺ مرة أو مرتين مناظرة وحاول إقناع مخاطبيه[1] إلاّ أن أمراً لا بد أن يُنبّه إليه هو أن الطلب كان يأتي من الجهة المقابلة، وفي مثل هذا الموقف لا يظل الرسول ﷺ ساكتاً، لما يؤثر في القوة المعنوية لمستمعيه. ومع هذا فالذين أتوا لأجل المجادلة والنقاش أكثرهم لم يقتنعوا قناعة تامة وإنما أُلزموا إلزاماً، والإلزام لا يعني أن المخاطب قد اهتدى.

ولقد قابل الرسول الكريم ﷺ علماء بني إسرائيل طوال سنين، ولكن لم يحدث أن اهتدى واحد منهم في مثل هذاه اللقآت، علماً أنه رسول عظيم ينـــزل الإلهام من العرش الإلهي إلى قلبه الطاهر كالشلالات، وخلقت الكائنات

---

(١) انظر إلى: الترمذي، الدعوات ٦٩؛ أحمد بن حنبل، المسند ٤/٤٤٤؛ الإصابة لابن حجر، ١/٣٣٧؛ السيرة لابن هشام، ١/٣١٣، ٣١٨.

لأجله، وتزخر سيرته العطرة بالمعجزات. ومع هذا فكل من دخل ضمن نطاق المجادلة والمناقشة لم يعرج إلى عرش الهداية وإنما ظل في نطاق الإلزام.

كان عبد الله بن سلام الذي يهودياً، فأتى الرسول ﷺ لقبول الحقيقة، فقال في نفسه: إن كان هذا هو الذي شمائله مذكورة في التوراة، أؤمن به، قال: "فجئت في النّاس لأنظر إليه فلمّا اسْتَثْبَتُّ وَجْهَ رسول الله ﷺ عرفت أنّ وجهه ليس بوجهِ كذّاب".[١]

وفي المراء أيضاً لا يخطر بالبال دائماً رِضىَ اللهِ سبحانه، لأن المبلِّغ والمبلَّغ له، يكونان في حالة متوترة ومشدودة بالأنانية، ففي مثل هذا الجو الذي ليس فيه رِضىَ اللهِ سبحانه مهما كان الكلام جيداً لا يحصل منه الهداية والتأثير حيث الهداية بيد الله وحده، ولا ترد في مواضع ليس فيها رضاه سبحانه.

جـــ- الانخلاع من الأنانية

الأنانية عامل يعيق الهداية، ويزيل بركتها، سواءً للمبلّغ أو المخاطب. لذا فالمرشد والمبلّغ ينخلع من هذا الحس المضر، بل يقول ما يريد قوله ضمن تواضع وإنكار ذات. وبهذا ينقذ مخاطبه أيضاً من فكر مسبق ومن العناد. وفي الحقيقة لا يحق لأحد كائناً من كان أن يتشبث بالأنانية. ومن الواضح أن كثيراً جداً من الكلام الذي يستعمل فيه المبلّغ أنواعاً من العقل والمنطق والبلاغة والفصاحة مع ما ينساب من لسانه من البيان إلاّ أنه لا يؤثر على أحد قط. بينما من لا يكاد يبين ولكن فؤاده منسحق، إذا بكلامه يكون مؤثراً، ويجعله الله سبحانه وسيلة لهداية قسم من الناس.

د- معرفة البناء الفكري للمخاطب

سأتطرق إلى مسألة ربما تعدّ من الأمور الفرعية ولكن لا يمكن تجاوزها: على المرشـــدين والمبلّغين أن يهتموا اهتماماً جـــاداً بالبناء الفكري

---

(١) الترمذي، صفة القيامة ٤٢؛ ابن ماجه، الإقامة ١٧٤.

لمخاطبيهم. وإذا ما حصرنا المسألة في دائرة ضيقة خاصة نقول:

إن وجود الجماعات الإسلامية في يومنا هذا حقيقة واقعة، والاعتراف بوجودها شيء وتصويب عملها شيء آخر. وإن التعامي والتغاضي عن شيء موجود فعلاً ورفضَه لا يأتي بشيء؛ لذا فالمرشدون والمبلِّغون عليهم أن يتذكروا كلٍّ حين أن أيّ شخص في محيطهم أو ممن يستمع إليهم ربما هو منتسب إلى مشرب معين أو إلى إحدى الجماعات، فيوردوا كلامهم وفق ذلك، ولا يذكروا ما يومئ إلى تهوين جماعة أو انتقادها والأدهى من ذلك اغتيابها. فكل مشرب أو جماعة –فضلاً عن قبولها أن مشربها ومسلكها حق وجميل– عليها أن تكون على خُلق التسامح مع الآخرين، ومعترفة بحق الحياة لهم، ذلك لأن الله سبحانه لا يرضى خلاف هذا الطور الذي يقطع البركة ويزيل اليُمن. وليعلم كل مرشد أنّ عليه احترام الجماعات جميعها، ومسايرة عرفان مخاطبه، ليكون كلامه مقبولاً لدى الجماعات كلها، إذ لا يرضى الله عمن يتعامل بسوء مع مَن يذكُره، ولا ممن ينتقد المؤمنين، ويقطع الصلة مع الذين ارتبطوا به، ولو بكلمة التوحيد وحدها.

والحقيقة أن مدى ارتباط المبلّغ بالله سبحانه يتبين مما يمدّه من عرى العلاقة مع كل من له ارتباط بالله؛ فمقياس علاقتنا مع مخاطبينا هو بنسبة علاقتهم بالله سبحانه. والمرشدون والمبلّغون يراعون هذا الأمر أكثر من غيرهم، فيدعون الناس لا إلى مشربهم بل إلى الإسلام مباشرة. ولعل انبساط هذا الشعور هو أهم عامل في دفع الجماعات والمشارب المختلفة إلى الاتحاد وجعلهم كالجسد الواحد.

إن معرفة المخاطب هي بالإحاطة بمستواه الاجتماعي وبناه الثقافي. هذه حالة مهمة جداً من حيث فن التبليغ، فكما أن التبليغ والإرشاد وظيفة، فإن معرفة فن التبليغ وظيفة أخرى. فمثلاً: إذا واجهك عدو مسلح بالمدفع والبندقية، وأردت صدّه بالعصا. فهذا عمل بلا شك، ولكن تصبح به سبباً

لفشل ذريع، لأنك لم تراع فن التبليغ، ولا سيما إن كان هذا الطور في نطاق عمل إسلاميّ فإنه يضر كثيراً.. ولقد ذكرنا سابقاً وأكّدنا عليه: أن معرفة فن التبليغ أحد الشروط التي لا يمكن أن نتجاوزها، بل هي في مقدمة شروط التبليغ. فبمقدار إيماننا بضرورة التبليغ نعتقد أنه ضروري أيضاُ فن التبليغ. فالكلام الصادر منا إن كان فوق المستوى الثقافي للمخاطب بكثير أو دونه بكثير، فعملنا هذا لا يوافق فن التبليغ وقد لا يجدي شيئاً. فالمسألة التي تشرحها ابتداءاً للغارق في الإلحاد، المضطرب في الكفر، ليست بفضائل قيام الليل والتهجد بلاشك، بل تفهّم له الأسس الإيمانية فهماً ملائماً لمنطقه العقلي وبأسلوب علمي حيث إن الكفر يرد في الوقت الحاضر من جانب العلم. ولكن ويا للأسف كم من أخطاء ترتكب نحو الملحدين البائسين هي نابعة من التشخيص الخطأ وأسلوب العلاج الخطأ. نعم، إن الانشغال بمظاهر الجيل الحاضر وبملابسه بدلاً من الانهماك بتعمير قلبه وضماد جروحه، دفَعه إلى النفور والهروب.. فمثل هذا الخطأ في فن التبليغ مسألة جديرة بالاهتمام حيث يؤدي إلى ضياع حياة الإنسان الأبدية.

نعم، إن كان الذي تخاطبه يتكلم باسم العلم والفن فلا يعقل أن تقرأ عليه من كتب الفقه الأولية. وهذا لا يعني قطعاً التهوين من شأن هذه الكتب الفقهية، وإنما المقصود إفهام أن هذا العمل ليس في موضعه. وكذا إن كان المخاطب ينكر الآخرة، فأنت لا يمكن أن تتقرب إليه بذكر مناقب الأولياء؛ فالإنسان ليس مخلوقاً من مشاعر وحواس فحسب كي تؤثر فيه هذه المناقب، فهو علاوة على تلك المشاعر يحمل منطقاً في عقله، ولا بد أن يقتنع من حيث المنطق أيضاً؛ يقول سعد الدين التفتازاني لدى شرحه الإيمانَ: إن الإيمان نور يقذفه الله تعالى في قلب من يشاء من عباده، أي بعد صرف الجزء الإختياري، فعليك أن تشرح الإيمان بالأدلة، والله سبحانه ينوّر قلبه بالإيمان. والحقيقة أن هذا الإيمان يَسُوق الإنسان إلى العمل الصالح وإحلال الدين كُلاً لا يتجزأ في الحياة المعيشة. بينما الإنسان الذي دخل الدين

بمشاعره وأحاسيسه، ربما يتركه عند غلبة تلك المشاعر والأحاسيس بشكل آخر.

يشير القرآن الكريم في مئات من آياته الكريمة إلى مسائل العلم والتكنولوجيا، ولكنه ليس كتاباً للفيزياء أوالكيمياء، وإنما القرآن يحث المؤمنين ويرشدهم بإشارات وإيماءات لأجل الإرشاد العام وللحاجة إلى هذه الفروع العلمية. والذي لم يطلع ولو قليلاً على علم الفلك، ولم يقرأ علوم الحياة ولو قراءة عابرة، لا يمكن أن يفهم كثيراً من آيات القرآن الفهم المطلوب؛ لأن فهم آيات كثيرة جداً مرتبط بالاطلاع على هذه العلوم. وهنا نذكر الآتي من دون أن نطيل الكلام في فروع العلم المختلفة، فنقول: إن مرشدي ومبلغي يومنا الحاضر بحاجة ماسة إلى متابعة ما وصل إليه العصر من علوم وفنون وتكنولوجيا ولو بشكل معلومات أولية،وبخلافه يظل إرشادهم إرشاداً خاصاً لا يشمل الناس عامة.

هـ- معرفة ثقافة العصر

إن أحوالنا الحاضرة تدمي القلوب شباباً وشيباً. وهذه الحالة المؤلمة نابعة -إلى حد ما- من ضحالة ثقافة مَن يتقدم إلى الإرشاد والتبليغ. إذ لا يمكن من يجهل ثقافة عصره ومدى فهمه وأسلوب خطابه أن يفهّم إنسان عصره شيئاً. ويجب ألاّ يخطر بالبال: إن كان مضراً تفهيم شيء للآخرين من دون الإطلاع إلى ما ينبغي الإطلاع والتعرف عليه من علوم العصر، فهل يسقط عنا وظيفة "الأمر بالمعروف"؟ كلا!! بل لئن استدعى الذهاب إلى النجوم لأجل الإرشاد واستوجب جلب ما ينبغي تبليغه من هناك، لكان من أفرض الفروض الذهاب إلى هنـــاك وجلب ما يجب لتقديمه إلى المحتاجين. فلقد صرعوا جيلنا بالفيزياء، وأركعوهم بالكيمياء، وأنـــزلوا على رؤوسهم الشهب بالفلك. فيجب عليك أمام هذا الموقف ألاّ تقف مكتوف اليدين. بل هو دَين عليك أن تأخذ بيد هذا الجيل مستعملاً الوسائل نفسها لترفعه

من كبوته وتضمد جراحاته المادية والمعنوية وتسمو به إلى الأعالي من جديد. وتعلوا معاً كيلا يتردى مرة أخرى وينسحق تحت الأقدام.

إن كل شيء في الكون وكل ما يحدث فيه لسان وغصن، فالمؤمنون عليهم أن يتعلموا هذا اللسان ويستمسكوا بهذه الأغصان، وإلاّ عجزوا عن فهم الآيات التكوينية. وكل فرد أو أمة لا يفهم الآيات التكوينية يُضرب عليه الذل والمسكنة. علماً أن القرآن الكريم يشرح هذه الآيات التكوينية ضمن آياته البينات. ولا يُعدّ تالياً للقرآن الكريم حق تلاوته مَن كان يسد أذنه عن هذه الآيات التكوينية ولو ختم القرآن يومياً. فلقد أرسل الله القرآن ليتدبّر الإنسان ويفكر في آياته، وكل من ينصر القرآن عليه أن يفهم هذا الأمر.

إن الحقائق التي نبلّغها مهما كانت مباركة وسامية، مشكوك أمر تأثيرها إن لم تُبلّغ وفق إدراك العصر وفهمه وأسلوبه. وتقديم الدين والقرآن على صورة موضوعات غامضة ملفعة بالأسرار والتي لا يمكن أن تمر من مصفاة المحاكمات العقلية، لا يعدو عن كونها غير تكدير لأذهان الجيل وزيادة كفر الكفار. ونحن منذ سنين نرى بوضوح هذه اللوحات المؤلمة ونملأ صدورنا هماً وكمداً.

كان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين فوق مستوى ثقافة عصرهم بكثير. وكانوا يبلّغون مسائل الدين بمستوى ذلك العصر الثقافي. والذين تبعوهم كانوا أيضاً مثلهم في التبليغ. فمثلاً ما كان يفهمه الإمام الغزالي وهو مجدد عصره يجعل المخاطبين في ذلك العصر في حيرة وإعجاب. ودامت هذه الحيرة والإعجاب إلى مدى العصور. ومما يجلب الانتباه رأي مفكري الغرب من أمثال "جب" و"رينان" عن الإمام الغزالي، إذ قالوا: لم نر أحداً متمكناً من ثقافة عصره كالغزالي. وهكذا كان جميع الأئمة الأعلام من المجددين كالإمام الرباني، ومولانا خالد، وأمثالهم من العظام الذين سبقوا عصورهم علماً وثقافة. وكانوا يبلغّون الدين وفق مستواهم الرفيع ويتنفسون

أنفاسه. ولهذا وقع كلامهم في قلوب مخاطبيهم موقعاً حسناً ووجد قبولاً عاماً عندهم.

و- المرشد مرِن

نعم، يكون مرناً ويحافظ على مرونته هذه، لأنه أحيانا ينـــزل في أعماق الوديان العميقة، وأحياناً يصعد أعالي المنابر؛ إذ بين مخاطبيه من هو في كلتا النقطتين، وهذا يقتضي أن تكون مساحة ثقافته واسعة جداً. وإلاّ فلا يكون مرشداً حقاً، بل من قطاع طريق الإرشاد من الأشقياء.. وما عليهم إلاّ أن يتنحوا من أمام الأمة، وألَاّ يكونوا ظلاً قاتماً عليها، وأن يفتحوا الطريق لكي يأتي المرشدون الحقيقيون ويمدّوا أيديهم إلى هذا الجيل المنكوب.

يقول أحد كبار المرشدين، الذي يخفق قلبه بآلام الأمة: "إن قلب المؤمن يتفجر ألماً بعدد ذرات وجوده حيال جحود شاب". نعم هذا هو القلب المضطرب. ومن لا يشعر بهذا القلق لزوال الإيمان من الجيـــل ليس جديراً بالإرشاد. فالمرشد هو البطل الذي يدرك عصره ويستهين بزخارف الدنيا كلها. بل ينسى -ولو موقتاً- نعيم الجنة، ساعياً لأداء مهمته، حسبةً لله وكسباً لرضاه وحده. نعم هكذا يجب أن يكون ليحظى بتوفيق الله وليطمئن إليه مَن حوله.

سبق وأن ذكرنا ما يلزم أن يعرفه المرشد عن مخاطبيه؛ فكما أن إعطاء الدواء قبل تشخيص المرض خطأ بيّن، كذلك القيام بالتداوي قبل تشخيص ما يعاني منه المخاطب خطأ مثله، بل أدهى وأمر. وهذا هو إحدى وظائف المبلّغ. ولا أرى داعياً لأذكر أنه لا يلائم كل مرض أي دواء كان.

أناس أعرفهم، يجدون خلاص الإنسانية في العمل في ســـاحة الاقتصاد والصناعة الثقيلة فيُكثرون الكلام حول أهميتها. فمثل هذه الأفكار على الرغم من أنها تدور في الأوســـاط باسم الإسلام إلاّ أنها لا تعدو أكثر من تقليد بسيط لماركس وأنجلز. فقد أفلست هذه الأفكار وتفرق منتسبوها ولم يتمكنوا من الحفاظ على حيويتهم، فكيف بالأفكار التي هي تقليد ساذج لها

يمكنها منح الإنسانية الحياة المطلوبة؟ وكيف يعقل هذا فضلاً عن أن يسوق من يتبعه إلى مثل هذه المغامرة؟ إن تصديق مثل هذه الخدمة أمر ثقيل عليّ.

كلا.. ثم كلا.. فو الله إن لم تتكفلوا بالجيل الحاضر وتربوه في ميدان الروح، وتنفخوا فيه الروح، ولم تعمّروا فيهم الشعور الأخروي، فلن تنفع تنشئته بالتمشدق بالحضارة ولا المصانع التي تقيمونها أو أقمتموها.

إن هذا الجيل السائب الخاوي من الروح لا يشبعه أي فكر مزخرف مزركش ما لم يرعوه رعاية منظمة. والظن بأنه يمكن علاج اضطراب الجيل بالحلول الاقتصادية هو الغفلة بعينها.

ولما كان العالم الإسلامي في الوقت الحاضر قد فقد القدرة على الكلام وفق فنون العصر، فقد أُسـقط من موقع الخطاب للعالم. فهو في موضع الاستماع والاستماع فقط لا غير. ولو تمكن من تركيب ما سمعه وتحليله، فلعل يوماً من الأيـام يتمكن من الارتقاء إلى موقع القائد فيُسمِع الآخرين كلامه. ولكن وآأسـفاه لم يستطع أن يكون بعدُ حتى مخاطباً جيداً، وانعكست هذه الحالة المزرية نفسها على الدعوات الخاصة أو المؤسسات الخاصة. وأصحاب هذه الدعوات أصبحوا عاجزين أمام مخاطبيهم بنفس القياس. علماً أن في أيدينا القرآن الكريم الذي يتحدى عقل العالم بأسره ويخاطب الإنسانية كافة. وكذا في أيدينا السنة النبوية الخالدة التي توضح القرآن أجمل توضيح. وكم هو مؤلم أننا لم نعرف لحد الآن كيفية الاستفادة الحقة من هذين المصدرين. فلم نغص في البحر المحيط القرآني باتحاد العقل والقلب معاً. ولهذا صمت القرآن والسنة ولم يحدثانا بمكنونات نفسيهما، فلئن مضينا على هذه الحالة فإن صمتهما سيدوم. فلا نجاة لمسلمي اليوم من هذا الكابوس المخيم عليهم.

نعم، الدنيا في تحول وتغير. والعلم والتكنولوجيا يتوسعان وينتشران بسرعة مذهلة ولكن ما يقوله بعضنا لا يتفق ومقاييس الدنيا المتوسعة، بل

يتعلق بما قيل قبل ثلاثة عصور ويظل هناك لا يغادره، فنكون بعيدين جداً عن جيلنا الحاضر. فلا يعير سمعه لكلامنا.

ز- النظر من زاوية العصر

المرشد والمبلّغ في الوقت الحاضر لا بدّ أن ينظر من زاوية عصره المعيش، قبل أن يتطرق إلى المسائل. وهو بادئ ذي بدء يجب أن يكون خبيراً بالبناء الروحي للمخاطب. ويجب أن يعلم أيضاً ما هي المسائل التي انغرست في ذهنه انغراس السهم المسموم. ثم يتكلم بما يريد أن يتكلم ضمن هذه المعرفة. وذلك كي يلقى القبول الحسن، وينعكس في قلب المخاطب ويستقر في ذهنه؛ حيث إن جيلنا الحاضر يفقد دمه، ونحن لا نعطيه إلاّ مضادات حيوية.

إن المسائل التي تطرقنا إليها إلى هذا الحد، ليست ادعاءات مجردة، وإنما ركائز في الإرشاد تستند إلى الكتاب والسنة. فالقرآن الكريم في أول آية نــزلت ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾(العلق:١) يلفت النظر إلى الآيات التكوينية لدى ذكر الخلق.. فجميع الفلاسفة بدءاً من أبيقور وديموقريط ومنه إلى سقراط وإلى أفلاطون وحتى الذين عاصروا الرسول ﷺ انهمكوا كلهم بموضوع الخلق وسعوا في تحليله وتدقيقه. بمعنى أن الناس -في ذلك الوقت- كانوا على شيء من المعلومات عن الخلق. فكانوا على علم بأن بدء الإنسان من قطرة ماء وأن الجنين يمر بأطوار مختلفة في رحم الأم؛ ولكن القرآن الكريم تناول المسألة من زاوية واسعة جداً وخاطب الناس: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾(العنكبوت:٢٠).

هكذا يقول القرآن، والعلم البشري والفكر البشري لم يوضحا لحد الآن، كيف بدأ الخلق، ولن يوضحاه؛ إذ لا يمكن ذلك إلاّ بإسناد الأمر إلى الله جل جلاله.

بينما القرآن الكريم يستهل دعوته بإيضاح هذه المسألة المعضلة المحيّرة، وفي الوقت نفسه يلفت الأنظار إلى الآيات التكوينية، والتي قلّدها القدرة

الإلهية والإرادة الربانية كقلادة مزينة في عنق الكون، وجعلتها كمعرض عجيب أُشهر للأنظار ككتاب مفتوح أمامنا لقراءته. فنحن إذن في موقف تدقيق ما في هذا الكتاب والمعرض والقلادة، لأجل تقويم الحوادث الجارية وفهمها، ولا عدول لنا عنه.

فالمرشدون والمبلّغون الذين يسعون لإدامة حيوية جماعتهم بمجرد إثارة العواطف والأحاسيس، يخالفون الآيات التكوينية، ولا يَعِد سعيُهم شيئاً للمستقبل. لأن الخطوات المبنية على حُسن الظن فحسب ملتوية ومنحرفة لا تستقيم، لذا تدع صاحبها في قارعة الطريق بعد فترة قصيرة. ولكن لو تمكنوا أن يشعلوا جذوة حماسهم باتحاد العقل والقلب معاً وهيأوا جماعتهم لمواكبة شروط الزمان، فإن هذه الرابطة لا تنفصم قطعاً، لأن مرور الزمان لا يؤثر فيها، والحوادث المثيرة تقويها وتشحذ الهمم والإرادة.

أريد أن أنتقل إلى أمر آخر استطراداً: إن هذه اللوحة مثيرة جداً أمامنا جميعاً وهي:

إن كثيراً من أبناء أناس متدينين يتمرغون في الإلحاد والكفر، سواء في خارج البلاد أو داخلها. وبالمقابل هناك الكثيرون من أبناء أناس لا نصيب لهم من الدين ينعمون بالإيمان. حتى إن بعضهم هربوا من ضغوط عوائلهم بحثاً عن مواضع ليديموا حياتهم الدينية. ولن أذكر ما شاهدته من الوقائع حيث لا تغني المسألة شيئا، ولكن لنعلم أن مثل هذه الحوادث قد وقعت وستقع أمثالها في المستقبل؛ فالعائلة التي ترفل بالدين و لم تعلّم و لم تقْدِر على تعليم الدين بقدر عقول أولادها وبمستواهم الروحي، يحصل فراغ في أذهان أطفالها، والشبهات التي تتعلق بهم تسبّب إنحرافهم عن الدين وخروجهم عنه؛ إذ من الطبيعي ألاّ يسأل هؤلاء أحداً من خارج العائلة عن المسائل التي تدور في أذهانهم، لأنهم تربّوا في جوّ ديني في كنف العائلة. ولكن التربية الدينية التي تلقوها في البيت لا توصلهم إلاّ إلى حدّ معين.

فقد كنت ضيفاً على عائلة كهذه وكنا نتباحث مع رب البيت، الذي كان متديناً خالصاً ذا قلب رقيق سليم حتى استحييت من نفسي أمام هذا الطهر والنقاء. وبعد برهة دخل علينا ابنه الطالب الجامعي، وفهمت من كلامه أنه ملحد، وكأن البيت قد انهدّ عليّ وجمدتُ في مكاني، فقلت في نفسي قاصداً ذلك الرجل الطيب: يا ليتك لم تنشئ ابنك ملحداً بدل أن تظل نقياً تقياً إلى هذا الحد.

ومقابل هذا فالطفل الذي يتربي في أسرة لا دينية يجد دافعاً في نفسه للاستفسار عما لم يتمكن من حله من المسائل، فأية يد تمتد إليه من الخارج وتتمكن من حل معضلاته فسيرضى بالإسلام ويحبه لأن الإسلام قد فهّم له وفق شروط زمانه. بينما تدين الطفل الآخر الذي تربى في عائلة دينية لم يتجاوز التقليد، وقد بلغ به الأمر حداً لم يعد ينفعه هذا الإيمان التقليدي. والآن نرجع إلى صدد الموضوع.

حـ- النـــزول بمنازل المخاطب

يقتضي مستوى المخاطبين النـــزول إلى مستواهم، فالمرشد والمبلّغ في هذه الحالة عليه أن يكلّمهم بقدر عقولهم. ويمكن أن نوضح هذه الملاحظة بالآتي:

إن النـــزول بمنازل المخاطب خلق إلهيّ، والرسول ﷺ يدعونا إلى التخلق بأخلاق الله، والقرآن الكريم بكامله كلام إلهي تنـــزل على عقول البشر. تُرى كيف كان حالنا لو لم ينـــزل القرآن منسجماً مع استعداداتنا وعقولنا وطاقاتنا.

نعم، لو كان الله سبحانه تكلم في قرآنه المجيد بمثل ما تكلم به مع موسى عليه السلام في جبل الطور لما كنا نطيق كلامه. وأيضاً لو كان القرآن قد نـــزل بأسلوب يفهمه ذوو القرائح الداهية لما كان يستفيد منه تسعة وتسعون بالمائة من الناس. والحال أن الأمر ليس هكذا؛ فالله سبحانه وتعالى ينظر إلى وضع مخاطبيه فيخاطبهم وفق ذلك بما يلائم إرادته وعظمته وربوبيته. ومن المعلوم أن كلامه

جل وعلا لا يقتصر على القرآن وحده، إذ لكلامه اللائق بعظمته كيفيات كثيرة من كلامه المنسجم مع عظمته ولكن نحن لا نعلمها. والذي نعلمه هو: أنه جل وعلا خاطب الإنسان بمستوى إدراكه وفهمه بسر الأحدية.

أجل، نحن نجد فهمنا ومستوى إدراكنا في القرآن الكريم، وكأن القرآن يخاطب كل إنسان بمستواه، فمهما كان المستوى الفكري للقارئ يجد القرآن يخاطبه. حتى يشعر الإنسان في القرآن أن أحداً قريباً منه يعرّفه بأدق تفاصيل أسراره وخباياه.

وكون القرآن على هذا الأسلوب طبيعي جداً، ذلك لأن القرآن كلام الله ذلكم الرب الجليل الذي خلق الإنسان من العدم وأنشأه في عالم المادة (الجسماني) وهو أعلم بما في قلبه كل آن، ثم نفث فيه الروح من عالم الأمر، فلا الروح تعرف معرفة تامة ما الجسد الذي دخلت فيه، ولا الجسد يعرف تماماً ما الروح التي تديم حياته، والأعلم بهما مَن خلَقَهما ومَن جمعهما، والقرآن كلام هذا الرب الجليل.

فهذا الكلام الإلهي من حيث مضمونه هدىً للناس وضمان استقامتهم، ومنبع إرشاد الأنبياء والمرشدين من حيث أسلوب الخطاب، لذا يسددون نظرهم فيه ويستلهمون منه العلم والمعرفة.

إنه لحقيقة واقعة أن القرآن يخاطب مستويات مختلفة، ذلك لأنه كلام الله الذي خلق الإنسان وأنشأه بجميع مظاهره المختلفة؛ فالألوف من العلماءِ الأعلام قد بينوا اختلاف مستوى فهم وتمايز بعضهم عن بعض لدى طرح ملاحظاتهم وفكرهم حول القرآن. وحتى في خير القرون، كان الأمر أيضاً على هذا النمط، بمعنى أن فهم الصحابة الكرام ﵃ للقرآن وإدراكهم له لم يكن كله بمستوى واحد. واختلاف المستويات هذه لا يحجب الاستفادة من القرآن.

تاملوا أن بدوياً يأتي -في عهد الرسول ﷺ- ويستمع إلى القرآن، ويستفيد منه، وفي الوقت نفسه يستفيد منه شعراء أعلام عُلّقت قصائدهم

على جدار الكعبة، ولبيد واحد منهم، وهو الذي لم يقرض شعراً بعد سماعه القرآن. والخنساء عملاقة الشعراء في ذلك العصر أصبحت لا تترنم إلاّ بالقرآن. نعم هؤلاء كانوا مخاطبي القرآن وينـــزل إلى عقولهم وقلوبهم زلالاً. وقد أصبح أفذاذ العقلاء من مخاطبيه حيث تتلمذوا عليه من أمثال إبن سينا، وإبن رشد، والفارابي، والإمام الغزالي، وفخر الدين الرازين، وكذا أبو حنيفة، والإمام الشافعي، والإمام أحمد بن حنبل، والإمام مالك، ومن لا يمكن حصر أسمائهم. بمعنى أن القرآن كان يخاطبهم أيضاً بالأسلوب نفسه، أي بمستواهم. فلقد خاطب القرآن وفق إدراك الإنسان آخذاً بنظر الاعتبار مستواه الفكري. إن هذا الجانب من القرآن عجيب إلى حد أن كل من يستمع إليه بقلب شهيد يعتقد أنه هو المقصود الوحيد في الخطاب. وإن علماء عباقرة بزّوا في ميادين العلم والتقنية التي تسجل يومياً خطوات واسعة متقدمة، حتى غدت موضع انبهار العقول. فهؤلاء العلماء يجدون أفضل من يحثهم ويعينهم على تنمية ما أودعه الله سبحانه فيهم من قابليات كامنة، وفي أثناء اكتساباتهم في ممارساتهم القوانين الفطرية التي وضعها الله سبحانه أيضاً في الكون، هو الكلام الأزلي للخالق الكريم، وهو القرآن الكريم.

نعم، إن ألوفاً من أرباب العلم –رغم اختلاف مستوياتهم– ينهلون من زلال القرآن الكريم ويتفيأون بظلاله. فالكيمائي يستطيع أن يسمع القرآن كأنه يخاطبه وحده. أهو وحده هكذا؟ بل والفيزيائي أيضاً والفلكي أيضاً وكذا البيولوجي حتى الرياضي والهندسي، كل منهم يستطيع أن يستمع للقرآن وكأنه يخاطبه وحده. والزراعي يعتقد أن القرآن يبحث من البداية إلى النهاية عن الزراعة. وبالنسبة لطبيب ماهر يجد القرآن كمركز صحي نوراني رائق، يتكلم وينور ويهدي ويفتح آفاقاً جديدة للأمراض ويقوم بضمادهم أكمل من أي مركز دراسات وأبحاث. ويمكن إيراد الكلام نفسه لفروع العلم الأخرى. بمعنى أن الفلاح الذي يحرث الأرض في القرية والعالم الذي يفتح آفاق السموات بمجرد لمسه زراً صغيراً، هما من مخاطبي القرآن معاً.

فهذا القرآن العظيم الذي يغور في أعماق الأعماق يعلّمنا الدروس وفق أحوال وظروف كل إنسان. مع أنه يبحث عن كل علم من العلوم بأسلوب مقتضب فليس هو موسوعة علمية قط؛ لأن هدفه الوحيد هو الإنسان، ليأخذ بيده ويُصعده إلى السماء ومن هناك إلى سمو الأبدية ورفعتها. وهو في أثناء عمله هذا يعلّم أصول الإرشاد أيضاً. فالمرشد أو المبلّغ عندما يرى هذه الألوان المختلفة من الخطابات للقرآن ويعيش بها حياته، لا شك أنه يضع حالة المخاطب ومستواه نصب عينه دائماً ويجعل كلامه وفق ذلك، ومع أن هذا يتطلب جهداً منه إلاّ أنه مفيد جداً بل ضروري أيضاً.

فالذين اعتادوا أن يستعملوا الجمل المبهمة والمغلقة والمحمّلة بالتعابير الفلسفية لأجل إظهار الوقار والفخامة في كلامهم، على خطأ عظيم؛ لأن المهم في الإرشاد هو حسن فهم المخاطبين للبلاغ، وهذا يقتضي أن يكون البلاغ واضحاً بيّناً دون إشكال مهما أمكن، فالخطاب لا بد أن يكون بأسلوب يفهمه كل مستوى من المستويات بكل سهولة ويسر.

فالشباب في الوقت الحاضر، غريب عليهم التعابير والاصطلاحات الدينية، فمن الضروري التكلم معهم بلغة يفهموها. ويمكن أن نشبه هذا بكلامنا مع الأطفال، فكما أننا نساير خطوات طفل في الثالثة من عمره وقد أخذنا بيده، ونماشي كلامه ونضحك مثله ونراعي حالاته كلها، كذلك من الضروري أن نأخذ بنظر الاعتبار مستوى فهم المخاطبين في الإرشاد، فالكلام المفخم تجاه الأطفال، لا يثير فيهم إلاّ الضحك من دون أن يضيف شيئاً إلى جعبة معلوماتهم.

فعندما نشرح الإسلام لجيلنا الحاضر، فلابد لنا من الاقتداء بأسلوب تبليغ الرسول ﷺ وإرشـــاده وليس إلى الأسلوب الفلسفي لبرجسون وباسكال وأفلاطون وديكارت. فالرســـول ﷺ كان يخاطب دوماً بمستوى فهم الآخرين، فكان خطابه يسع جميع الناس، كل في موضعه، فكالطفل مع

الطفل وكالشاب مع الشباب وكالعجوز مع العجوز. فهذا الأسلوب وهذه الأخلاق الإلهية هو أسلوب الأنبياء وأخلاقهم. ويروى عن سيد الأنبياء ﷺ أنه قال: "إنّا معاشرَ الأنبياء أُمرْنا أن نُكلّم الناسَ على قَدر عُقُولهم"(١). وفي حديث آخر: "أَنــزلُوا الناسَ مَنازِلَهم"(٢) وهذا يبين قاعدة جليلة في الإرشاد لا يمكن تجاوزها.

٧- نظرة إلى علاقة الإيمان - التبليغ - العمل

أ- التبليغ والحياة

إن أهم قاعدة من قواعد التبليغ أن المبلّغ يحيا بما يبلّغ، ويبلّغ بما يحيا، ذلك لأنه على الصراط السوي للمؤمن الحقيقي. والمؤمن الحقيقي يعني مَن بلغ إلى تكامل الظاهر والباطن. فلا تخالف بين الظاهر والباطن في هذا المؤمن. أما الحياة الازدواجية فهي صفة النفاق، ويتنــزه المبلّغ الصادق من مثل هذه الأخلاق المذمومة، وما ينبغي له، ولأن صفة الإيمان قد أراه أفق الأخلاق الرفيعة، بأن ليس له إلا تبليغ ما يحيا به في كل زمان و مكان.

ومن جهة أخرى يعلم المبلّغ أن النصائح والإرشادات التي لا تتحول إلى حياة معيشة، لا تورث نتيجة إيجابية في وجدان الآخرين، إذ الأقوال والأحوال الخالية من الإخلاص لا يلطف الله سبحانه بها باليمن والبركة. أما ما نشاهده من نجاحات في بعض أعمال غير المخلصين أو شبه المخلصين، فهذا نابع من عدم وجود البديل، زيادة على أنها عابرة، أو أن تحقق مثل هذه الأحوال أحياناً نابع من عدم وجود من هو أفضل إخلاصاً في حينه، أو من عدم تمكن المخلصين الصادقين من تكوين مركز جاذبية بعدُ. ومتى ما حان

---

(١) كشف الخفاء للعجلوني، ١ /٢٢٥-٢٢٦.

(٢) أبو داود، الأدب ٢٠؛ مسلم، المقدمة.

وقت انتهاء غير المخلصين يحكم عليهم القدر به. وقد جرى هذا القانون الإلهي منذ القدم إلى يومنا الحاضر؛ لذا لا يخدعنّ المؤمنين وأهل الفراسة النجاح الجزئي والعابر لغير المخلصين أو ناقصي الإخلاص.

ويمكن أن يكون مثالاً لهذا بعض النجاح الذي أحرزته الشيوعية والرأسمالية، فكلا النظامين ظهرا في فترة واحدة، وظهر كل منهما بديلاً عن الآخر، ولعدم وجود تيار أفضل وأكثر إخلاصاً في تلك الفترة التي ظهرت فيها هذه التيارات النفاقية المغفّلة، نمت وانتشرت. ويمكن أن نقول إن المخلصين المتيقظين أخذوا يتقصون الحوادث عن كثب، فلا يباع بعد الآن في سوق العالم إلاّ متاع من كان مخلصاً، فهم الذين سيجدون زبائن لهم. فلقد حان أن يطرد غير المخلصين من هذا السوق الإلهي. فالشيوعية الباطلة المحكوم عليها بالزوال منذ ولادتها، قد أخرجت وطردت من سوق الحقيقة والإخلاص واُلقيت كنفاية على جانب. ولعله قد آن أوان دعوة أهل الإسلام أن تكون البديل الوحيد، كما يبدو أمام النظر.

إن تبليغ ما يحيا به المبلّغ، أو بتعبير آخر تبليغ ما يمثله، إنما يحصل بمحاسبة المرء نفسه محاسبة مستمرة، ومراقبة وجدانه لذاته. ولم يشاهد أن نجا من الحياة الازدواجية مَن يعيش للجسد ولم يتكامل بعدُ؛ فحاملو هذه الأرواح لا تنم أوضاعهم عن حقيقتهم ولم يصبحوا قط كما يتصرفون ويسلكون، وكل ما يعرضونه في المجتمع من احترام ونضوج واستقرار هي أمور متكلفة، شكلية، صورية، فما قوبلوا من لدن الآخرين إلاّ بالاستثقال والكراهية. فهؤلاء عندما ينفردون بأنفسهم مهملون غير جادين، وهذا دليل عدم النضوج وعدم القدرة والكفاية، وإزالة هذه الأمور مرتبطة باعتقاد جازم وتوكل كامل وانقياد جاد.

نعم، المبلّغ يدقق في هذا الأمر، فكما هو أمام الناس يكون كذلك في انفراده، ويسعى لتكون جميع أحواله وتصرفاته وسلوكه الخفية والظاهرة

خالصة صادقة فيظهر من الأطوار الفردية والاجتماعية ما لا يوقعه قطعاً في ورطة التناقض. إن ليالي المبلّغ جلية كنهاره، وهاره ساطع كالشمس، وإذا ما ارتكب خطأ -ولو صغيراً- لغفلة طارئة انكفأ على نفسه وحاسبها حساباً عسيراً حتى تئن من ثقل حسابه. فيخجل من أن يتكلم عن الصلاة نهاراً وقد فاته التهجد ولم يتنور ليله،و يستفرغُ الدمع لإزالة لوثة تعلقت بعينه من نظر حرام، واللقمة التي فيها حرام أو شبه حرام تصبح غصصاً في حلقه ومغصاً في بطنه، وانحراف طفيف في روحه يجعله يستشعر به كلهيب جهنم.

نعم، إن الأفكار التي لا تجد مجالاً لتطبيقها على صاحبها، لا تجد حسن القبول المطلوب لدى الناس مهما كانت جاذبة وضرورية للحياة؛ إذ الكلمات لم تنطلق من وجدان القائل، ومن المحال طلب استقرار فكر لم يستقر بعدُ في وجدان صاحبه.

بــ- التبليغ والمعيار (كمحور للحياة)

الإرشاد والتبليغ في المجتمع الإسلامي ليس وظيفة فحسب، بل هو بمثابة معيار ومقياس لكل شيء، حيث يقيس أفراد ذلك المجتمع جميع شؤونهم وفق ذلك المقياس وينظمون أوقات يومهم وفقه، ويمضون لياليهم تحت أنّات هذه المسؤولية. لذا لا يكون معياراً مجيء شخص إلى المسجد أو عودته من فريضة الحج، أو مشاركته في احتفالات المولد النبوي وما شابه، بل المبلّغ الجيد يتجنب كلياً من كل ما يومئ إلى تحويل الدعوة إلى مراسيم وطقوس وشكليات، تلك التي تفني روح التبليغ والإرشاد. ولكن ربما تكون هذه الأمور والأساليب مسلية لبعضهم إلاّ أنها بعيدة كل البعد من أن تكون معياراً في المجتمع. والحقيقة أن في مقدمة الأسباب لِتردي المجتمع وسقوطه وجَعْلِ قوّته المادية والمعنوية عقيمة بائرة هو عدم القيام بــ"الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" بشعور كامل، وبخطة تامة.

علينا أن نعتقد أن هذه الوظيفة السامية في يومنا هذا دَين فطري في عنق كل فرد من أفراد المجتمع، لأن دوامات الفتن ومستنقعاتها المترشحة من ثغرات البشرية، تجرف الأفراد أولاً ثم المجتمعات المتكونة منهم، وترميهم في أودية الهلاك السحيقة.

نعم، نؤكد تأكيداً جازماً أن هذا الأمر أمر إيماني قبل كل شيء، و لم يزل الذين نصروا هذا الدين إلى الوقت الحاضر وتبنّوا قضيته هم الأقوياء إيماناً، وهكذا كان الأمر وهو كذلك اليوم نفسه، وسيكون غداً أيضاً على المنوال نفسه. إن ما قام به ثلة مخلصة قوية الإيمان من حركة الإرشاد والتبليغ في مجتمع كبير، إذا بها قد لاقت في وقت قصير قبول وجدان جم غفير من الناس وتكون همهم الأول، ولا يمكن إيضاح هذا إلاّ أن الصفة المميزة لهذه الحركة هي بُعدها عن الأمور الشكلية والمراسيم.

والحركة البعيدة عن المعاناة والمقاساة لا تنجو من شِباك الشكليات وأسر المراسيم. والحقيقة أن الحركات التي قامت على المراسيم والشكليات، لا يخطر ببال أحدهم السجن، الدموع، المعاناة الفكرية، وبالتالي تخلو من الإخلاص والمحبة والاحتضان.

الخلاصة: أن المرشد ينظم كل حركاته وتصرفاته وسلوكه وفق حياته الإرشادية، فإذا ما أراد الذهاب إلى مكان يذهب إليه متفكراً بالإرشاد. أي يتحرك ويسكن ويقوم ويقعد متفكراً بالإرشاد والتبليغ. فلا مكان للتنـــزه الخاص في حياته، بل يسعى لتنسيق حاجاته الفطرية وفق استقامة دعوته السامية. إذ يعيش تحت وطأة يوم يُسأل عن عدد أنفاسه. وهذا هو سبيل الأنبياء والصديقين والأولياء والشهداء؛ فلقد بلّغوا ما كانوا يعيشونه، وعاشوا ما بلّغوه، بخلاف المنافقين الذين يبلّغون ما لم يفعلوه، و لم يعيروا سمعاً لما بلّغوه، فتراهم يغوصون كل يوم في دوامة طريق غير مستقيم، فضلوا وأضلوا من تبعهم، فهلكوا وأهلكوا. "أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام وقال

له: عِظْ نفسَك فإن اتعظتْ فعِظ الناس، وإلاّ فاسْتحِ منّي أن تعِظ الناسَ". [1]

وفي الحقيقة، إن هذا الخطاب ليس موجهاً إلى سيدنا عيسى عليه السلام كنبي وإنما كداعية لله سبحانه وهو في مقام الإرشاد، ولهذا يرد الخطاب: يا عيسى، أي إن الخطاب موجه إلى النبي وإلى كل من يتولى أمر الإرشاد والنصيحة، بأن يعيش ويحيا شعورياً بما يبلّغ وينصح كي يؤثر في غيره. والقرآن الكريم يوضح هذه المسألة بأوضح بيان في قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾(البقرة:٤٤) فالكتاب يوصي أول ما يوصي هو أن تبدؤوا أنفسكم بل يفضلها بالأسبقية.. أفلا تعقلون هذا وأنتم تتلون الآيات؟

لا شك أن هذه الآية الكريمة تهديد واضح لبني إسرائيل، وتنبيه للمسلمين في الوقت نفسه، إذ تقول لهم: إياكم أن تقولوا ما لا تفعلونه. لأن عدم القيام بما يقوله المبلّغ صفة نفاقية وخداع كما ذكرنا. وقد شهدنا كثيراً في فترة الانحطاط عدم جدوى كلام من سلك هذا السلوك بل فَقَد ثقة الأمة به.

كثيرون جداً من يمثلون الجانب الفكري للإسلام، أو يشرحونه بأسلوب أكاديمي، حتى إنه ينتج أفكاراً في هذا الميدان، ولكن لأنهم لا يحيون بما يقولون، أصبحوا أثراً بعد عين، ذلك لأن سلوكهم ما كان مستقيماً، وكلامهم ما كان نابعاً من صميم إيمانهم، علماً أنهم كانوا يشرحون "الصراط المستقيم" للناس ويدّعون أنهم يرشدونهم، ولكن ما أن هبّ نسيم خفيف حتى اهتزت الأوساط، فكان ذلك كافياً لينتهوا كلياً، بل نسوا ما كانوا يقولونه للناس وكذّبوا بكل ما يقولونه وأصبحوا في صفوف الجبهة المعادية مدافعين عنها بقوة. وفي النهاية هلكوا وانخرطوا مع المعدومين، ولكن يا للأسف مسحوا حضارة كاملة من الوجود.

---

(١) الرسالة للإمام القشيري، ٢١٦؛ إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، ٧٨/١.

جـ- التبليغ والمعاناة

إنه لقدر إلهيّ أن تترافق وتتداخل وظيفة التبليغ والمعاناة معاً بلا انفكاك؛ إذ الأشياء التي تحصل بصعوبة وتعب تحظى بالاهتمام والعناية والمحافظة، بينما الثروات التي حُصِلَ عليها بدون جهد أو نصب لا يستغرق استهلاكها سوى دقائق. ولاسيما إن كان الأمر يتعلق بتعريف الناس بالله، فإن هدر هذا الأمر يعني إنهاء أهم أساس لغاية وجود الإنسان وإنهاء ضمان بقائه. وهذا يعني مباشرة عدم جدوى وجود الإنسان على الأرض. لذا فالإنسان مضطر لإدراك هذه الوظيفة السامية كي يجعل لوجوده جدوى ومغزى.

في الأمس نقل ناس من سجن إلى آخر، بل غدت سجون البلاد بيوتهم ومساكنهم، إذ لم يبق نوع من عذاب إلا وذاقوه، ولم يبق شكل من أشكال الإهانة والتحقير إلاوشاهدوه، ومنهم من أُخذ من أهله إلى التحقيق ولم يعُد إليهم.. بل كثيرون كانوا يودّعون أهلهم صباحاً بلا أمل بالعودة.. هؤلاء جميعاً كابدوا ما كابدوا من أجل استمرارية الكفاح.. وفي فترة قصيرة جداً إذا بالرحمة الإلهية الواسعة تسعف أنات ثلة من الناس، وتثمر تلك الجهود المضنية الخالصة الطاهرة ثماراً يانعة نتفيأ بظلال أغصانها بفضل الله..

ألا لا يحق لأحد كائناً مَن كان أن يهدر هذه الثروة المقدسة؟ فالمؤمنون بجدوى هذه الخدمة التي بلغت مستوى معيناً، سيتولونها وينصرونها بنفس الأحاسيس والمشاعر التي عجنت بآهات وحسرات المكابدين.

لقد ذكرنا أن هذا الأمر أمر إيماني، فمن ينصر الإيمان عليه أن يعزم عزيمة جادة على إدامة حياة الإيمان، وليكن عزمه -في الأقل- كعزمه على إدارة بيته وأهله، أي يدافع عن دعوته بمثل ما يدافع عنهم، وبخلاف هذا لا ينجو من عاقبة بني إسرائيل.

والمبلّغ والمرشد مترقّب دائماً لمواجهة المصاعب والمتاعب، ويلقّن نفسه بهذا باستمرار، ويعتقد يقيناً أنه لا يفلح ما لم يصبه ما أصاب الذين قبله في

دعوتهم؛ أي يبتغي العزيمة دائماً ويتهيأ لتحمل المشقة، وإن قوبل باليسر يشكر ربه الذي أنعم عليه بهذا ويستمر في دعوته.

المؤمن مخلص صادق، أي يفعل ما يقول، أو لا يقول إلاّ ما فعله، وخلافه هو الكاذب والمنافق كما يصفه القرآن الكريم؛ إن حياة من يتكلم عن الدين والإيمان والقرآن ويشرح الإسلام كلما سنحت الفرصة، لا بد أن تكون وفق ما يبلّغه، إذ لا مكان لإثم في حياته، أو يعدّ الإثم منبع قلق واضطراب له. ولوارتكب ذنباً يشعر بعذابه ووخزاته الأليمة في أعماقه طوال حياته، فلا يستقر ذنب طويلاً في روحه. إن المؤمن لا ينظر نظرة حرام، ولا يمدّ يده إلى حرام، ولا يمشي في موضع فيه حرام. ليله كنهاره مضيء مشرق، سجادته عاشقة لسجداته في جوف الليل. لم يُسمع منه أنه قال يوماً فاتتني صلاة الفجر، وإن حدث ذلك خارج طوقه يقضى يومه بالحسرات والزفرات حتى تنعكس على سلوكه طوال ذلك اليوم، وينكفئ على نفسه من الندم.

د- التبليغ والنفاق

إن الشعور بالمراقبة والمحاسبة عامل حض دائمي للمبلّغ، فالمرشد في مراقبة مستديمة لنفسه، فيراقب مشاعره وتصوراته، ويجهد أن يستقر في نفسه ما يبلغه للآخرين أولاً و متلبسا به. وفي الوقت نفسه يتجنب ويتحرز تبليغ الآخرين أو نصحهم بمسائل لم يحاسب نفسه عليها بعدُ. وهذا التجنب لا يمنعه التبليغ بل يحض عليه ويدفعه إلى الإرشاد أكثر. إذ التخوف من أن يقع في النفاق أو أن يتشبه بالمنافقين يدفعه دائماً إلى الإخلاص.

والرسول ﷺ يبين في حديث مخيف مروّع من اتخذ الإرشاد والنصح لفظاً إذ يقول: "إِنّ أَخْوَفَ ما أَخافُ على أمّتي كلُّ منافقٍ عليمِ اللِّسانِ".[1]

---

(١) أحمد بن حنبل، المسند ١/٤٤.

ولا يُتخيل من يسمع هذا البيان العزيز المنور ولا ترتعد فرائصه. حيث إن الإنسان مهما كانت منـــزلته يشعر من حين لآخر بحاجة إلى إبلاغ شيء إلى الآخرين، فهذا الحديث الشريف وأمثاله يحول دون تردي مستوى الإرشاد والتبليغ. وعلى الرغم مما في هذه المسألة من عناصر تهديد كثيرة، فإن مصادفة المتردين الذين يجولون في وديان الضلالة مستمرة. فهذا النمط من الناس ينتجون الكلام دون انقطاع في شاشات التلفزيون وأعمدة الصحف والمجلات ويتكلمون عن الدين والإيمان والقرآن بينما جباههم ملوثة لم تر السجود، خاوية قلوبهم من الإخلاص، و مشوبة بالشؤم خالية من الصدق. فهذه الأرواح البائسة لا تعلم أن تسعاً وتسعين بالمائة من الدين ذات علاقة بالفرد نفسه، فإذا لم يراع الفرد هذه الأمور يُعد ثرثاراً مهذاراً أو مجادلاً عنيفاً.

عندما يعدد القرآن الكريم أوصاف المرشد الأساسية لا يهمل أن يذكّر بخصائص المنافقين، فإن سرد ما يبتعد عنه المرشد ويتجنبه يحرز أهمية بمثل أهمية ما يعمله المرشد ويدافع عنه. فيستعمل القرآن الكريم عند وصفه المنافقين أسلوباً يُنَفّر المؤمنين عنه.

والقرآن في هذا المجال يحشد تحشيدات هائلة حتى يذكر خطرات قلوبهم وخباياها، وهواجسهم الداخلية وخفاياها، بـــل حتى نياتهم ويعرضها أمام الأنظار، بل أحياناً يعرّف قامتهم وطبائعم، فتأملوا في هذه الآية الكريمة ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾(المنافقون:٤). وكماً نرى من الآيـــة الكريمة أنهم عُرّفوا بخطوط النفاق العامة تعريفاً واضحاً بيّنا لا يقبل الشك. أي إن القرآن يعرضهم عرضاً واضحاً لا أوضح منه لا يفلت منه شيء... في أجسامهم وحركاتهم وسماتهم وكلامهم وسلوكهم وأطوارهم.. فهم قادرون على جمع جمّ غفير من الناس وجعلهم يتبعونهم كالقطعان بخطبهم الساحرة وبما أوتوا من لباقة وفصاحة، وكأنهم خشب مسندة. وبتعبير واضح إنهم أعداء. والقرآن الكريم

يذكر هذا لكل عليم اللسان في الماضي والحاضر ممن يتمشدقون باسم الدين والأمة والوطن من دون أن يؤدوا شيئاً يُذكر. فالقرآن يخاطب أمثال هؤلاء بأسلوب تهديد جاد: لا تفسحوا مجالاً للباطل في صفوفكم فلا تثيروا النقائض والمعاكسات في صفوفكم.

نعم، إن هذه الأطوار التي ذكرت علامةً للنفاق، يرتعد منه ويرتعش كل من يعمل لأجل الحق وباسمه. فهي من النقائض التي يمكن أن يقع فيها كل إنسان كل آن. ولهذا فالذين يعملون في ميدان الإرشاد عليهم أن يكونوا حساسين دقيقين جداً.

هـ- التبليغ والارتباط بالله

إن أقوال وأحوال المرشـــد تكون مؤثرة بقدر إخلاصه. فإن انعدم الإخلاص فلا تأثير لفخامة الكلام واحتشامه. حتى يصح أن نقول: إن الاهتداء ليس له علاقة قوية بالتبليغ والإفهام. لأنه بيد الله ســـبحانه. فإن لم يرد الله الهداية لشخص لا يكون أحد وسيلة لها قط. وفي القرآن الكريم: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾(القصص:٥٦). لذا فأصل المسألة هي الارتباط بالله الذي لـــه مقاليد خزائن الغيب والحاضر، والهداية خزينة عظيمة فمفتاحها أيضاً بيده بلا شك. فالألزم إذاً للمرشد والمبلّغ أن يلجأ إلى القدير الذي بيده مفاتيح كل شيء في أثناء تبليغ شيء ما إلى المخاطب بإخلاص تام.

ولقد أتى ورحل من هذه الديار ذوو عقول جبارة، أتوا ورحلوا، وعلى الرغم من مستواهم الرفيع في البيان والخطابة لم يتمكنوا من جمع بضعة أشخاص على أمر جاد، فلم يكونوا مخلصين في بعض نواحيهم، حيث كانوا يتصورون أن كل شيء من عندهم ويربطون كل نتيجة بأنفسهم. فيهم دهاة في البيان، كانوا يستطيعون أن يجعلوا ألوفاً يسيرون وراءهم ولكن لم يحصلوا على شيء لتلوثهم بالنفاق، ففيهم من يتكلم عن الصلاة وهو لا يصلي، وفيهم من يتناول شرح

حسن الإسلام ولا يعيش به، لسانهم يغرد كالبلبل وقلوبهم تنبض بالحقد والكراهية والأغراض الشخصية. ومن هنا عدّ القرآن النفاق في الدرك الأسفل من النار. ولهذا فإن على كل مبلّغ مخلص أن يسجد لله خمسين مرة ويلجأ إليه من احتمال دخول النفاق فيه ويتوسل إليه ليرزقه الإخلاص.

نعم، الهداية بيد الله، فكما أنه تعالى هو الذي يعطى الإنسان قوة البدن، فهو كذلك يمنح القلب الإخلاص. لذا لا يحق للمبلغ أن يدّعي تملك أيٍّ منهما ولا يقول: أنا الذي عملت، أنا الذي فعلت!.

إن الصورة المثالية التي رسمها القرآن للمؤمن أن الإيمان وحدة القول والعمل وتكاملهما. والمحافظة على هذا التوازن سبب مهم للتأثير. وقد يتوهم أنه "لو لم يعمل المجاهد و لم يتجنب المعاصي، كفاه تفهيم الصواب والشيء الجميل" ولكن هذا الكلام من همسات الشيطان وهمهمته ولا علاقة له قط بالروح المحمدية.

لقد ظهر في أيامنا هذه عدد غفير من العقليات والأفكار الخيالية المدّعية والحداثية، فضلاً عن أنهم يملكون من قوة الذكاء الخداعي ما يظهرون الأسود أبيض يشرحون الإسلام يمنة ويسرة لكن ليس وراءهم حتى حفنة من المؤمنين المخلصين، لأنهم ليسوا مخلصين صادقين؛ يتكلمون كثيراً، ولكن لم يألفوا الإيمان والإسلام في نفوسهم مثلما ألفوا الكلام، وحياتهم الدنيوية ومعيشتهم منصبغة بباطل النظام الغربي لا بحسناته. فعندما يريدون أن يرشدوا العوام والمجتمعات يجعلوهم غرباء، وهم بدورهم يصبحون كأجانب إزاء مجتمعهم.

والسبب الأهم في هذه المفارقات هو الجهل بالإسلام، وعدم القيام بحقه بعد القراءة والدرس والتحصيل. أو بمعنى آخر إن سلوكهم هذا مخالفة ضمنية لما يدّعون النضال في سبيله، واستهانة بما يزعمون أنهم يكافحون لأجله.

انظروا إلى القرآن الكريم، كيف يستنطق سيدنا شعيباً عليه السلام ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾(هود:٨٨)، أي أنني لا أفكر فيما انتفع منه

فيما أنهاكم عنه، أي عندما أقول: إن الربا حرام فلا أفكر بأخذ الربا قط، وعندما أقول الرشوة حرام فلا يرد ببالي أخذ الرشوة قط. فعندما بلّغ سيدنا شعيب عليه السلام قومه كان هذا ضمان صدقه. أليس هذا هو شهادة صدق كل نبي؟ هذه الملاحظات لا يمكن أن يهملها من يتصدى لوظيفة الإرشاد.

فسيدنا شعيب عليه السلام يدعو قومه إلى الله ويرشدنا أيضاً إلى أمور في الإرشاد. فهو يذكر أسس الدعوة. والقرآن الكريم يوضح ذلك مرة أخرى ويضعها أمامنا.

والرسول الأعظم ﷺ، يعمل أضعاف أضعاف ما يبلّغ ويقول. فهو أعبد الناس طراً، ومرتبة النبوة لا تفوقها مرتبة قط ولا يقاس معها شيء. فعند ما عرج به ﷺ إلى السموات العلى عرج بجناح العبدية لله، أي سبقت عبديته نبوته، فأصبحت مقدمة لها. والقرآن الكريم يأمره بهذا في قول الله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾(الحجر:٩٩). وهو ﷺ يأتمر بالأمر الرباني ولا يحيد عنه قط وهكذا كان طوال حياته المباركة. فلم يغادر العبدية لحظة واحدة. فكان كلامه يستقر في الأذهان ويقرّ في الوجدان. ذلك لأنه يقول ما يفعل ويحيا به، حتى في أشد حالاته، ومثال ذلك ترويه أمنا عائشة رضي الله عنها لما سئلت: "أخْبِرينا بأعْجَبِ شَيءٍ رَأَيْتِه من رَسول الله ﷺ. -قال: فسكتت ثم- قالَتْ: لَمّا كان لَيْلَةٌ من الليالي قال: يا عائشةَ ذَرِيني أَتَعبّدُ الليلةَ لِرَبّي. قلتُ: والله إني لأُحبّ قُرْبَكَ وأُحبُّ مَا سَرَّكَ، قالت: فقامَ فتطَهّر ثمّ قامَ يُصَلّي، قالت: فلَمْ يَزَلْ يَبْكي حتى بَلّ حَجْرَه قالت: ثم بَكى فَلَم يزل يَبْكي حتى بلّ لحيتَه، قالت: ثم بَكى فلم يزل يبكي حتى بلّ الأرضَ. فجاء بلالٌ يؤذنه بالصلاة".[١]

فهذا النبي العظيم والرسول الكريم بلا شك خطيب يدعو إلى الله، وأعظم جانب من جوانبه الجليلة كلها جانب عبوديته لله التي لا تجارى قط، فقد كان يرغب أن يعبد ربه في أيامه الأخيرة المليئة بالآلام والمرض كما

(١) الصحيح لابن حبان، ٢/ ٣٨٦.

ابتدأها في أول يوم وأدامها إلى ذلك اليوم. علماً أن الجلوس والقيام كان عسيراً عليه. ولقد تحمل من الآلام والمصاعب طوال حياته ما لا يتحمل غيره يوماً من أيامه.. من زوجاته الطاهرات ومن أولاده.. من أمته لأمورهم الدنيوية والأخروية، حتى وهنت قواه الجسدية.. وعلى الرغم من كل هذا لم يفتر حتى عن النوافل التي ابتدأ بها. وهذه الصلوات كانت طويلة إلى درجة كانت ركعة واحدة من بعضها قد تستغرق ساعات وساعات، فما كان يستطيع أن يؤديها قائماً فيصليها قاعداً دون أن يتركها قط.[1] يا له من جدّ في الأمور كلها. ويا له من وقار، ويا له من إخلاص ومن وفاء بالعهد.

فقد كان الرائد القدوة في أخذ الأمور بجد ووفاء حتى أتاه "اليقين". أي الموت، إلى الحشر، إلى الأبد..

وجانب مهم آخر من جوانب الإرشـــاد هو ربطه بالقرب الإلهي، والرسول ﷺ أفضل من يمثل هذا الجانب. ذلك إن لم يكن هذا الإحساس بالقرب الإلهي يعش الإنسان في فراغ، فيبقى مع أذواقه وحظوظه، فتأخذ به إلى مزالق خطرة.

فلقد كان الرسول ﷺ يؤدي وظيفة الإرشاد على أفضل وجه، وهو في قربه إلى الله دون تقصير حتى كان كثيراً ما يؤدي الصلاة والمؤتّمون يتصورون أنها لا تنتهي. وهكذا كان تضرعه ودعاؤه، وكأنّ يديه الشريفتين معلقتان بالسماء لا تريدان النـــزول بعد رفعهما للدعاء والتضرع.

وذات مرة وافق بأن ابن مسعود كان عند رسول الله ﷺ واقتدى به في إحدى صلواته النافلة فأراد أن يغتنم هذه البركة.. ولنستمع إليه مباشرة؛ يقول: "صلّيتُ مع النّبيّ ﷺ ليلة فلم يزل قائما حتّى هَممتُ بأمرِ سَوْءٍ قلنا: وَمَا هَمَمتَ؟ قال: هَممتُ أن أقعدَ وَأَذَرَ النَّبيَّ ﷺ".[2]

---

(١) انظر إلى: البخاري، الأذان ٥١، ٨٢.

(٢) البخاري، التهجد ٩؛ مسلم، المسافرون ٢٠٤؛ أحمد بن حنبل، المسند ١/٣٨٥-٣٩٦.

وهكذا فإنه ﷺ يزاول العبودية أكثر من أي أحد بكثير ثم يتكلم عنها للناس. فقد كان سبّاقاً في هذا الأمر إلى حدّ أن ابن مسعود -وهو من الرعيل الأول من الصحابة الكرام- لم يستطع أن يتحمل ركعتين من صلواته.

وكان كالشمس تميل إلى الأفول، فوضع رأسه على ركبة أمنا عائشة وهو في أيامه الأخيرة، وسدد نظره إلى الملأ الأعلى. كان تعباً جداً ومهموماً بالآخرة، حتى كان يغمى عليه أحياناً، تصف حالته هذه أمنا عائشة فتقول: "ثَقُل النبيّ ﷺ، فقال: أَصَلَّى النَّاسُ؟ قلنا: لا، هم ينتظرونك، قال: ضعوا لي ماء في الْمخضَب. قالت: ففعلنا فاغتَسَل فذهب لِيَنُوءَ فَأُغْمِيَ عليه، ثُمّ أَفَاقَ. فقال ﷺ: أَصَلَّى النَّاسُ؟ قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله. قال: ضَعُوا لي ماء في المخضب. قالت: فقعد فَاغتَسل ثُم ذهب لِيَنُوءَ فَأُغْمي عليه ثُمّ أفاق. فقال: أَصَلَّى النّاس؟ قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله فقال: ضَعوا لي ماءً في الْمخْضَبِ فقعد فاغتَسل ثُم ذهب لِيَنُوء فأُغمي عليه ثُمّ أفاق. فقال: أَصَلَّى النّاس؟ فقلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله".(١)

وهكذا أمضى حياته بقوله: الصلاة... الصلاة... ولقي ربه وهو يردد.. الصلاة.. الصلاة. كان يفكر دائماً بالصلاة ويحيا بها بشعور كامل. وهكذا كان قدوة حسنة وأسوة كاملة، في جميع جوانبه... كان إنساناً كاملاً حقاً، وسيداً مطاعاً، ورئيس دولة عادلا صابراً.

ومن الخصائص الجديرة بالاهتمام لمن يتصدى لوظيفة الإرشاد هو: أن لايغيب عنه الحياة المتواضعة للرسول الأعظم ﷺ، وكونه مع الصحب الكرام في كل شأن من شؤونه.

فإن اقتضى بناء مسجد فهو أول من يحمل اللبنات معهم، أو إن كان الأمر يقتضي حفر خندق تَرَهُ حاملاً للفأس يعاون أصحابه في كسر الصخور.(٢)

---

(١) البخاري، الأذان ٥١؛ مسلم، الصلاة ٩.

(٢) انظر: أحمد بن حنبل، المسند ٣٨١/٢؛ البداية لابن كثير، ٢٥١/٣، ٩٧/٤؛ المغازي للواقدي، ٤٤٦/٢.

نعم، إنه كان كأحدٍ من الناس. ويحيا بهذا الكلام عملياً. وإذا دعا الناس إلى الزهد في الدنيا فهو أسبقهم في الزهد، حتى إنه ما كان يوقد في بيته نار حتى للحساء شهراً تلو الآخر. وما كان يجد في بيته ما يستريح عليه من فراش.[1]

كان وَقَّافاً عند الحرام، فقد انتفض مرة من مكانه عندما شاهد أن الحسن ﵁ قد وضع تمرة من الصدقة في فمه، وأسرع في إخراجها من فمه.[2] علماً أن الحسن ﵁ في ذلك الوقت كان ابن خمس أو ست سنوات. إلاّ أن الصدقة حرام على الرسول ﷺ ومن يأتي من نسله.

في ليلة من الليالي وجد ﷺ "تحت جنبه تمرة من الليل فأكلها فلم ينم تلك الليلة. فقال بعض نسائه: يا رسول الله أَرِقْتَ البارحة. قال: إنّي وجدت تحت جنبي تمرة فأكلتُها وكَان عندنا تَمْر من تمر الصّدقة فخَشِيتُ أن تكون منه"[3].. والحال أن تلك التمرة كان من ماله الخاص، لأنه كان يضع تمر الصدقة في موضع مخصص.

فهذا مثال للحساسية والدقة في تجنب الحرام، فلا بد أن يتصف به المؤمن الكامل والمرشد الكامل.

و- التبليغ والدعاء

بعد كل ما ذكرناه سابقاً فللرسول ﷺ جانب الدعاء أيضاً. فلا نغادر هذا الفصل دون الكلام حوله. نعم إنه ﷺ يوصى أصحابه الكرام بل أمته قاطبة أن يتكاملوا بالدعاء وينبهُهم بآيات كريمة أمثال: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ﴾(الفرقان:٧٧) فكان في دعاء دائم، ففي نومه ويقظته، وفي مأكله ومشربه، وفي ملبسه ونــزعه الثياب، بل حتى دخوله الخلاء والوضوء.. كثير الدعاء إلى حد لا يجاريه أحد في كثرة الدعاء في الدنيا

---

(١) انظر إلى: البخاري، الرقاق ١٧؛ مسلم، الزهد ٢٨؛ أبو داود، اللباس ٤٢.

(٢) انظر إلى: البخاري، الزكاة ٦٠؛ مسلم، الزكاة ١٦١.

(٣) المسند للإمام أحمد، ١٩٣/٢.

كلها. نعم لا أحد غيره ﷺ يذكر الله في كل خطوة يخطوها ويلتجئ إليه في كل شأن من شؤونه ويبصر في كل شيء رضاه تعالى.

فهذه الحياة المليئة بالعبر والطافحة بالعظات لفتت أنظار العالم الإسلامي أجمع، وبجميع مستوياته فهو يتابع باهتمام بالغ وبارتباط وثيق منذ أربعة عشر عصراً. فلم يحظ أحد غيره ﷺ على وجه الأرض بهذه العلاقة القوية.

هذه الحياة المهيبة كأنها تصور جميعها بالأفلام، بدءاً من مأكله ومشربه ومن ملبسة إلى قيامه ومن جلوسه ومن كلامه إلى أسلوبه في الخطاب ومن مواقفه السياسية إلى عقده المعاهدات بين الدول.. هذه الحياة العظيمة قيدت في ذاكرة الجماهير وضمن الشعور الاجتماعي حتى أصبحت صمام أمان للمجتمعات المؤمنة. فليس في هذه الحياة فراغ أو جزء مبتوت الصلة بالله قط. فكل طور من أطواره ﷺ وكل حال من أحواله مضى مرتبطاً بالله سبحانه وفي عبادة وطاعة لله تعالى حتى في مأكله ومشربه ومنامه ويقظته.. ولأجل هذا انطبعت جميع أحاديثه وأقواله وأطواره وأحواله في حياة الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين. وإن الدقة الشديدة لدى الصحابة الكرام في إدامة الحياة الدينية نابعة من هذه الدقة الشديدة التي شاهدوها لدى الرسول الكريم ﷺ.

حتى أنه عندما نـــزلت الآية الكريمة ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾(آل عمران:١٠٢) انقطع الصحابة الكرام عن الأكل والشرب، إذ كيف كان يمكن التقوى من الله حق تقاته بغير هذا. زيادة على ذلك ﴿وَلا تَمُوتُنَّ إِلاّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ التي تعقب الآية تشير إلى أن الموت مسلماً عسير إن لم يكن على تقوى من الله حق تقاته. فاشتد على الصحابة العمل فقاموا في بيوتهم منقطعين للعبادة والصلاة حتى تورمت أقدامهم وتقرحت جباههم ولم يغادروها إلاّ لصلاة الجماعة في المسجد. وبعد مرور بضع عشرة يوماً إذا هم هزال ضعاف حتى أشرفوا على الموت. والرسول ﷺ على علم بهذا الوضع،

ولكن ما كان يعلم السر في هذا التحول الآني الذي حصل فيهم، وهم بدورهم لم يبوحوا بما تكن صدورهم خشية مخالفة أمره تعالى. وبعد ذلك نـــزلت الآية الكريمة: ﴿فَاتَّقُوا اللّٰهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾(التغابن:١٦) فتنفس الصحابة الكرام الصعداء ووجدوا شيئاً من الراحة.(١)

نعم هكذا كان الصحابة الكرام دقيقين إلى هذا الحد أمام الآيات الكريمة، وكانوا لا يجاوزونها حتى يحيوها حياة حقيقية. ذلك لأن رائدهم ﷺ كان على هذا الأمر، وفي الحقيقة دامت هذه الحالة وبهذا العمق بضعة عصور أخرى.

وهنا أمر لا بد أن يفهم جيداً: وهو أنه لا تعدّ وظيفة التبليغ قد أعطيت حقها إلاّ إذا أُخذ طرز فهم الإسلام والعيش به بنظر الاعتبار. أي يصبح الإسلام حياة معيشة بأصغر تفرعاته كما هو لدى الصحابة الكرام بكل دقة وأمان.

نعم إن وظيفة التبليغ تحوز خصوصية معينة، فالأفضل أن تؤخذ موضوعاً مستقلاً. إذ لا تفهم إلاّ ضمن الحياة ومعها في معايشة تامة، ولا تبنى على الافتراضات والتصورات الخيالية. هذا وإن مرشدين نورانيين يرشدوننا بحياتهم المعيشة منذ أربعة عشر قرناً. فكانت حياتهم كلها وجميع أطوارهم على هذا المنوال. فنالوا التوفيق من الرب الجليل لما تمتعوا به من صدق وإخلاص. ونحن إن كنا نريد الفلاح مثلهم فليس أمامنا سبيل إلاّ اتباع أثرهم ومتابعتهم في حياتهم المعيشة.

فهذا سيدنا عمر رضي الله عنه، وقد أصيب بطعنة وهو قائم يصلي، فغشي عليه، وعجز عن الأكل والشرب، ولما سأله الصحابي الذي كان يعاونه في أموره: ألا تأكل شيئاً، أومأ بعينه: كلا. بمعنى ما كان ليستطيع أن يفتح فمه ليتكلم. ولكن ما إن قرب وقت الصلاة وقرّب الصحابي فمه إلى أذن سيدنا عمر

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ١٦٦/٨.

وهمس: أن حان وقت الصلاة حتى اعتدل عمر في مجلسه وقال: صلاتي.. صلاتي.. نعم هكذا شاهد من رسول الله ﷺ.

نعم إن ذلك الرجل العظيم لفظ أنفاسه الأخيرة بقوله: الصلاة الصلاة بعد أن طُعن في الصلاة.[1] ومثال آخر من أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها "أنّها ذَكَرت النّار فَبَكت. فقال رسول الله ﷺ: مَا يُبكيك؟ قالت: ذكرتُ النَّارَ فَبَكَيْتُ".[2] لماذا؟ لأنها رأت الرسول ﷺ هكذا كل ليلة وعرفته هكذا. فلقد ربّاها الرسول الكريم وعجنها بالتبليغ العملي.

إن الصحابة الكرام لا يظهرون الدقة والحساسية في تبليغ الصلاة فحسب، بل في سائر الأركان الإيمانية والدينية أيضاً كما يظهرونها في الصلاة، لأنهم تعهّدوا أمر التبليغ من الرسول الكريم ﷺ. ولكي يكون تبليغنا ذا أثر لا بد أن نعايش الحياة الدينية كما كانوا يعايشونها.

ومن جهة أخرى يجب ألاّ تسوقنا تبعات العمل في التبليغ والإرشاد وتكاليفهما إلى التراخي في الأعمال الأخرى قطعاً، بل يجب أن يحضنا حضاً إلى تطبيق ما نقول وتنفيذه في حياتنا بشوق أعمق مما لدى المخاطبين لنكون موثقين معتمدين. إذ الأطوار والأحوال التي لا تتطابق مع الأقوال تعني مخادعة وهدماً لاعتبار الإنسان.

انظروا إلى سيد المرسلين ﷺ هل أظهر إهمالاً قط حتى في أصغر شيء في الحياة الدينية رغم كثرة الأعمال التي تنتظره؟ فلقد أسس في فترة قصيرة خلال ثلاث وعشرين سنة دولة عظيمة جليلة. وكان ذا اهتمام بكل مشاكل أفراد أمته وذا علاقة بهم. ورغم أن الأعمال التي تحيط به تسع الدنيا لم ينس أفراد عائلته، ولم يتوان في أي عمل كان من الأعمال، حتى كان الله سبحانه يطلب منه كثرة الاستغفار والدعاء في انتصاره وظفره

---

(١) انظر: مجمع الزوائد للهيثمي، ١/٢٩٥؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ٣/٣٥٠– ٣٥١.

(٢) أبو داود، السنة ٢٥؛ الحاكم، المستدرك ٤/ ٦٢٢.

في الفتوحات وكان لا يتحرك إلاّ بما كان يأمره ربـــه.[1]

وكذا سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ لم يترك صلاة التهجد مع أنه كان في جهاد شاق مع المرتدين، وفي قلق بال دائم ليل نهار ولم يتوان عن تلاوة القرآن باكياً.[2] وسيدنا عمر ﷺ الذي أركع دولتين عظيمتين، هما الفرس والروم، لم يتوقف لحظة عن مجاهدة نفسه.[3]

وسيدنا عثمان ﷺ عندما أحاطت به الفتن كان صائماً تطوعاً لله ويتلو القرآن دون ارتواء، واستشهد على هذه الحالة، وقطرات الدم التي سالت من جبهته ختمت ختم الأبدية على صفحات المصحف المفتوح أمامه. حتى إن الآية التي نـــزلت عليها القطرات ذات عبرة عظيمة وهي: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّٰهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(البقرة:١٣٧).[4]

وسيدنا علي كان الحيدر الكرار أي الأسد الهصور في سوح الحرب، ومع هذا كانت تتجافى جنوبه عن المضاجع داعياً ربه وساجداً له، وكان يصفرّ وجهه عند سماعه الأذان ويرتعش كمن به حمّى.

فهؤلاء جميعاً يؤدون وظيفة الإرشاد على أفضل وجه.[5] فلا بد لمن يؤدي وظيفة الإرشاد والتبليغ أن يكون مخلصاً في إجراء قوله عملاً، مهما كان عمره وأيا كانت وظيفته. فكما يمكن أن يكون هذا المبلغ شيخاً أو إماماً في مسجد أو واعظاً فيه أو معلماً في مدرسة أو أستاذاً جامعياً، يمكن أن يكون كذلك عاملاً في معمل أو طالباً في مدرسة، فالكل لا بد أن ينفّذ ما يقوله حسب ظروفه وموقعه ويؤدي ما عليه دون نقصان أو قصور.

---

(١) انظر: سورة النصر.

(٢) انظر: حياة الصحابة للكاندهلوي، ١٤٣/٣؛ حلية الأولياء لأبي نعيم، ٣٠/١.

(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم، ٤٨/١، ٤٩؛ أسد الغابة لابن الأثير، ١٥٧/٤؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢٩٣/٤.

(٤) انظر: أحمد بن حنبل، المسند ٧٢/١؛ أسد الغابة لابن الأثير، ٥٩٤/٣؛ حياة الصحابة للكاندهلوي، ٢٨٦/٣.

(٥) انظر: صفة الصفوة لابن الجوزي، ١٢٨/١.

ومهما كان الموضوع يحرز أهمية في أثناء الإرشاد والتبليغ فإن إخلاص المبلّغ نفسه بنفس الأهمية. والتي يشير إشارة مهمة إلى إخلاص المرشد هو شعوره بما يقول في أغوار وجدانه ويعيش بـــه بأكمل وجه. فالتبليغ غير المقارن بالإخلاص والعمل لا تأثير له أو قليل التأثير مهما أحرز من نجاح. ومن جهة أخرى فإن هذا العمل (التبليغ) له وجهه الآخر المتعلق بالآخرة، وهو عذاب الله تعالى. يقول الرسول ﷺ موضحاً لوحة من الآخرة على الصورة الآتية:

"مررتُ ليلةَ أُسري بي على قوم تُقرض شِفاههم بِمَقَارِيضَ من نار – قال– قلت: مَن هؤلاء؟ قالوا: خطباء من أهلِ الدّنيا كانوا يأمرون النّاس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أَفَلا يعقلون".[1]

نعم، اللوحة ماثلة أمامنا. وهذا هو موقف الذيـــن نسوا أنفسهم ولا يعملون بما يقولونه للنـــاس. فالوقت الحاضر بحاجة الى الذيـــن يفعلون بما يقولون وليس إلى المجادلين والمتحذلقين. فهؤلاء يمكنهم ان يحلوا العقد المستعصية في أفق نجاتنا وخلاصنا وليس غيرهم. فالذين حملوا أسفاراً، أو يولدون الكلام ليل نهار صفر اليدين أمام مهمة نجاة الأمة. فعندما انهارت الدولة العثمانية كانت خزانتها مليئة بمئات الألوف من الكتب ولكن هذه الكتب لم تتمكن أن تحول دون سقوط دولة عظيمة. فوجود تلك الكتب في رفوف المكتبات، والمعلومات المخزونة المصففة في حافظة الإنسان لا فرق بينها من حيث الكيفية. فالأصل هو العمل بما علم. فقد قال الرسول ﷺ سيد الكائنات في حديث شريف هذا المعنى كالآتي: «إنّ أخوف ما أخاف على أمّتي ثلاثٌ: زَلَّةُ عالمٍ، وجِدالُ منافق بالقرآن، ودنيا تُفتح عليكم».[2]

نعم إذا ما نافق العالم وخادَع وتحذلق المنافقُ، فقد حقت نهاية هذه الأمة.

---

(١) أحمد بن حنبل، المسند ٣/١٢٠ – ٢٣١، ٢٣٩.

(٢) المعجم الكبير للطبراني، ٢٠/ ١٣٨.

فكل من كان في موضع المرشد أو المبلغ لا بد أن ينتبه بدقة إلى هذه النقطة. إذ كثيراً ما نغفل عنها، ونقطة ضعفنا في وظيفة الإرشاد، سواء أفراداً أو مؤسسات، هو هذا مع الأسف. ولنتذكر هذا عندما نفكر في معاملة الله سبحانه معنا.

٨- الصفاء والإخلاص

المبلّغ لا بد له أن يحافظ على كيانه وطوره، ونقصد به: أن يظل على ما كان عليه من تواضع وإنكار ذات مهما اعتلى من مقامات ومناصب. ولا جرم أن التواضع من أسس الإسلام وصلبه. في حين تتمركز العلاقات بين الأفراد في النظم الأخرى حول "أنا"، فـ"أنا" هؤلاء ينطوي دائماً على التكبر والغرور. فيشغل الغرور والتكبر موضع التواضع ويشغل الإعجاب بالنفس والتعالي على الآخرين محل إنكار الذات.

ومن المعلوم أن أنواعاً من الضعف البشري تدور حول "أنا" في كل إنسان، لذا إن لم تتخلّ هذه الأنواع من الضعف عن مكانها للفضائل، تتهاوى جوانب الإنسان المعنوية. ومن هنا أؤكد وأقول: لن يكون مرشداً ومبلغاً قط من ينطوي على غرور وكبر مهما ارتقى في مقامات عالية وتسنّم وظائف جليلة. فهو أبعد بفراسخ عن التبليغ، والتبليغُ أبعد منه بفراسخ.

نعم، إن المبلغ يحافظ على وضعه كما هو في كل زمان ومكان وأياً كانت الظروف. فهو ذلك الإنسان الذي لم يطرأ عليه تغيير، ولم يزغ بصره بعدما حاز ما حاز من النصر والتوفيق، وهو الذي ينهي عمله كما بدأ به أول يوم. فحياته التي بدأت على حصير متواضع تدوم تدوم على الحصير، ويلقى ربه وهو على ذلك الحصير، فهو هو مهما تغيّر العالم من حوله، وقامت انقلابات عالمية عظيمة، وافترش الناس النجوم والكواكب، فهو في تواضعه لا يشاهَد منه انحراف قط سواءً في أطواره أو في معاملاته.

وما أحوجنا في أيامنا هذه إلى أمثال هؤلاء المبلّغين المتصفين بهذه الصفات؛ فهؤلاء المرشدون الأقوياء يتمكنون أن يجعلوا الجمّ الغفير من الناس يتبعونهم ويستمعون إلى أقوالهم ويستنشقون أنفاسهم، حتى تشيع نسائم وجدانهم إلى مَن حولهم.

إن أهم ما يتميز به المبلّغ المخلص تواضعُه وإنكاره للذات، فحياته كلها تتسم بالبساطة والفطرية، وقلبه مفعم بالتجرد والبساطة، وعينه مليئة بأنوار البساطة، حتى مسكنه ومحيطه وبيئته لا يشاهد فيها إلاّ التواضع والبساطة.

نعم إنه استلهم هذه الخصلة الجميلة من القرآن الكريم ومن سيرة الرسول الأعظم ﷺ المطهرة. ألم تكن أطواره ﷺ طوال حياته تتسم بالبساطة والتواضع. فكما كان ﷺ في تواضع جمّ أيام بدئه بالتبليغ في مكة المكرمة، كان كذلك في التواضع نفسه عندما دخل مكة قائداً فاتحاً -بعد أن أُخرج منها قبل ثماني سنوات- دخلها بالجيش الذي أنشأه في المدينة المنورة، دخلها وهو واضع رأسه على عنق دابته.. فما أجمل هذا المثال على ازدياد تواضعه وخشوعه لله كلما مر الزمان.

كان عطشاً فطلب ماء. وبئر زمزم حوله أقداح يستعملها الناس. أسرع صحابي إلى إحدى البيوت القريبة لجلب قدح خاص للرسول الكريم ﷺ. وإذا بالرسول يأمره أن يأتيه بأي قدح من الأقداح التي يشرب منها الناس. إنه لم يميّز نفسه عن الناس، وأمر بذلك. إذ قال: أنا واحد من الناس أشرب مما يشربون به. أما أمضى حياته كلها على حصير من ليف النخيل، حتى التحق بالرفيق الأعلى وهو على الحصير نفسه؟ بل دفن في موضع ذلك الحصير. وهو جزء من الروضة التي نعدها أقدس من الجنة. فلم يك في حياته أي اعوجاج قط. وما أظن طريق التبليغ إلاّ هذا.

كان سيدنا عمر رضي الله عنه يحكم أرضا تسع سبع مرات مساحة تركيا في الوقت الحاضر. ومع ذلك لم يتغير طوره في حياته منذ أن أسلم. كان أفقر

أهل المدينة حين تولى الخلافة وأفقرهم حين استشهاده. وقد وردت روايات أنه كان على ملابسه أكثر من ثلاثين رقعة.[1] بل كثيراً ما وجده من يبحث عنه في "البقيع" وهو واضع رأسه على شاهد قبر مستغرقاً في التفكير.[2] نعم هذا هو طرز حياة الخليفة العظيم الذي نـــزع التيجان من فوق رؤوس الملوك وألبسها آخرين. وكان هذا الطرز من الحياة أبلغَ جانبٍ من جوانب تأثيره. ويصح أن نقول: إن هذا هو تأثير لسان الحال الذي هو أبلغ من لسان المقال.

لقد سَمع حاتم الأصم وهو من كبار علماء الحديث عن مرض أحد كبار علماء الفقه محمد بن مقاتل –قاضي الريّ– وقرر عيادته مع أحد أصدقائه فجاءا إلى الباب فإذا هم أمام قصر فخم وليس أمام بيت عالم فتردد حاتم من الدخول ثم دخله تحت إصرار صديقه، ولكنه ندم على الدخول، فداخل البيت أفخم من خارجه. ثم دخلا إلى المجلس الذي فيه محمد بن مقاتل، فإذا بفرش وطيئة وإذا هو راقد عليها وعند رأسه غلام يحرك مروحة ليبترد بأنسامها، فتحولت حيرة حاتم أمام هذا المنظر إلى اندهاش، فمحمد بن مقاتل ليس رجلا من الناس بل عالم جليل ولا شك أن سجادته مبللة بدموع صلاة الليل وقيامه، ولكنه بحاجة إلى الإرشاد من حيث ضعفه ورغبته في العيش الرغيد، وحاتم أهل لهذه الوظيفة ويقدر على إبلاغه ما يفيده. ولهذا بدأ بينهما الحوار.

"فقال له حاتم: علمُك هذا من أين جئت به؟ قال: الثقات حدثوني به. قال: عن مَن؟ قال: عن أصحاب رسول الله ﷺ. قال: رسول الله ﷺ من أين جاء به؟ قال: عن جبريل عليه السلام. قال حاتم: ففيم أداه جبريل عن الله وأداه إلى رسول الله ﷺ وأداه رسول الله ﷺ إلى أصحابه وأداه أصحابه إلى الثقات وأداه إليك

(١) انظر: عمر وإدارة الدولة لشِبْلي النعمانيّ ٣٩٣/٢.

(٢) انظر: حياة الصحابة للكاندهلوي، ٥٨٧/٣.

هل سمعت في العلم من كان في داره أمير أو منعة؟ قال: لا. قال: فكيف سمعتَ مَن زَهدَ في الدنيا ورَغبَ في الآخرة وأحبّ المساكين وقدّم لآخرته كان له ثَمّ الله المنـــزلة أكثر. فازداد ابن مقاتل مرضا. فقال مَن حوله إلى حاتم: ستقتل بكلامك الرجل. قال: بل أنتم بأطواركم هذه تقتلونه.

نعم، إن السكوت أمام الذين درجوا في درب الإرشاد والتبليغ ثم عدلوا عما كانوا عليه -بتوجه الناس اليهم- يعني قتلهم والإساءة إليهم.

وحاتم الأصم أدى ما كان عليه أن يؤديه في ذلك الموقف.

وفي يوم آخر سار إلى الإمام الطنافسي، وهو من العلماء الأعلام في زمانه. وكان في بحبوحة من العيش لعلاقته القوية مع رجال الدولة. فدخل عليه فقال: "رحمك الله أنا رجل أعجمي أحب أن تعلّمني أول مبتدأ ديني ومفتاح صلاتي كيف أتوضأ للصلاة؟ قال: نعم وكرامة. يا غلام إناء فيه ماء. فأُتي بإناء فيه ماء، فقعد الطنافسي فتوضأ ثلاثا، ثم قال: يا هذا هكذا فتوضأ. قال حاتم: مكانك يرحمك الله حتى أتوضأ بين يديك فيكون أوكد لما أريد. فقام الطنافسي فقعد حاتم فتوضأ ثلاثا ثلاثاً حتى إذا بلغ غسل الذراعين غسل أربعا فقال له الطنافسي: يا هذا أسرفتَ. قال له حاتم: في ماذا؟ قال: غسلتَ ذراعيك أربعا. قال حاتم: يا سبحان الله أنا في كفّ من ماء أسرفتُ وأنت في هذا الجمع كلّه لم تسرف.. فعلم الطنافسي أنه أراده بذلك، لم يرد أن يتعلم منه شيئا".[١]

والطنافسي عالم جليل القدر إلاّ أن ارتباطه برجال الدولة ساقه إلى هذا النمط من الحياة. وحاتم الأصم نبّهه إلى ما لا يليق برجل الإرشاد من نمط الحياة.

أما في الوقت الحاضر فالذين يعيشون هذا الطراز من الحياة الباذخة يزلّون -من حيث لا يشعرون- إلى هذا الوســط الذي تزل به الأقدام. إلاّ أن

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم، ٨/ ٨١.

المشاهَد أن هؤلاء الذين لم يستطيعوا وجدان ذواتهم يريدون إتمام ما هو ناقص من شخصياتهم بالحياة الباذخة.. وهذا نابع بلا شك من شعور بالنقص. والمتكاملون بشخصياتهم يترفعون عن مثل هذه الوسائل البسيطة. والمبلّغ أو المرشد هو الإنسان المتكامل بشخصيته. لذا لا يرد بالبال استشرافه لمثل هذه الحياة المرفهة.

إن إنكار الذات علامة الوقار والعظمة. ومتى ما أدرك المرء أنه واحد من الناس يدرك كونه إنساناً. والذين يُعظَّمون بأسباب عرضية ما إن ترفع تلك الأسباب حتى يتلاشوا وينتهوا. فإن كان الغنى والمال والملك والمقام أسباباً لكبرهم وعظمتهم، فذهاب هذه الأعراض من أيديهم يعني اضمحلالهم نهائيا. والحال أن قيمة الإنسان نابعة من غنى ذاته، فتغير الأحوال والأطوار لا يزيد في هذا الغنى ولا ينقص منه ولا يبدل شخصيته بل يبقى بذاته وشخصيته. إذ لا تُعرّف الأعراضُ مَن كان متكاملا بذاته، ولا ينتهي بموته ومفارقته للناس. بل ينصب خيامه في قلوب مئات الألوف. وليكن لا مسكن ولا مأوى له هنا ولتمض حياته على حصير فهو موضع تزاحم الزوار إليه هنا وهناك، وليكن حتى قبره مجهولاً وليس له شاهد قبر..

الخلاصة: إن المبلغين والمرشدين يعيشون عيشة بسيطة فطرية. وعليهم أن يهتموا بهذه البساطة مهما بلغوا من مراتب اجتماعية.

٩- موازين في العلاقات برجال الدولة والأغنياء

المبلّغ والمرشد، لا يكون ذا علاقة وطيدة مع رجال الدولة والطبقة العليا من الناس خارج ضرورة الإرشاد والتبليغ.

يقول الرســـول ﷺ: "شرار أمّتي العلماء الّذين يأتون الأمراء، وخِيار الأمراء الّذِين يأتون العلماءَ".[١]

(١) كشف الخفاء للعجلوني، ٤٦٢٧/٢؛ الفردوس للديلمي، ١٥٥/١.

نعم، إن أهل الإرشاد لا يبقون تحت منّة أحد من الناس، إذ لا يكون كلام من كانت همته مَلءَ بطنه على موائد الأغنياء، والتشبثَ بأبواب رجال الدولة والتملق إليهم، مؤثراً فيهم ولا في غيرهم؛ ذلك لأن الإنسان عبد الإحسان، كما هو مقرر. ولكن إن أتى رجال الدولة والأغنياء إلى المرشدين والمبلّغين فهذا عمل يستحق التقدير كله ما لم يستغل لأمور أخرى. لأن المرشد الحقيقي هو الذي يدل أولئك ويمكنه أن يستشعرهم بما يستنشقه هو من نسائم العقبى، فهذه النسائم اللطيفة تكون استنشاقاً أيضاً لتلك الأرواح الثملة بالحياة التجارية والاجتماعية والإدارية وراحة لهم.

كان يحضر عمر بن عبد العزيز ﵁ جمعا من العلماء، ولا يتوانى عن استشارتهم رغم أنه كان أزهد منهم في الحياة، وكان رجاء بن حيوة من هؤلاء.. وكان رضى الله عنه يذهب بنفسه إلى آخرين ويشاركهم في مجالسهم حتى كان يعدّ ساعة عند عُبيد الله بن عبد الله تعدل العمر كله. ولقد كان ينصت إلى بياناته التي تبعث على الحياة بدقة متناهية، ويسعى للاستفادة منها، علماً أنه كان بحراً من العلوم وبمستوى من يتردد عليهم في الأقل. والحقيقة أن ما جعل عمر بن عبد العزيز في هذه المكانة هو هذا. حتى سعى للقيام بإجراءات تحتاج إلى نصف قرن خلال فترة خلافته التي دامت سنتين ونصف السنة.

ومع كل هذا، فهناك من يورد كلاماً يستحسن فيه التردد على الأمراء بحجة إرشادهم؛ ولكن يتضح بعد مدة أنهم مثلما لم يتمكنوا من إرشادهم أصبحوا هملاً، حتى أضاعوا ما كانوا يتمتعون به من مواهب، ذلك لأن طريق الرسول ﷺ ليس فيه حصر الإرشاد بالمثقفين فقط أو الطبقة الراقية من الناس، ولا فيه مجالستهم وحدهم دون غيرهم، وإنما يحدث ذلك في أوقات الضرورة بشرط ألاّ يكون على حساب الأصل ولتبقى المسافة أيضاً مصونة.

فحين طلب زعماء قريش من الرسول الكريم ﷺ في عهد مكة تخصيص

يوم لهم لا يكون فيه أمثال عمار وبلال وصهيب، وليخصص الرسول المجلس لهم، نـــزلت الآية الكريمة منبّهة وَسَادَّةً جميع الأبواب أمامهم: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾(الكهف:٢٨).

والحقيقة أن روح الرسول الكريم السامية هي بعيدة كل البعد من مثل هذا الاقتراح. والآية الكريمة تبين أن الوضع الحالي للرسول ﷺ هو الوضع المطلوب منه، وعليه الاستمرار عليه وإلاّ لم يمل الرسول ﷺ إلى اقتراحهم.

الخلاصة: أن الرسول ﷺ مرشد والقرآن كتاب يعلّمنا الأصول والموازين في شخص أعظم مرشد على الإطلاق. وقاعدة من تلك القواعد هي طور الاســتغناء عن الأغنياء والمسؤولين في المجتمع وعدم الإعجاب بهم مع الاســتمرار في تبليغهم وإرشادهم. فإذا ما وجد الناس في الوقت الحاضر مرشدين أمثال هؤلاء فقد وجدوا شيئاً عظيماً. وإلاّ سينتظر هذا المجتمع طويلاً ما داموا مستغفلين بأنصاف المرشدين.

١٠– المثابرة

الإلحاح والمواظبة على الأمر وسيلة لجلب الرضى الإلهي، وفي الوقت نفسه علامة على إخلاص المبلّغ وسرّ من أسرار قبول ما يبلّغه في وجدان المخاطبين، وهو أوضح أمارة على جدية المسائل التي يتناولها المبلّغ والمنسجمة مع عظمتها. وهذا يعني: أن الله سبحانه وتعالى يريد من الإنسان أن تستقر كلمة "لا إله إلاّ الله في القلوب، ويولي لها أهمية عظيمة. لذا يوقف المرشد حياته لما هو مهم وجليل عند الله، مواظباً على جعل كلمة التوحيد تستقر في القلوب. فيكون قد قابل بانسجام ما هو عظيم عند الله. نعم إن إلحاح المبلّغ وإصراره يعني هذا المعنى.

وكذا فإن من علامة التقوى في القلب أن يعظّم المرء ما عظّمه الله سبحانه، والقرآن الكريم يشير إلى هذه الحقيقة: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾(الحج:٣٢). والرسول الكريم ﷺ يلقّن أصحابه الكرام باستمرار ما يعظمه الله سبحانه وتعالى من كلمة التوحيد. فيقول لهم: من قال: لا إله إلاّ الله دخل الجنّة".[١] فمثلاً منح الرسول الكريم ﷺ سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه لقب "سيف الله" وهو بعدُ في بداية الأمر مباركاً الفتوحات التي ستفتح بسيفه. ولكن عندما قَتَل خالد بن الوليد بسبب من الأسباب أحدَهم في الحرب وهو يقول "لا إله إلاّ الله" تألم الرسول الكريم من عمله هذا ألماً شديداً حتى دعا قائلاً: "اللهم إني أبرأ إليك مما عمله خالد".[٢]

ولا أنسى ما قال لي أحدهم يوماً -وهو يعدّ نفسه مجاهداً في سبيل الله-: "أتعلم أن الإسلام إذا حكم في يوم من الأيام سيضرب أوّلاً أعناق هؤلاء المساكين الذين يملأون المساجد"، فتجمدت في مكاني أمام هذا الكلام الذي لا يفيد إلاّ الضلالة، والحال أن القائل يظن أنه يقول شيئاً لأجل الإسلام.

فالمبلّغ يلح ويصرّ على ما عظّمه الله سبحانه، لأن ذلك يبين مدى إخلاصه وتفانيه في دعوته. نعم إن مَن لا يضحي في سبيل دعوته عمرَه كلّه لا يكون مرشداً حقاً. بل لا يصح إطلاق أسم المرشد عليه. إذ المرشد يبلّغ مئة مرة، فإن لم يستمعوا إليه يبلّغ للمرة الواحدة بعد المئة وهكذا.. فهو يبلّغ ويبلّغ طوال عمره وينتظر الفرصة السانحة لاكتمال الشروط ولحظة قبول المخاطب، دون أن يساوره امتعاض ولا سخط، مقتدياً بالأنبياء عليهم السلام الذين كانت حياتهم كلها إصراراً وإلحاحاً ومثابرة. فقد بلّغوا الحق للناس دون هوادة.

نعم، لقد مضت حياة الرسول الحبيب ﷺ ثلاثاً وعشرين سنة بالدعوة

---

(١) مسلم، الإيمان ٥٢؛ الترمذي، الإيمان ١٧؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ١٨/١.

(٢) البخاري، الأحكام ٣٥، الجزية ١١؛ النسائي، القضاة ١٧؛ أحمد بن حنبل، المسند ١٥١/٢.

والتبليغ، لم يجد فراغاً من الدعوة، بل بلّغ ودعا وبلّغ ودعا دون توقف ولا نصب. والله أعلم كم من المرات دعا أبا جهل إلى الإيمان، ودعا عظماء قريش إلى الضيافة، فكلما حانت له الفرصة بلّغ الإيمان.

وكان الصحب الكرام في هذه الحالة الروحية من المواظبة والإلحاح، حتى غدت صفةً ملازمةً لهم، وكذا العظماء الذين أتوا من بعدهم اتخذوا المثابرة والإصرار شعاراً لهم.

نعم، الإلحاح والمواظبة نتيجة طبيعية لمدى إدراك المبلّغ وظيفته، إذ على المبلّغ أن يدرك أن وظيفته الأساس هي التبليغ، كيلا يكون قليلَ توقيرٍ تجاه الحق سبحانه وهاضِمَ حقٍّ تجاه الخلق. علماً أن إيصال الناس إلى الهداية ليس في طوق أحد قط، ولا هو داخل ضمن وظيفة التبليغ، فهو نائل ثوابه سواء اهتدى المخاطب أم لا. ومن جهة أخرى فإن إلحاحه على التبليغ هذا وتفكيره الدائم به، بمثابة شفرة سرية لمقبولية الحقائق التي يبلّغها، وانتظاره النتيجة من الله وحده سبحانه بلوغ منه إلى الإخلاص، ذلك الإخلاص الذي هو خلاصة العبادات ومنبع الحياة.

١١- اقتضاء البصيرة، وعدم مصادمة قوانين الفطرة

المبلّغ لا يصطدم قطعاً مع قوانين الفطرة. بل يتخذ البصيرة أساساً في تبليغه، لأن الفطرة مستقرة بالآيات التكوينية، فالتكاليف والأوامر التي تُبلّغ يجب أن تُبلّغ وفق هذه القوانين، أي تؤخذ الخصائص والمزايا التي فُطر الإنسان عليها بنظر الاعتبار؛ فيخاطب وفق تلك المزايا والخصائص. وبخلافه ربما لا يهتم المخاطب بالكلام مهما كان بليغاً وبراقاً؛ لأنه قد لا يفهم كلياً ما يخاطب به أو يعدّه أموراً نظرية خيالية. ولعل في توضيح هذا الأمر فائدة:

فمثلاً: يحمل كل إنسان شعوراً بالمحبة في قلبه، فمن الخطأ عدم اعتبار هذا الشعور أو عَدُّهُ غيرَ موجود. لذا لا يقال للناس: لا تحبوا... فإذا قيل

لهم هذا لم يفد شيئاً سوى أنه تكليف مجانب للفطرة. ولكن المبلّغ يُجري هذه "المحبة" الكامنة في المخاطب إلى سيرها الإيجابي، فيحث المخاطب على أن يحب ما هو جدير بالمحبة وما له البقاء والخلود، بدلاً من إبداء المحبة إلى محبوبات زائلة فانية، فلو صرف محبته إلى الزائلات الفانيات تكون عليه بلاء ومصيبة، بينما إذا وجهها إلى الله سبحانه تكون له وسيلة بلوغ إلى مراتب عنده سبحانه. بمعنى بدلاً من أن يقول المبلّغ للمخاطب: "لا تحب" يقول له: "أصرف الحب إلى من هو ســـرمدي دائمي، أو اصرف حبك لأجله وفي سبيله". وعند ذلك تكون محبة جميع المخلوقات غير محظورة، وقد قال الشاعر يونس أَمْرَه "أحبّوا المخلوقات لأجل خالقها".

وكذا في كل فرد صفة "العناد" التي قد توقع الأفراد بعضهم ببعض حتى تجعلهم كالوحوش الكاسرة. فنرى العناد بوضوح وراء أحداث الاضطرابات والنـــزاعات في الوقت الحاضر. ومتى ما تحكّم هذا الشعور ظهرت الحدّة والغضب والشدة في أمور، بينما إذا ما خلا الموضع من العناد تبرز أطوار متوازنة ومنسجمة. فهذا الشعور الذي في مظهره الخارجي كثير من الجوانب السلبية قد منح للإنسان لغاية معينة وبناء على حكمة ربانية، فمثلاً: العناد قوة عظيمة للثبات على الحق. فإن لم يكن شعور العناد يمكن أن يتراجع الإنسان عن الحق إذا رأى قليلاً من الضيق. بمعنى أننا إذا ما وجهّنا هذا الشعور إلى وجهه الإيجابي يمكن أن نجني ثمرات ونتائج حسنة جداً. ولهذا لا يمكن أن نقول للناس: دعوا العناد جانباً أو اتركوا العناد، بل علينا أن نقول لهم: استعملوا العناد في الثبات على طريق الحق والحقيقة. فهذا أجدى وأسلم.

وفي الإنسان الشعور بـــ"الأبدية" أيضاً، بينما الإنسان ببنائه المادي ليس أبديا فله بداية ونهاية، فالحياة تبدأ بتلقيح البيضة بالحيمن في رحم الأم، وعلى الرغم من أن الموت يأتيه من كل مكان منذ اللحظات الأولى إلاّ أنه لا يتمكن من اقتلاع ما فيه من الشعور بالأبدية، بمعنى أن الشعور لم يُعط له إلاّ

لغاية سامية. ولا شك أن هذه الغاية هي الفوز بالحياة الأبدية. ولأجل ذلك فعلى الإنسان أن يستعمل هذا الشعور الموهوب له في موضعه، أي للبقاء في الجنة ورؤية جمال الله.. وإلاّ سيكون هذا الشعور سوط عذاب له يذكّره بإهماله ويأسه، ولا يستطيع إنسان يتعذب تحت هذا السوط أن يعيش عيشة متوازنة، ولا أن يتصرف تصرفاً متوازناً، ولا أن يحيا بأمان.

وفي الإنسان أيضاً حب "الجاه" والترقي باستمرار، والتسلق إلى ذروة ما يستهدفه من غاية و الوثوب إليها.. هذا الشعور لا يمكن صدّه عند كثير ممن لهم هذا الضعف. ولهذا فعلى المرشد أن يكتشف هذا الشعور في الإنسان ويدلّه على أفق ما يستهدف بهذا الشعور، لئلا يكون كلامه مورثاً لعكس ما يريد. فلقد مُنح للإنسان هذا الشعور كي يحثه إلى أن يستهدف ذرى مراتب الجنة. فضلاً عن أنه يسمو إلى أعلى مراتب الفضائل بوساطة هذا الشعور. نعم يتسامى ويعلو ولكن كشف هذا الشعور والمشاعر الأخرى، وإظهارها ومعرفة قواها ومجراها واستعمالها لصالح من تناولها باسم الإرشاد مرتبط بإدراك المرشد وببصيرته.

نعم، إن المعاناة والمكابدة قَدَرُ هذا الطريق. لذا فالمرشد والمبلّغ يرضى مقدماً بالمعاناة كما رضي بها الأنبياء والصديقون والشهداء والمرشدون الصالحون جميعاً. نعم، إن الحَمَلة الطاهرين للدعوة الإلهية لا بد أنهم يسلكون ما سلك هؤلاء قطعاً ويرون ما رأوا فيه. فإن كان هذا الطريق مسلوكاً فالعدول عنه يعني البعد عن الغاية والهدف. والبعيد عن الغاية لا يصح إطلاق اسم المبلّغ عليه.

فلقد عانى سيدنا نوح عليه السلام عصوراً طوالاً. ونُفِيَ سيدنا إبراهيم عليه السلام في هذا السبيل، وأُلقي في النار في هذا السبيل أيضاً. ولم يبق شيء لم يعان سيدنا موسى عليه السلام من بني إسرائيل، وشُق سيدنا يحيى إلي نصفين. ولم ير وجه سيدنا المسيح عليه السلام الابتسامة. لأن هذه الدعوة ثقيلة، وهذه الدعوة

صعبة. هذه الدعوة تطلب الإرادة كلها. لذا فهذا من أصعب النضال، فالذين لا يقدرون على حب هذا القدر المكتوب، ولا يتعرضون عن رضا الى ما فيه من معاناة ومكابدات لا يمكنهم أن يخطوا خطوات في طريق سلكه الأنبياء. ففي أثناء الطريق تتراخى إرادتهم، وتنهار قواهم ويتساقطون.

يقول حارث بن حارث: "قلت لأبي -ونحن بمنى-: ما هذه الجماعة؟ قال: هؤلاء قوم اجتمعوا على صابئ لهم. قال: فأشرفنا فإذا رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى عبادة الله والإيمان به وهم يؤذونه، حتى ارتفع النهار وانتبذ عنه الناس، فأقبلت امرأة تحمل قدحا ومنديلا، قد بدا نحرها تبكي، فتناول القدح، فشرب، ثم توضأ، ثم رفع رأسه إليها فقال: يا بنية، خَمِّرِي عليك نحرك ولا تخافي على أبيك غلبة ولا ذلاً، فقلت: من هذه؟ قال: هذه ابنته زينب".[١]

فأمثال هذه الحوادث التي حفرت في ذهن الصبا لحارث بن حارث رضى الله عنه وتركت آثارها في روحه كانت جانباً من جوانب حياة العهد المكي بدءاً بالرسول الكريم وجميع المسلمين، فكان كل يوم من أيام حياتهم يمضى هكذا...

وفي يوم آخر كان الرسول يصلي في الكعبة فأتاه من الخلف ابن أبي معيط -الذي هو أشقى قومه- وبدأ بخناقه، فما إن سمع بالخبر أبو بكر الصديق حتى أسرع قائلاً: "أتقتلون رجلاً يقول ربي الله". وفصل بينهما.

وكم من مرة وقع سيدنا أبو بكر مغمىً عليه في أزقة مكة من الضرب، ومرة "ضربه عتبة بن ربيعة بنعلين مخصوفتين وبحرفهما على وجهه ونـــزا على بطنه حتى ما يعرف وجهه من أنفه، وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوب لا يشكّون في موته، ولما تكلم آخر النهار قال: ما فعل رسول الله ﷺ؟".[٢]

---

(١) أسد الغابة للابن الأثير، ٤٣٦/١؛ الإصابة لابن حجر، ٢٧٥/١؛ الإستيعاب لابن عبد البر، ١/ ٣٤٩.

(٢) البداية لابن كثير، ٢٩/٣.

وتكوى أجساد عمار في جهة وأبيه في جهة أخرى وسمية أمه في زاوية أخرى.. كانوا ينقشون قَدَر هذا الطريق على أعمدة من رخام.[1] وعندما كان بلال يئن تحت الصخور الموضوعة على صدره بـــ"أحدٌ، أحدٌ" كأنه يجرى امتحانه ليكون يوماً ما مؤذن رسول الله ﷺ.[2] وطلحة بن عبيد الله كبّلته أمه بالسلاسل وطوفّت به سحلا في الأزقة.[3] والزبير بن العوام يحرق ملفوفاً بالحصير.[4] وهكذا كانوا يعكسون كالمرآة المجلوة لون هذا الطريق.

ولوحة أخرى: عبد الله بن حذافة السهمي رضى الله عنه أصبح أسيراً بيد الروم، فعذبوه لأيام عدّة. "فقال له ملك الروم: تنصّرْ أشركْك في ملكي، فأبى. فأُمر به فصُلب، وأُمر برميه بالسهام فلم يجزع. فأُنـــزل وأُمر بقدْر فصُبّ فيها الماء وأغلي عليه وأُمر بإلقاء أسير فيها، فإذا عظامُه تلوح. فأُمر بإلقائه إن لم يتنصّر. فلما ذهبوا به بكى. قال: ردّوه. فقال: لِمَ بكيت؟ قال: تمنيتُ أن لي مائة نفس تلقى هكذا في الله. فعجب. فقال: قَبّل رأسي وأنا أخلي عنك فقال: وعن جميع أسارى المسلمين. قال: نعم. فقبّل رأسه فخلّى بينهم. فقدم بهم على عمر فقام عمر فقبّل رأسه".[5]

فهذه رواية.. أما الرواية الثانية فتذكر اللحظات الأخيرة كالآتي: عندما كان يخطو عبدالله ابن حذافة بخطوات قويةٍ -والابتسامةُ تعلو وجهه- إلى منصة الإعدام، اقترب إليه أحد القساوسة وطلب ممن حوله من الجنود أن يسمحوا له ببعض الوقت ليحاوره، ثم يتوجه إلى عبد الله بن حذافة مخاطباً له:"انظر يا بني أنك ستعدم بعد دقائق، ولأجلك طلبت دقائق لأحاورك، فإذا استطعتُ أن أفهمك في هذه الدقائق الدين الحق النصرانية فستفوز بالآخرة

---

(١) انظر: السيرة لابن هشام، ٣٤٢/١؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢٤٦/٣- ٢٤٨.

(٢) انظر: السيرة لابن هشام، ٣٤٢/١.

(٣) انظر: السيرة لابن هشام، ٣٣٩/١- ٣٤٠؛ الإصابة لابن حجر، ٤١٠/٣.

(٤) الإصابة لابن حجر، ٥٤٥/١؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ١٥١/٩.

(٥) الإصابة لابن حجر، ٢٩٦/٢، ٢٩٧؛ أسد الغابة لابن الأثير، ٢١٢/٣.

حتى لو فقدت الدنيا. ولربما يرتاح الملك لتصرفك هذا فيعفو عنك".

أجابه عبد الله بن حذافة ﷺ جواباً ملؤه الوقار والجد: أيها الأب العزيز، لا أعلم كيف أقدم شكري إليك في هذا الوقت، فلو كان ديني يسمح لي لقبّلت يدك، لأنك قد أنقذتني من ورطة كبيرة؛ إنها ثقيلة عليّ جداً أن أغادر الحياة و لم أبلّغ شيئاً عن الإسلام لأحد، فأنت الذي أتحت لي هذه الفرصة. فإن كنت أقدر على إفهامك الإسلام في هذه الدقائق القليلة فلا أحزن إن مت. لأنه ربما يكون ذلك سبباً لإنقاذ حياتك الأخروية.

تحير الناس الذين من حولهم بهذا الحوار حتى فغرت أفواههم حيرة وعجباً، لأنهم لا يدركون مدى عشق التبليغ لديه. نعم، يجب أن يكون التبليغ لدى المبلّغ ناراً تؤجج الشوق والاشتياق دائماً، وشمسَه التي لا تغرب ويكون سبباً لإنارة ما حوله، ويكونَ غايةَ حياته. فالطريق إلى النصر والفلاح يمر من المعاناة والقلق. وحالما تنتهي المعاناة الاضطرارية، تبدأ المعاناة الاختيارية. أتريد مثالاً على ذلك، فدونك المثال:

كان الرسول ﷺ يعاني معاناته الاختيارية في المدينة المنورة عندما كان بيت المال يطفح بالغنائم والأموال ولكنه يمر أسبوع ولا يجد ما يشبعه... يقول أبو هريرة: دخلت على النبي ﷺ وهو يصلي جالساً. فقلت: يا رسول الله أراك تصلي جالساً فما أصابك؟ قال: «الجوع يا أبا هريرة.» فبكيت فقال: «لا تبكِ، فإن شدة القيامة لا تصيب الجائع إذا احتسب».[١]

وهكذا تأسس الإسلام العظيم على مثل هذه الأسس الحياتية، ولئن كان الإسلام قد أقام عرشه على القلوب بهذه الأسس فسيقيمه على أكتاف المجاهدين الذين يعيشون بنفس الحالات الروحية ويمثلونها. وإلاّ فهذه القضية العظيمة ليست قضية أساتذة الأقلام وسادة البيروقراطية ومن لم يرَ المعاناة و لم يقاسها.

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم ١٠٩/٧؛ كنـــز العمال للهندي ١٩٩/٧

ونشاهد هذه الحقيقة الكلية في وصية لقمان عليه السلام لابنه، وبالأحرى للشباب الذين هم أعظم الممثلين لأعظم دعوة. والقرآن الكريم يقرر هذه الوصية دستوراً خالداً: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمْ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾(لقمان:١٧).

بمعنى أن الذي يقيم الصلاة ويأمر المعروف وينهى عن المنكر ستتوالى عليه المصائب... وكأن هذه الأمور وجوه لحقيقة واحدة. فالذي يعمل بواحد منها يكون قد عمل بوجه واحد من هذه الحقيقة. وإذا ما عمل باثنين منها معاً يكون قد عمل بوجهين منها، ويكون قد درج في طريق صحيح إلى الله سبحانه.

فالحقيقة هنا لها ثلاثة أوجه، ويتوقف كمال الإنسان على تمثل هذه الأوجه الثلاثة. وأعتقد أن طريق العظماء هو هذا الطريق. ولهذا فعلى المرشحين لتحمّل أعباء دعوة الأنبياء عليهم السلام أن يسلكوا الطريق نفسه. أما أعمال الآخرين وأطوارهم فما هي إلاّ حوادث ومغامرات، وعليه أن يستعيذ بالله من الانحراف إلى مثل هذه المخاطرات المجهولة العاقبة، فلا يعلم أين ومتى وفي سبيل من ستنتهي؟

وقد ذكرت أن عدم التصادم مع قوانين الفطرة، والسيرَ في طريق الإرشاد، والتبليغَ بفراسةٍ وعلى بصيرةٍ ومعرفةٍ بمن سيستخدمون له من الأمور المهمة في الإرشاد.

وأفضل مثال لنا في هذا هو الرسول الكريم ﷺ؛ فالخصائص التي تدل على نبوته لها علاقة بموضوعنا، وهو استخدام كل إنسان في عمل يوافق استعداده. وهذه علامة على فراسته وفطنته في معرفة الأشخاص. فأيّما شخص وظّفه في أمر من الأمور لم يتراجع عنه قط. فهذه الإصابة أو الصواب طوال حياته، شاهد عدل مهم على نبوته.

فمثلاً استعمل حسّان بن ثابت رضي الله عنه لمجاهة الكفار.[1] فكان كل بيت من أبيات قصائد حسّان كالسهم المسموم يصيب الصميم لدى الأعداء. بينما لو استعمل حسّان في ساحة الحرب وأعطى له القيادة فالفوز الذي كان يحرزه هذا الصحابي الجليل ربما كان يتحول إلى هزيمة لدى مقارعة السيوف.

فالذين أرسلهم الرسول الكريم للإرشاد كمصعب بن عمير ومعاذ بن جبل وعلى بن أبي طالب وأمثالهم رضي الله عنهم كانوا يوفقون توفيقاً يحير العقول في كل مكان حلّوا فيه للإرشاد. فلو كان هذا الأمر يُسلّم لخالد بن الوليد رضى الله عنه ربما كان لا يوفَّق مثلَهم. لأنه خُلق ليقذف الهلع والخوف حتى في قلوب الأُسود في ميدان الحرب، فاستخدمه الرسول ﷺ في مثل هذه الميادين. إن أهم خاصية من خصائص المرشد استخدامه الأفراد وفق قابلياتهم. وهذا مرتبط بمعرفة فطرة الإنسان عن قرب. فالذين يتعرفون على نواحي الضعف والقوة في الإنسان ثم لا يتصرفون وفق ذلك، فإن نجاحهم موضع نقاش.

ومن جهة أخرى فإنه لا يمكن الحدّ من الإسراف في الرجال ما لم يستعمل كل شخص في موضعه. فالمرشد هو الإنسان القادر على تلافي هذا الأمر. فهو بعمله وفق قوانين الفطرة يتمكن من أن يحل أعضل الأعمال ويبلغ في إتمامها بسرعة تفوق قوته.

---

(١) انظر: مسلم، فضائل الصحابة ١٥١- ١٥٦.

الفصل الثالث

صورة قلمية لروح المبلّغ

١. الشفقة

٢. التضحية

٣. الدعاء

٤. المنطق والواقعية

٥. التسامح

٦. رهافة الحس

٧. عمق العالم الروحي

٨. الشوق والاشتياق

٩. صفاء القلب ورقة الروح

سنوضح في هذا الفصل، مع فارق بسيط عن الفصل الثاني، أموراً مقرونة بالأمثلة تحت عنوان "صورة قلمية للمبلّغ" كي تتنور طريق رجال الإرشاد من زاوية أخرى. ويمكن أن يعدّ هذا الفصل الذي نقدمه تحت عناوين مميزة خطاباً إلى النفس الإنسانية لعلاقته بشكل الروح للمبلّغ.

١- الشفقة

إن المبلغ هو بطل الشفقة والرحمة قبل كل شيء، لا يتوسل لدفع الآخرين إلى قبول الحق الذي يدعو إليه بالوسائل الخاطئة كاستعمال القوة والخشونة والإكراه. لأن استقرار الإيمان بالله في القلوب ليس بهذه الوسائل قطعاً. بل الشفقة في الإرشاد تليّن القلوب وترقق الوجدان، وتجعلهما تستأنسان وتتهيآن لقبول الإيمان بالله وبرسوله ﷺ.

المبلّغ يدفع مخاطبه إلى التصديق بالإقناع، فيحيطه بعلمه ويجذبه إليه بفضائله. فكل مَن يتعرّف ويشاهد المبلّغ، يشاهده أنموذج شخصية مجهزة بالفضائل. فلا شك أن تسليمه له ورضاه عنه، له أبلغ الأثر في قبول كلامه، بينما الجموع التي قُذف في قلوبهم الرعب، يتوجسون خيفة من شخص المبلّغ الذي يعرض المسائل في جو من الإكراه والاستبداد، فيتهيبون حتى الحقائق التي يعرضها. والحقائق التي يراد تبليغها مهما كانت حيوية وودّية، فالفتور لدى المبلّغين سيترك طابعه على السامعين. فمثل هذه الأطوار لا تأتي بخير قطعاً. علماً أنه لا يحق لأحد كائنا من كان أن يدفع الناس إلى الفتور عن الإسلام والخوف منه نتيجة أخطائه.

لقد اعتلت الشفقة الذروة في أخلاق الرسول ﷺ كما هي في جميع خصاله الأخرى. فلقد أسس ﷺ دعوته العظيمة على ركائز جليلة كالشفقة، وبلّغها في جو دافئ من الحنان والعطف. حيث يقول: «إنّما أنا لَكم مِثلُ الوالِد»[1] وكيف لا، وهو الوالد الرؤوف الرحيم الذي قال حين ولادته: أمّتي...أمّتي.. وبقوله لأمته "أولادي" كأنه يضم إلى صدره الحنون فلذات كبده، فلئن كان ليعقوب وحيده يوسف عليهما السلام، فكل فرد من أفراد أمته يوسفٌ له. نعم، إنه يفتح صدره ليضم كل فرد من أفراد أمته، فرداً فرداً كما يضم الأب الرحيم ابنه الوحيد إلى صدره، وبالمقابل كل فرد من أفراد أمته يحبه أكثر من حبه لوالديه بل حتى من نفسه. بمعنى أن الصفة التي تلازم المبلّغ هي: المحبة النابعة من الشفقة والحنان، والسلوك الذي يقابل بالاحترام. هذه الصفة لها امتياز خاص، لأنه لا محل للمحبة والاحترام فيما يخلو من الشفقة والرأفة..

نعم ربما يُدفع الناس بالقوة إلى إطاعة أمور معينة، إلا أنكم لن تدفعوا أحداً إلى محبة الحقائق التي تريدون تبليغها. وفي الحقيقة ليس أمام الشفقة والرحمة باب مسدود لا يمكن فتحه. فجبال الثلج التي لا تذوّب بالشفقة والرحمة لا يذوّبها شيء قطعاً. لذا إن كنتم تريدون ربط الناس بعضهم ببعض بمحبة دافئة عليكم أن تطووهم تحت جناح الرحمة والشفقة أولاً. وما لم تعفوا عن تقصيرات الناس وأخطائهم، وما لم تظهروا لهم الحقيقة ملفعة بالشفقة والحنان، لن تحلّوا حلاً جذرياً أية مسألة من مسائل الناس الفردية والجماعية. يعلّمنا الرسول ﷺ كيفية سلوكنا أمام أخطاء الأمة وتقصيراتهم بهذه الصورة التمثيلية: "إنّما مَثَلي ومَثَل أمّتي كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدّوابّ وَالفَراشُ يَقَعْنَ فيه فأنا آخِذٌ بحُجَزِكم وأنتم تَقَحَّمون فيه".[2]

(١) أبو داود، الطهارة ٤؛ النسائي، الطهارة ٣٥.

(٢) مسلم، الفضائل ١٧-١٩؛ البخاري، الرقاق ٢٦.

يفتح الرسول الكريم ﷺ بهذا المثال طريقاً واسعاً جداً للإرشاد، ويوضح أن من سار في هذا الطريق يوصل التبليغ إلى جموع عظيمة في المجتمع، بينما النظرات المخالفة والأفكار المباينة لهذا الطريق تؤدى إلى التردي والاضمحلال، وأدهاها دفع الناس إلى الهلاك، وهذه حقيقة.

وإذا ما شملتم قلب إنساننا اليوم بالعطف والحنان، سمعتم صدىً حزيناً منه، لأنه لن يسعد إنسان يغوص في الآثام ويخوض في الرذائل. ولا جرم لا يبقى إنسان برضاه ورغبته في هذه الحياة الآسنة، سوى الذين أظلمت قلوبهم واسودّت وجداناتهم نهائياً وتفسخ عالمهم المعنوي، إلاّ أنه قد زلّ ووقع فيما هو فيه الآن فلا يجد مخرجاً له. فأنتم بأيديكم الشفيقة الحنونة تدلونهم على طريق الخروج الذي يبحثون عنه. فإذا تقربتم إلى هؤلاء بالإشفاق عليهم وبينتم لهم المسائل ضمن رحمة ورأفة موزونة، فسينظرون إليكم وإلى ما تقدمونه لهم من مسائل بعين اللطف، وإن لم يتقبلوها، هذه حقيقة مشاهدة، حيث إنه قد انشرح بالإيمان قلوب من لا نتوقعه من أناس وفيما لا ننتظره من زمان، ولهذا مئات الألوف من الأمثلة. ولأنكم أصبحتم سبباً لهدايتهم فسيظلون طوال عمرهم في شكران لجميلكم، فضلاً عن أنه يسجّل في دفتر حسناتكم مثل ما يقومون به من أعمال صالحة.

ولنوضح المسألة بمثال: تَفَكَّرْ في نشوب حريق في دار فيها عائلة كاملة بأفرادها وأولادها، ولكنك تكرههم، أو تصوّرْ باخرة غرقت وأفرادها –ممن لا تعرفهم– منتشرون على سطح الماء يستنجدون بمن ينقذهم من الموت المحقق؛ فأمام هذا المنظر، لا شك أنك تهرع لإنقاذ أفراد تلك العائلة الذين تكرههم من النار، وإنقاذ أولئك الذين لا تعرفهم من الغرق، بل قد تخاطر حتى بحياتك في سبيل إنقاذهم، ولو أراد أحدهم صرفك عن عزمك هذا فلا تعير له بالاً ولا سمعاً قط، لأن صوت وجدانك أقوى تأثيراً من أي صوت آخر، والحال أن مَن تريد إنقاذهم إنما تنقذ حياتهم التي لا تتجاوز الخمسين أو الستين سنة، فكيف يجب إذن أن يكون موقفنا تجاه أناس نريد إنقاذ

حياتهم الأبدية الخالدة. فالقضية تكمن في إدراك هذا السر، بل أرى أنه من واجب كل ذي وجدان ألاّ يغضب ويسخط على أولئك الأشخاص بل حتى لا يعاتبهم على ما يعملون.

وهكذا على مبلّغي اليوم ومرشديه أن ينظروا من هذه الزاوية إلى الإنسانية الملطخة بالمهالك المادية والمعنوية، الدنيوية والأخروية، و ينظروا في ضوئها لما يقع من الآخرين من أمور حياتية، فلا تليق بالمرشد الحدّةُ والضرب والشدة والفظاظة. أما الكذب والمنافع السياسية فبعيدة عنه بفراسخ عديدة. فالمرشد ليس إلاّ مثال الحب والشفقة والرحمة وفدائيَّ المحبة. ومن تنتظره القلوب الظمآى إلى الإرشاد هو هذا المرشد. وقدوتنا في هذا سيدنا الرسول الأعظم ﷺ. انظروا إليه؛ إنه لأجل أن يقول الناس "لا إله إلاّ الله" مرة واحدة، تعرّض إلى مهالك كثيرة وعانى معاناة شديدة، والحال أن الذين رشقوه وأدموه، وضيقوا عليه الخناق ووضعوا الجزور على رأسه وهو في الصلاة، والأشواكَ على طريقه، ما كان يريد لهم إلاّ هدايتهم و دخولهم الجنة، يريدها حتى لأعدائه. فما كان ينتظر منهم شيئاً لنفسه قط؛ فلقد رُشق بالطائف وأدميت قدمه الشريفة ووجهه المبارك حتى احتمى إلى بستان، كان معه زيد رضى الله عنه، وسعى المَلَك لإمداده قائلاً: "إن شئتَ أن أُطبقَ عليهمُ الأخشبَين"، ولكن هذا الرؤوف الرحيم رفع يديه قائلاً: "أرجو أَن يُخرج الله مِن أصلابهم مَن يعبد الله وحده لا يشركُ به شيئا"[(١)] ولم يرد أن تصيبهم أية مصيبة.

وكذا في ساحة الحرب، عندما انكسرت سنّه الشريفة، ودخل جزء من مغفره في وجهه المبارك وقعت قطرات من دمه الطاهر إلى الأرض، فرفع يديه إلى السماء كأنه يريد أن يصّد غضب الله بالدعاء فقال: "اللهمّ اغفر لقَومي فإنّهم لا يعلمون"[(٢)] فصّد بذلك البلاء الذي قد ينـزل على الكفار.

---

(١) البخارى، بدء الخلق ٧؛ مسلم، الجهاد ١١١؛ البداية لابن كثير، ٣/١٦٦-١٦٨.
(٢) البخاري، الأنبياء ٥٤؛ مسلم، الجهاد ١٠٥؛ الشفاء للقاضي عياض، ١/١٠٥.

وواضح جداً تفجّر الرحمة والشـــفقة من كل كلمة من هذا الدعاء.

أريد أن أشرح ما له علاقة بالموضوع وقد ذكرته في مناسبات عدة، وهو:

شاب اهتدى حديثا، وعندما وجد نفسه في هالة من نور، تردد كثيرا إلى مجالس الذين يغمرهم ذلك النور. وفي إحدى المرات عندما ذكرت تعديات قاسية لا تخطر على بال من الجبهة المخالفة، قام أحد الشباب المتحمسين وقال: "يجب أن يُذبح جميع هؤلاء". وما إن سمع ذلك المهتدي الجديد هذا الكلام حتى اصفرّ واكْفَهَرَّ وجهه. وقال للمتحمس: لا تقل هذا يا صديقي، فلو كنتَ قد نفّذت هذا القرار قبل أيام لما كنتُ الآن بينكم وكنتُ من أهل النار. والحال ترونني الآن واحداً منكم. وإنسان تلك الجهة المخالفة لنا محتاج أيضاً إلى ما شاهدتُه من طيب المعاملة وحسن المعشر. وإلاّ ما نكون إلاّ هدّامين لآخرتهم فحسب. وهذا لا يكسبنا ولا يكسبهم شيئاً.

هذا الكلام الذي أوردته باختصار، كأنه كلام صادر من جميع الشباب الذين يتلوون من آلام الإلحاد والكفر. وأنا أصرخ مثل ذلك الشباب أيضاً وبكل ما آتاني الله من قوة وأقول: إن الشباب الذي يضطرب بآلام الكفر محتاج إلى إسباغ رحمتكم ورأفتكم عليه، فلن تحصدوا شيئاً بالقوة والإكراه. نحن مضطرون إلى العمل بعقولنا ومنطقنا وليس بعواطفنا. والأصل في القضية أن الذين نجدهم مواجهين لنا وفي الصف المخالف، علينا إقناعهم وتوجيههم إلى عالم القلب والمعنى. وأعتقد أنه إلزام المقابل أيضاً ليس أسلوباً يلتمس به المرشد طالما لا ضرورة في الأمر.

نعم، إن جيلاً كاملاً قد فُني ومُحي، ووضعت على الطرق المؤدية إلى المساجد حواجز وعقبات من الشهوات والأهواء، وجُعلت الأمور الجسدية محراب الجيل؛ فلم يعلّموه شيئاً عن الدين والإيمان والقرآن. والآن هذا الجيل يضطرب في هذه الدوامة. وهذه نتيجة طبيعية جداً ومنتظرة. فليس هذا الجيل النكد وهذا الشباب البائس يُغضب عليه ويُحنق عليه، بل الذيـــن

يستحقون لعنة المؤمنين هم الذين دفعوا هؤلاء إلى هذا المجرى القذر. فإن كان هناك تقصير في شيء فيعود إلى هؤلاء. ولا أقول أن الجيل الناشئ أو الشباب مبرأ عن الذنوب والآثام إلاّ أن مواجهته بذنوبه مباشرة بحدّة وخشونة لا يعني شيئاً لإنقاذه، وأملنا أن يُنقَذ هذا الجيل من هذا المستنقع في أقرب وقت. وهذه غاية وجودنا و مبتغانا.

٢- التضحية

هذا الموضوع يستحق أن يخصَّص له فصل كامل، ويُحلّل تحليلاً دقيقاً، إلاّ أنني هنا أريد أن ألفت نظركم إلى بعض أبعاده فحسب للتأمل والتفكر:

إن التضحية أيضاً من أهم خصائص المبلّغ، فالذين لا يضعون التضحية نصب أعينهم منذ البداية -أو يعجزون عن ذلك- لن يكونوا من رجال الدعوة. ولا داعي للكلام عن إخفاق من لم يكن رجل دعوة بهذه الصورة.

بينما المستعدون للتضحية بالمال -إن طُلب- أو بالنفس -إذا تطلب- بل حتى بالأولاد والأهل والمقام والمنصب والشهرة إلى آخر الأمور التي يتغنى بها الآخرون ويجعلونها مبتغى حياتهم، هؤلاء المستعدون للتضحية بهذه الأمور سينصب عرش دعوتهم في الذرى، وهذا أمر محقق ومقدّر.

فعندما أرسى الرسول الكريم ﷺ دعوته في مكة، أفهم روح التضحية وغرزها فعلاً في النفوس، بدءاً بنفسه ثم الأقربين له ممن نصروه. فمثلاً: سيدتنا خديجة الكبرى رضي الله عنها زوجة سيد المرسلين، سلطان الدنيا والآخرة، قد بذلت كل ما عندها في سبيل هذه الدعوة المقدسة دون أن تُحرج الآخرين في الطلب، فتحملت جميع مصاريف الضيافة والولائم التي كانت تقام لدعوة مشركي مكة. وعندما توفيت هذه السيدة الكريمة العزيزة الموسرة لم تُبق لنفسها حتى ثمن كفنها!.

نعم، إن كل داع إلى الله يبذل من تضحية فائقة لما يملك من إمكانات

مادية، وعلاوة على ذلك ولكي يحيا بدينه وفكره وحريته وإنسانيته بأفضل ما يمكن وليعيش بها، يترك بيئته التي نشأ فيها، أي يهاجر. وهذا بعدٌ آخر للتضحية؛ فقد هاجر سيدنا أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ، وهاجر كل غني وفقير وشاب وشيخ وامرأة ورجل من المسلمين. هاجروا جميعاً وتركوا موطن آبائهم وأموالهم لظَلَمَة مكة وجباريها، ولم يأخذوا شيئاً معهم إلاّ ما يسدّ الرمق في الطريق. فالمهاجرون عندما تجشموا كل هذه التضحيات في سبيل تبليغ دعوتهم التي آمنوا بها والتمثل بها، استقبلهم أهل المدينة: الأنصار، بالترحاب وضمّوهم إلى صدورهم. وهذا نوع آخر من التضحية؛ ذلك لأنهم آثروهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.[1]
فرجال التبليغ والإرشاد أيضاً في الوقت الحاضر، عليهم أن ينفّذوا هذا المفهوم للتضحية والتي تمثلت في عهد الصحابة الكرام الذين هم في الذروة في كل مجالات الحياة، ويظهروا الحالة نفسها، وذلك لأن بخلافها لا يحالفهم التوفيق، كما ذكرنا في المقدمة.

٣- الدعاء

الدعاء لدى المبلّغ وصف ملازم له لا يقل أهمية عن أوصافه الأخرى. فهو لا ينتظر تأثير كلامه في المخاطب ونفوذه إلى قلبه إلاّ من الله تعالى، إذ هو المالك لكل شيء، وقلوب عباده بين إصبعين من أصابعه سبحانه وتعالى يقلبها كيف يشاء. أما الأمر الإلهي ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْ لاَ دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾(الفرقان:٧٧)، فيستقر في قلب المبلّغ كالبوصلة الحساسة تدلّه دائماً على محراب الدعاء والتضرع والإنابة.

نعم، لقد اهتدى أناس كثيرون بالدعاء والتضرع القلبي الخالص بينما لم يؤثر فيهم الكلام البليغ الساحر. لذا فكما أن الدعاء سلاح المؤمن فهو

---

(١) انظر: البخاري، مناقب الأنصار ٣، البيوع ١؛ حياة الصحابة للكاندهلوي، ٣٨١/١.

الحصن الحصين الأول والأخير للمبلّغ الذي يتوسل قبل كل شيء بالدعاء ومن ثم يباشر بالكلام عما يريد. ولا يعني هذا أن المبلّغ يترك طوره المنطقي المتسم بالعقل، بل يعني أن المبلّغ يعرف بدقة متناهية مواضع كل من العقل والمنطق والدعاء. ولنذكر أمثلة تكشف كيف أن الدعاء بحد ذاته إكسير عظيم في التأثير:

جرّب الرسول الكريم ﷺ كل وسـيلة مشروعة لهداية الناس، وكان ملازما للدعاء، وما ورد عنه أنه ترك الدعاء قط. فقد دعا الله أن يهدي عمر بن الخطاب، وإذا بعمر يتشرف بالهداية في يوم ليس بالحسبان. وما هذا إلاّ من بركة دعاء الرسول ﷺ.[١]

وذات يوم سأل أبو هريرة رضي الله عنه رسول الله ﷺ أن يهدي الله سبحانه أمه.. ففي رواية عنه: "كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة، فدعوتها يوماً فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره. فأتيتُ رسول الله ﷺ وأنا أبكي؛ قلت: يا رسول الله! إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبي عليّ، فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره، فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة. فقال رسول الله ﷺ: "اللهم اهد أم أبي هريرة". فخرجتُ مستبشراً بدعوة نبي الله ﷺ. فلما جئتُ فَصِرْتُ إلى الباب فإذا هو مجافٌ -أي مغلق- فسمعتْ أمي خَشْفَ -أي صوت- قدمّي فقالت: مكانَك! يا أبا هريرة! وسمعت خضخضة الماء. قال: فاغتسلتْ ولبست درعها وعَجلَتْ عن خمارها ففتحت البابَ. ثم قالت: يا أبا هريرة! أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبدهُ ورسولهُ. قال: فرجعْتُ إلى رسول الله ﷺ فأتيته وأنا أبكي من الفرح".[٢]

---

(١) انظر: البداية لابن كثير، ٣١/٣؛ أسد الغابة لابن الأثير، ١٤٨/٤؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ٣/ ٢٨٦.

(٢) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ٣٢٨/٤؛ الإصابة لابن حجر، ٢٤١/٤.

٤- المنطق والواقعية

المبلّغ -في الوقت نفسه- إنسان منطقي، سواء في تقييمه الأحداث أو في تفهيمه مخاطبيه؛ فهو دائماً ينـــزل منازلهم ومستوى مداركهم، ومن ثم يقنعهم بما يريد، حيث إن كلامه يكون مقبولاً لا يلام عليه بنسبة مطابقة أقواله وأحواله للمنطق والواقعية. ولا يظنن أننا نحث المبلغ ليكون فيه جفاف المناطقة، وإنما نريد منه أن تكون أطواره وتصرفاته منطقية وضمن حدود المعقول والواقع، علاوة على ما ذكرناه سابقاً. ودونكم مثالا ملفتا للأنظار من رسول الله ﷺ:

جاء شاب إلى رسول الله ﷺ، والصحابة لا يذكرون اسم هذا الشاب، ولكن إن قمنا بجمع هذه الروايات وتوحيدها نعلم أنه جليبيب رضي الله عنه..

فعن أبي أمامة: "أنَّ فتىً من قريشٍ أتى النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله ائذن لي في الزنا، فأقبل القوم عليه وزجروه فقالوا: مه مه، فقال: "ادنه"، فدنا منه قريباً فقال: "أتحبُّه لأمك؟" قال: لا والله جعلني الله فداك! قال: "ولا الناس يحبُّونه لأمَّهاتهم" قال: "أفتحبُّه لابنتك؟" قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك! قال: "ولا الناس يحبُّونه لبناتهم" قال: "أفتحبُّه لأختك؟" قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك! قال: "ولا الناس يحبُّونه لأخواتهم" قال: "أتحبُّه لعمَّتك؟" قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك! قال: "ولا الناس يحبُّونه لعمَّاتهم" قال: "أتحبُّه لخالتك؟" قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك! قال: "ولا الناس يحبُّونه لخالاتهم" قال: فوضع يده عليه وقال: "اللهم اغفر ذنبه وطهِّر قلبه وحصِّن فرجه"، قال أبو أمامة: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء."[1] فأصبح جُليبيب من أعف الشباب في المدينة.

وبعد مدة وجيزة خرج رسول الله ﷺ في غزوة له. فلما أفاء الله عليه

---

(١) أحمد بن حنبل، المسند ٥/٢٥٦-٢٥٧.

قال لأصحابه: "هل تفقدون من أحد؟" قالوا: نفقد فلانا ونفقد فلانا. قال: "انظروا هل تفقدون من أحد؟" قالوا: لا. قال: لكني أفقد جُليبيباً" قال: "فاطلبوه في القتلى". فطلبوه فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه. فقالوا: يا رسول الله هاهو ذا إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه. فأتاه النبي ﷺ فقام عليه فقال: "قتل سبعة، ثم قتلوه. هذا مني وأنا منه، هذا مني وأنا منه" مرتين أو ثلاثا، ثم وضعه رسول الله على ساعديه وحفر له، ما له سرير إلا ساعدا رسول الله ﷺ، ثم وضعه في قبره.[1] وهكذا أصبح جليبيب بجناحي المنطق والدعاء طائرا من طيور العالم الآخر.

٥- التسامح

المبلّغ سمح في أطواره، والحقيقة أن التسامح هو سعة الصدر وسعة أفق في النظر، وليس فيه معنى التنازل عن الدعوة ولا المداهنة قط. ولنوضح ذلك بمثال:

الكلام الذي نطق به الرسول الأعظم ﷺ لكفار مكة الذين أخرجوه منها ومن آمن معه، بعد أن أذاقوهم صنوف العذاب، هذا الكلام رمز ساطع للتسامح، فقد سأل ﷺ: "ما ترَون أني فاعل بكم؟" فأجابوه: "خَيراً أخٌ كريم وابن أخ كريم" فقال لهم ما قاله يوسف عليه السلام لإخوته: ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾(يوسف:٩٢). ولقد أظهر سيدنا يوسف التسامح على إخوته بينما الرسول ﷺ أظهره حتى لأعدائه، ففاق كرمه كرم سيدنا يوسف عليه السلام.

٦- رهافة الحس

المبلّغ رهيف وشـــديد الحساسية تجاه ضلال النـــاس عن الحق، يؤلمه إعراضهم عن أوامر الله تعالى واعتراضهم عليه ألماً شديداً في الصميم. ويظل

(١) مسلم، فضائل الصحابة ١٣١؛ أحمد بن حنبل، المسند ٤/ ٤٢٠-٤٢١؛ مجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ٣٦٨.

طاوياً لهذا الألم حينما يرى ردّة في الدين ونفسُه عاجزة عن القيام بشيء تجاههم، فليس له إلاّ الاضطراب والقلق والحسرات عليهم. والقران الكريم يرسم الحالة النفسية الناشئة من شدة الحساسية والاضطراب الذي كان يعانيه الرسول ﷺ في سبيل التبليغ والدعوة بالآية الكريمة: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾(الشعراء:٣). ولا شك أن هذه الحالة النفسية ينطوي عليها كل مبلّغ، بل ينبغي له.

والردة تعني الارتداد عن الدين الحق، والمرتد هو الذي ينكر جميع المقدسات التي آمن بها من قبلُ، وهو من جهة يحقّر المسلمين ويستهين بهم وبعقيدتهم، فمن يهن المسلمين مرة واحدة يمكنه أن يهينهم كل وقت، لذا يرى البعض أن المرتد لا حق له في الحياة. بيد أن علماء الفقه وضعوا أسساً لكل حكم، فقالوا: إن المرتد يفهّم أولاً المسألة التي أرتدّ بسببها ويُسعى إلى إقناعه بجميع تفرعات تلك المسألة. وإذا انتفت جميع الوسائل لإقناعه ولم يرجع إلى الصواب تبين أن هذا الإنسان غدا ورماً خبيثاً في جسم المجتمع الإسلامي. فيعامل وفق ذلك.[1] ذلك لأن المؤمن لا يمكنه أن يقف مكتوف الأيدي أمام ارتداد شخص ما. لأن مفهوم الردّة في الإسلام لا يسمح بذلك. بل إن كل مؤمن يتألم ألماً شديداً إذا ما سمع بالحادثة وذلك حسب مستوى مشاعره وشدة حساسيته في الأمر، أما ألم واضطراب المبلّغ فيفوق كل ألم واضطراب، لأنه يعلم جيداً أن هداية الناس هي غاية وجوده.

استعجل سيدنا خالد بن الوليد في حادثة، لدى تقييمه قواعد الدين في مسألة الردّة، وعندما بلغ الخبر رسول الله ﷺ تألم ألماً شديداً ودعا الله قائلاً "اللّهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد".[2]

وقد انعكست هذه الحساسية الشديدة لدى الرسول ﷺ إلى أصحابه

---

(١) انظر: البخاري، الديات ٦؛ مسلم، القسامة ٢٥؛ المبسوط للسرخسي، ٩٨/١٠؛ بدائع الصنائع للكاساني، ١٣٤/٧.

(٢) البخاري، المغازي ٥٨؛ السيرة لابن هشام، ٧٢/٤.

الكرام، فمثلاً: قدم على عمر بن الخطاب رجلٌ من اليمامة، فسأله عما حدث من أمر جاد. فأخبره: ليس إلاّ أن رجلاً كفر بعد إسلامه. قال: فما فعلتم به؟ قال: ضربنا عنقه. فتحسّر عمر حسرة عميقة كما فعل رسول الله ﷺ، ثم قال: "أفلا حبستموه –ثلاثاً–، وأطعمتموه كلّ يوم رغيفا، واستتبتموه لعلّه يتوبُ ويُراجِع أَمْرَ الله؟ ثمّ قال عمر: اللّهمّ إني لم أَحضر، و لم آمُر، و لم أَرض إذ بلغني".[1]

٧– عمق العالم الروحي

المبلّغ صاحب عالم روحي عميق أيضاً، ذلك لأن قوله ينعكس على الآخرين بنسبة عمق عالمه الروحي، فكلما اقترب إلى المولى العزيز قرّبه المولى إليه حتى يكون بصره التي يبصر بها، وأذنه التي يسمع بها، ويده التي يبطش بها، فيكون الله سبحانه وتعالى أساس كل حركة ونأمة له. بمعنى أن حركاته كلها تجري في ظل تأييد الله سبحانه. فكلما عمل بما عَلِم علّمه الله ما لم يعلم وسدد خطاه. حتى يغدو حلاّلاً لأصعب المعضلات المستعصية على الآخرين وبكل سهولة ويسر. فيتميز في المجتمع لاستمراره عليها. ويصبح ممثلاً عن الصراط المستقيم. ومن كان شأنه هذا، ترده فيوضات مقدسة من الله سبحانه، فيديم إرشاده بجاذبة قوية للمجال المغناطيسي المتولد من تلك الفيوضات، حتى يصبح محيطه كأنه ظل إلهي يتفيأ إليه الألوف بل مئات الألوف من الناس، وهكذا فالجاذبية القوية لدى المرشدين العظام نابعة من هذا العمق الداخلي، إذ قد حصل المرشد الذي بلغ هذه الحالة على اليقين التام وامتلك زمام القوة الساحرة لليقين. وما بلوغ اليقين إلاّ بلوغ الكمال في الإيمان، حيث يقول الرسول ﷺ: "اليقين كله إيمان".[2]

---

(١) الموطأ للإمام مالك، الأقضية ٥٨.

(٢) البخاري، الإيمان ١.

واليقين يعني تجهيزعقل المؤمن بالبراهين، وإعمار ذهنه بالتفكر، وإشعاع الأفكار بالإلهام، وذوبان النفس بالعبادة والطاعة، وتحول القلب إلى مرآة مجلوة ناظرة إلى الحق تعالى بدوام المراقبة والمشاهدة.

اليقين وصول إلى التوحيد، مَن بلغه فلا يخاف أحداً، ولا يرجو من شيء، إلاّ الله سبحانه وتعالى، إذ كل شيء عنده من الله تعالى، لأنه آمن بأن الخير والشر كله من الله تعالى.

فالذي بلغ اليقين من هذا الجانب، لا يفتر، لا يخاف، يستقبل الموت متبسماً، يعيش في الآخرة ولمّا يغادر الدنيا، إذ يؤمن أن براق الموت سيوصله إلى مشاهدة من يشتاق إليه، لذا فهو في بهجة وسرور دائمين، وفي الحديث الشريف: «خيار أمّتي فيما أنبأني الملأ الأعلى قومٌ يَضحكون جهراً في سَعَة رحمةِ ربّهم ويبكون سرّاً "ليلا" من خوف عذاب ربهم... قلوبُهم في الدّنيا وأرواحُهم في الآخرة».[1]

نعم، لقد غدا غاية المنى لكل مرشد أن يبلغ أهل اليقين الذين يشاهدون الدنيا والآخرة معاً فيستشعرون الوحدة. وهذا هو ما ننتظره من أنموذج المرشد ونترقبه، والذي لا يملك أدنى ميل إلى الدنيا من حيث إنها دنيا، ولا يفكر بالبقاء فيها لولا وظيفة الإرشاد، فأمثال هؤلاء هم المرشدون المتخلقون بالأخلاق المحمدية. وعلى كل مرشد أن يكون على هذا النمط.

يذكر السيد طاهر المولوي الذي شرح المثنوي لجلال الدين الرومي، يقول: كنت مع الشيخ عاطف في الزنـــزانة، والشيخ من أرباب الأقلام واستيعاب لثقافة عصره. وقد أعدّ دفاعا قويا للجلسة الأخيرة لمحاكمته التي ستعقد صباح غد. ولكن الشيخ عاطف بعد أدائه لصلاة الفجر مزق دفاعه الذي كتبه أمس ورماه في سلة المهملات. سألته ما الذي حدث؟ لِمَ مزقت الدفاع؟ أجابني بالآتي:

---

(١) المستدرك للحاكم النيسابوري، ٣/١٧؛ شعب الإيمان للبيهقي، ١/٤٧٨.

لقد سعدتُ هذه الليلة برؤية سيد الكونين ﷺ؛ كنت جالساً ومنهمكاً بكتابة الدفاع، فخاطبني قائلاً: يا عاطف ما هذا التهالك؟ ألا تريد المجيء إلينا؟ قلت: وكيف لا أريد يا رسول الله؟ وهذا يعني أن وقت لقائه قد حان. فهل من داع للدفاع؟

وهكذا حكمت عليه المحكمة بالإعدام، فاستقبل قرار الحكم متبسماً وباطمئنان بالغ عميق؛ لأن هذا الحكم سيحقق اللقاء مع رسول الله ﷺ. وكيف لا يفرح من يركب مثل هذا البراق؟! وكيف لا يغرق في الاطمئنان والسكينة من سار في هذا الطريق باستقامة، وراقب رِضَى الله في كل منـــزل من منازله، وآمن بتوفيقه إلى توجّه الله ورسوله إليه في كل خطوة يخطوها. نعم مثل هذا الرجل قد يُقتل ويُعدم ولكن لا يُغلب قط.

نعم إن الذي يوصل المبلّغ إلى التوفيق في النتيجة هو حفاظه على صفاء الروح ورقتها على الدوام. لأن الذي نذر نفسه لله وسعى لكسب رضاه وحده سبحانه سيبلغ مراده ومطلبه قطعاً، إن لم يكن اليوم فغداً في الآخرة. فماذا فقَدَ من وجَدَ الله وماذا كسب مَن لم يجده، حتى لو كانت الدنيا كلها ملكه.

أليس الأمر كله لقاء الله بقلب سليم حي؟ ولِمَ نهتم بما بعده من أعمال فارغة وقضايا نحن في غنى عنها؟ نسأل الله تعالى القدير أن يحفظ قلوبنا برقتها وصفائها إلى يوم لقائه جل وعلا، فهو ربنا... آمنا بأن رحمته وسعت كل شيء وسبقت غضبه. فلا نسأل غير رضاه ورحمته.

٨- الشوق والاشتياق

المبلّغ يؤدي وظيفته في جو مفعم بالعشق والشوق، ويكون التبليغ شوقه وعشقه، لا يبتغي عنهما عوضاً. ويلزم أن ينبّه هذا الشعور فيه. غير أن إيقاظ هذا الشعور ليس من السهولة بمكان، بل عسير جداً، وكذا تحققه يطول كثيراً. فلولا أن بنى الرسول ﷺ هذا الشعور في أصحابه في بدء

الدعوة، ولو لم يجعلهم عشاقاً للحق والحقيقة، لما كانت الرسالة ضمن دائرة الأسباب تتحقق بأبعادها الواسعة.

فهذا سيدنا خالد بن الوليد يقابل قائد الروم فيعرض الإسلام عليه أولاً.[1] فنرى التبليغ أوّلاً ثم تتكلم السيوف. تُرى بمَ يوضَّح هذا إن لم يكن شوق التبليغ يفوق كل شيء.

فلقد استحوذ تأثير هذا الشوق والعشق العظيم للتبليغ على الصحابة الكرام رضوان الله عليهم فهجروا أوطانهم منتشرين في أرجاء الأرض لأجل التبليغ.

ولنذكر واحدة منها:أُسِر خُبَيب وأُخِذ إلى مكة، وبعد أن قضى مدة طويلة في السجن أُخذ أمام مشهد عظيم للإعدام، فكان حزيناً مكدّراً لأنه لم يجد الفرصة سانحة لتبليغ ما أودعهم الرسول الكريم ﷺ من وظيفة الإرشاد، والآن يساق إلى الإعدام مكبّل اليدين ومعقد اللسان. فكان يجول ببصره إلى من حوله دون توقف باحثاً عمن يبلّغه شيئاً من الدين، ولكن دون جدوى حيث لا يجد أحداً، رغم أن فيهم من سيكون من الصحابة في المستقبل. ولكن بالنسبة لذلك اليوم لم تُفتح بعدُ بصيرتهم.. وقال لهم: إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا. قالوا: دونك فاركع. فركع ركعتين أتمّهما وأحسَنهما. ثم أقبل على القوم فقال: «أمَا والله لولا أن تظنوا أني إنما طولتُ جزعا من القتل لاستكثرت من الصلاة».[2] ثم رفعوه على خشبة الإعدام.. والآن آن الأوان للوداع الأخير فصوبت نحوه الحربة، بيد أن خُبَيباً يجول ببصره أيضاً إلى مَن حوله علّه يجد من يبلّغه، فما كان يبحث عمن ينقذه من الموت، بل كان يريد أن يجد أحداً لينقذ حياته الأبدية ولو في هذه اللحظات الأخيرة.. فيا لله ما أخيب الموت في نظر أولئك العشاق لتبليغ

---

(١) انظر: البداية لابن كثير، ١٣/٧.

(٢) انظر: البداية لابن كثير، ٦٥/٤.

دعوة الله عندما يغلبون على أمرهم فلا يستطيعون ذلك.. وفي هذه اللحظة سنحت فرصته بغير حسبان، إذ سأله أحد كبار مشركي قريش، وظاهر السؤال ليس مهماً بقدر ما سيكون جوابه مثقلا بالحكمة، وبقدر ما يكون فرصة لأداء وظيفة الإرشاد، وربّ شرارة من فكر تكون سبباً لإضرام نار الإيمان في قلوب الكثيرين في المستقبل. والسؤال هو: "أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك؟"

لا شك أن هذا السؤال لا يُسأل عنه مسلم، فكيف يُسأل "خبيب" ذلك الصحابي الجليل. بيد أنه كان يترقب اغتنام فرصة للتبليغ عقب السؤال؛ فلقد طفح جيشان وجدانه بين السرور الغامر والكدر الممض فلا يسعه شيء، لذا سعى ليقول شيئاً ولو قصيرا كصلاته التي صلاّها، بل كان عليه أن يُقحم الحياة كلها في جملة واحدة، يظل التاريخ صامتاً صاغياً إليها وتبقى أذن الزمان ترن بها.. وهكذا كان؛ قال: «والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإني جالس في أهلي».[1] فيا له من وفاء، فاسمُ به أيها الروح الطاهر.

وبعد أن قال هذا الكلام ذهب عن خُبَيب ما كان يشعر به من ضيق لعدم إيفائه بواجب التبليغ. فغدا يشعر بالخفة كالريش. و لم يبق له إلاّ سلام الوداع للرسول ﷺ ثم السير إلى الجنة.. و لم يفكر قط أيمكن أن يبلغ السلام من مكة إلى المدينة أم لا؟ لأنه يعلم أنه يبعث بسلامه إلى نبي عظيم.كان آخر ما نطق به على خشبة الإعدام "السلام عليك يا رسول الله". وكان الرسولﷺ جالساً مع أصحابه في المدينة، وإذا به قام وقال: «وعليكم السلام يا خُبَيب».[2]

نعم، كل صاحب دعوة عليه أن يَبْلُغ ما بلغه خُبَيب في عشق التبليغ والشوق إليه. كي يمكنه أن يقول لسير التاريخ المخالف: قف! و يمكنه أن

---

(١) البداية لابن كثير، ٤/٦٥.

(٢) البداية لابن كثير، ٤/٦٦، ٦٩.

يتجاوز تيارات الزمن المخالفة أو المضادة ويعيد الزمن إلى مجراه الصحيح، ليكون مؤدياً حقيقة وظيفة خليفة الله في الأرض.

٩- صفاء القلب ورقة الروح

على الداعية في أثناء تبليغ دعوته أن يكون في منتهى صفاء القلب ورقة الروح، أي عليه أن يحمل قلباً صافياً صفاء دعوته وسطوعها، إذ بخلافه تكون علاقته مع الحق سبحانه كَدِرةً بنسبة كدورة عالمه الروحي. فيزول تأثير كلامه. ويمكننا أن نعبّر عن هذا بالآتي:

لا يرجو المبلغ شيئاً لدى تبليغه غير رضوان الله سبحانه وتعالى. وطالما هذا طوره فسيجد الله معه، ويستشعر بروحانية الرسول الكريم ﷺ وهمّة العظماء ظهيراً له. وهذا ما لا يشك فيه أحد، إذ لئن كانت تُنتظر من البذرة التي تلقى في التراب أن تتحول إلى ألف بذرة فلابد ألاّ يركن إلاّ إلى قوة الله جل وعلا. إذ الرجاء من أبواب أخرى ليس إلاّ الخسران المبين. والحقيقة أن فهمنا للتوحيد يقتضي هذا، إذ كما لا شريك له سبحانه في ذاته فلا شريك له في أفعاله أيضاً. فلا يخلق الهداية والضلالة إلاّ هو، فهو مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينـــزع الملك ممن يشاء ويعزّ من يشاء ويذل من يشاء.

نعم، إن السير في مجاهدة الإنسان نفسه لبلوغ هذه الذروة من صفاء القلب ورقة الروح شاق وعسير، ولكن بلوغ الهدف في الذروة أيضاً حظ عظيم وسعادة كبرى.

انظروا إلى أبي حنيفة النعمان، إنه يرفض وظيفة القضاء حفاظاً على صفاء قلبه ورقة روحه، ويُعذّب أيما تعذيب تحت سياط الظلمة، ولكن لا يقبل ما عدّه فخاً وشِباكاً لروحه.[١]

---

(١) انظر: تذكرة الحفاظ للذهبي، ١٦٨/١؛ وفيات الأعيان لابن خلكان، ٤٠٧/٥؛ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ٣٢٦/١٣، ٣٢٨.

وكذا الإمام الشافعي قد بذل قصارى جهده لئلا يكلّف بمثل هذا الأمر.[١] بل رضي بأن يعيش عيش الكفاف كسائر الناس، رافضاً كل ما كلّف به من مقام ومنصب تحت ضغوط قوية من قبل الدولة، ففضّل ذلك العيش على أن يقبل وظيفة للدولة، وآثر ألاّ يعرف موضعه وحاول ألاّ يتعرض إلى ما تعرض إليه أبو حنيفة النعمان.

وجهاد الإمام أحمد بن حنبل في سبيل القرآن لم ولن يُمسح من ذهن التاريخ. إذ قال "القرآن غير مخلوق" وأصرّ على كلامه هذا طوال عمره.[٢] وكان يمكنه بسهولة أن يتجاوز ذلك بالتعريض ولكن كان يأباه قطعاً.

و"روى البيهقي عن الربيع قال: بعثني الشافعي بكتاب من مصر إلى أحمد بن حنبل فأتيته وقد انفتل من صلاة الفجر فدفعت إليه الكتاب. فقال: أقرأته؟ فقلت: لا. فأخذه فقرأه فدمعت عيناه. فقلت: يا أبا عبد الله وما فيه؟ فقال: يذكر أنه رأى رسول الله ﷺ في المنام فقال اكتب إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل واقرأ السلام مني وقل له: إنك ستُمتحن وتُدعى إلى القول بخلق القرآن فلا تجبهم: ويرفع الله لك عَلَمًا إلى يوم القيامة. قال الربيع: فقلت حلاوة البشارة فخلع قميصه الذي يلي جلده فأعطانيه. فلما رجعت إلى الشافعي أخبرته. فقال: إني لست أفجعك فيه ولكن بلّه بالماء وأعطينيه حتى أتبرك به".[٣]

---

(١) انظر: طوالع التأسيس لابن حجر، ٨٤/٧٧؛ الإمام الشافعي لعبد الغني الدقر، ٣٨٠، ٣٨١.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٢٣٩/١١، ٢٤٠؛ حلية الأولياء لأبي نعيم، ٢٠٦/٩.

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر، ٢٥٠/٣؛ وانظر إلى: البداية لابن كثير، ٣٣١/١٠.

النتيجة

نختم الكتاب بخلاصة ما ذكرناه حول أصول التبليغ في الإسلام على صورة نقاط:

١- التبليغ والإرشاد أقدس وظيفة من وظائف المسلم، فقد بعث الله سبحانه المصطفَيْنَ الأخيار وهم الأنبياء والرسل بهذه الوظيفة.

٢- على الرغم من أن التبليغ فرض كفاية في الظروف الاعتيادية، فإنه في يومنا الحاضر لكونه من المسائل المهملة قد أخذ موقع أفرض الفرائض، فلا يجوز إهماله قطعاً.

٣- مَن مات مُهملاً لهذه الوظيفة، يُخشى عليه النفاق، حيث قد ترك وظيفة جليلة أهم من الفرائض الشخصية وأجزل ثواباً منها.

٤- المجتمع الذي يؤدّى فيه التبليغ في ذمة الله تجاه البلايا السماوية والأرضية، حتى لو كان الذين يؤدون هذه الوظيفة المقدسة بضعة أشخاص. وبخلافه تنقلب النتيجة أيضاً، أي قد يهلك الله قوماً لا تؤدّى فيهم هذه الوظيفة الجليلة. وما هلاك أقوام منا ببعيد.

٥- تؤدّى هذه الوظيفة المقدسة ضمن منهج الأفراد والأمم والدول، إذ المسلم عنصر أساس في نظام العالم. فكما لا نظام في عالم ليس فيه مسلم، كذلك لا إرهاب ولا فوضى في المواضع التي يوجد فيها مسلم. وهذا منوط بقيام المسلم بوظيفته وأدائها حق الأداء.

٦- القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، شعار الإيمان. وعزل هذه الوظيفة عن الإيمان غير وارد إطلاقاً. فقد عدّ القران الكريم المؤمنين بعضهم أولياء بعض، مشيراً إلى العمدة الأساس الذي يديم هذه الولاية.

بينما المنافقون ليس بعضهم أولياء بعض؛ فهم ينكرون المعروف ويأمرون بالمنكر.

٧- لقد تعهد الله سبحانه بحفظ دينه. بيد أن هذا الحفظ الإلهي مرتبط بهمّة المؤمنين والمؤمنات جميعاً وتولّي قسم منهم لنصرة الدين. والإشارة الواضحة لهذه النصرة أداؤهم وظيفة التبليغ بحقها.

٨- العلم والعمل والتبليغ وجوه ثلاثة لحقيقة واحدة، لا يمكن فك الواحد عن الآخر، فالعلم شرط أساس للتبليغ والعمل حياته.

٩- ينبغي أن يعرف المبلّغ حقائق الإسلام معرفة جيدة، وكذا العصر الذي يعيش فيه، فمن لا يعرف عصره الذي يعيش فيه يمضي حياته في دهليز ويحاول سحب الآخرين إليه لأجل تفهيمهم، وهذه غيرة بائسة.

١٠- تنظّم معايير قلب المبلّغ وفق القرآن الكريم؛ فمن لم ينسق قلبه مع القران يصعب أن يتكلم باسم الإسلام، أما إفهام حقائقه فغير ممكن.

١١- الطريقة التي يتبعها المبلّغ لابد أن تكون مشروعة، إذ الوصول إلى هدف مشروع ليس إلاّ باتباع طريق مشروع. وهذا هو طريق رسول الله ﷺ. وليس الطرق التي تسلكها المنظمات التي تبرر كل وسيلة لأجل البلوغ إلى الغاية. فيلزم في الوقت الحاضر أن يسلك المبلّغون مسلك الصحابة الكرام فلا يلجون إلى سبل إلاّ أن تكون مشروعة في كل جزء من جزئياتها. وهؤلاء هم الذين ينصرون الدين وينشرونه في الآفاق.

١٢- المبلّغ يحيا بما يقول، وخلافُه النفاق الذي يتجنبه المؤمن كثيراً. فكلمات المبلغ تنعكس أولاً في حياته، وإلاّ فهو كهشيم المحتضر، يلتهب ثم يخبو وينطفئ بسرعة.

١٣- المبلّغ يحافظ على تواضعه وإنكاره للذات وهو طور النجباء الأصلاء. أليس الإيمان هو الأصالة والنجابة بذاتها؟ لذا يتصرف المبلغ تصرف

الأصيل كأي مؤمن صادق حتى يجعل هذه الأخلاق سجية ومَلَكة له، وهي أخلاق الرسول ﷺ.

١٤- المبلّغ لا صلة له مع أركان الدولة أو ما يسمى بالطبقة الارستقراطية فيما عدا وظيفة التبليغ والإرشاد. فهو شديد الحساسية في هذا حفاظاً على عزته وكرامته.

١٥- المبلّغ يكون مصرّاً في تبليغه، وهو تعبير عن توقيره لدعوته، لذا يعظّم ما عظّمه الله من المسائل، وإلاّ يكون كاذباً فيما يقول.

١٦- المبلّغ لا يعارض قوانين الفطرة ويتصرف دائماً على بصيرة، فليس صواباً قط التغاضي عما في الإنسان من نواحي الضعف والميل، بل الأوجب تغيير مجرى هذه النواحي إلى ما هو أجمل وأفضل.

١٧- المعاناة قَدَرُ المبلّغ، لا يتبدل، وعليه إبداء الرضى في أوائل الطريق.

١٨- المبلّغ رجل الرحمة والشفقة، لا يرد في ذهنه قطعاً التشبث بوسائل البطش والقوة لإحقاق الحق.

١٩- التضيحة من أهم خصائص المبلّغ، فعليه أن يتصف بصفات الحواريين، بل من لم يكن منذ نعومة أظفاره على صفة الحواريين، لا يترك الحياة على صفة المبلّغ الجيد. وهذا يقتضي التضيحة قبل كل شيء.

٢٠- المبلّغ إنسان متكامل بالدعاء الذي هو أساس الإخلاص.

٢١- المبلّغ إنسان منطقي وواقعي أيضاً، يوفَّق في الأعمال بمقدار عمله بأسس المنطق.

٢٢- المبلّغ شديد الحساسية تجاه إيمان الناس، يتمزق فؤاده حينما يرى حوادث الكفر والارتداد.

٢٣- المبلّغ يؤدي وظيفته ضمن الشوق والعشق. فلا يمكن أن يوفق إن لم يكن عاشقاً للتبليغ متيماً به.

٢٤- الإيمان العميق، أي عمق عالمه الروحي، صفة لا تنفك عن المبلّغ، وهذا يعني بلوغه اليقين، ومن بلغ اليقين فقد جُهّز بالفضائل كلها.

٢٥- في أثناء قيام المبلّغ بوظيفته، عليه أن يحمل قلباً سليماً معافىً، وروحاً رقيقة نقية، ولكي يرى الله والرسول ﷺ ظهيراً له في عمله لا بد أن تكون حياته صافية كصفاء دعوته في الأقل. وهذا لا يتحقق إلاّ بصفاءِ العيش.

فهرس

الفصل الأول

تحليل التبليغ

الفصل الثاني

أصول وقواعد في التبليغ

الفصل الثالث

صورة قلمية لروح المبلّغ

المترجَم للعربية من الفكر الموسوعي لفضيلة الشيخ فتح الله گولن

١. النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية (مجلدان)

٢. سلسلة النور الخالد (٧ أجزاء)

٣. القدر في ضوء الكتاب والسنة

٤. أسئلة العصر المحيِّرة

٥. روح الجهاد وحقيقته في الإسلام

٦. طرق الإرشاد في الفكر والحياة

٧. أضواء قرآنية في سماء الوجدان

٨. الموازين أو أضواء على الطريق

٩. ترانيم روح وأشجان قلب

١٠. ونحن نقيم صرح الروح

١١. حقيقة الخلق ونظرية التطور

١٢. التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح

www.ar.fgulen.com